



ا.ك أوليدوف

الوعي الأجتماعي

الوعي الأخلاقي . الوعي السياسي . الوعي
الحقوقي . الوعي الديني . الوعي الفلسفي



ترجمة ميشيل كيلو

أ ك. أوليدوف

الوعي الاجتماعي

- الوعي الاخلاقي
- الوعي السياسي
- الوعي الحقوقي
- الوعي الديني
- الوعي الجمالي
- الوعي الفلسفي

ترجمة

ميشيل كيلو

دار ابن خلدون

الفصل الأول

منهج دراسة الوعي الاجتماعي وبنيته

« ليس وعي البشر هو الذي يحـــدد وجودهم ، بـل على العكس يتحدد وعيهم بوجودهم الاجتماعي ».

كارل ماركس

من وجوه كثيرة ، يرتبط فهم طبيعـــة الوعي الاجتمـاعي ببنيته وقوانين تطوره العامة والخاصة وبدور الوعي في الفعاليـة الانسانية وبالمنهج ، أي بطريقـــة تأمل ومعالجة وتفسير ظـــواهر الحياة الفكرية للمجتمع وتمثل المنهجية الفلسفية دليلا خاصا في عمليـة المعرفة يمكن الباحث من تعيين طريقـه وايجاد وسائله ، للتغلب عـــلى المصاعب التي قد تواجهه

وتبدو الاهمية الكبيرة للمنهج بالنسبة لمعرفـة الظواهر الفكرية في ان الفلسفة تحتاج لاغناء وتعليل دائمين للمبادىء القديمة والجديدة التي تنبثق من المعرفة المكتسبة للواقع

١ ـ المبدأ الرئيسي في دراسة الوعي الاجتماعي

يرتبط المبدأ الرئيسي في دراســـة الوعي الاجتماعي بالاجابـة على السؤال عن العلاقة بين الوعي والوجود ، وبين الفكر والطبيعة في مقدمته لكتاب حول نقد الاقتصاد السياسي صـاغ ماركس الجواب بالشكل التالي **« ليس وعي البشر هو الـــذي يحدد وجودهم ، بل عـلى العكس يتحدد وعيهم بوجودهم الاجتماعي »** (١) هذه المقولة تتضمن أيضا المبدأ المنهجي الرئيسي لمعرفـة الحياة الفكرية ، لانهـــا تعبر عن جوهر **المفهوم المادي للتاريخ** .

ويتعارض المفهـــوم المادي مع **المفهوم المثالي** للتاريخ ومع الطريقة المثالية في تنـــاول حياة البشر تعارضا تاما فالمثاليون يرون ان وعي البشر هو أساس سائر الاحداث الاجتماعية ويفهمون تحت كلمـة وعي « الروح » مرة و العقل » مرة أخرى ، وعي الانسان الفرد مرة ومرة

اخرى الوعي الاجتماعي اما مقولة « الوعي الاجتماعي فقد استخدمت للمرة الاولى من قبل كلاسيكيي الماركسية ، حين كان علم المجتمع البرجوازي يستخدم للتعبير عن « الوعي الاجتماعي » مقولات مثل « الراي العام » أو « الروح القومية أو الروح الشعبية وعلى سبيل المثال فقد استخدم ممثلو « المدرسة التاريخية » الالمانية في نظريتهم حول الدولة والحق مفاهيم الروح القومية » و الروح الشعبية » على نطاق واسع وفي ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر اعتبر علم المجتمع البرجوازي الروح القومية كمبدأ تاريخي كوني وكان أنصار هذا التصور يزعمون ان الحياة الاجتماعية لا تخضع لمبدأ السببية العام بل هي تملك سببية نفسية خاصة ولا يجدون في العلاقات الاجتماعية للبشر سوى علاقات نفسية ، ويؤكدون ، بالتالي ان علم النفس الاجتماعي هو العلم الوحيد القادر على تفسير التاريخ

ولم يقدم علم المجتمع البرجوازي حلا صحيحا للعلاقة بين الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي فانطلق من الافتراض الخاطىء بأن سائر العلاقات بين البشر ليست سوى ظواهر ذات طبيعة فكرية وزعم ، بالتالي ان الوعي الاجتماعي يقوم فقط على مثل هذه الروابط والعلاقات بين أعضاء المجتمع ان الباحثين الذين ينطلقون من مثل هذا المفهوم للحياة الاجتماعية لا يملكون مقياسا موضوعيا لتحليل تطورية (Evolution) الوعي الاجتماعي ويعجزون حتى عن تعريفه وتحديده وقد أضاف عالم النفس والمجتمع الالماني فيلهلم فوندت في مؤلفه حول علم نفس الشعوب الى الوعي الاجتماعي الاديان والعادات واللغة ومنتجات أخرى للفكر قال انها تنشأ فقط في سياق عملية التواصل الفكري (٢)

يمكن لمحاولات تعريف الوعي الاجتماعي بعد فصله عن الوجود الاجتماعي أن تؤدي الى نتيجة ايجابية فهي تسلب الوعي الاجتماعي قاعدته المادية ومحتواه الموضوعي

ويتبنى علم الاجتماع البرجوازي الحديث ـ شأنه في ذلك شان علم الاجتماع في الماضي ـ وجهات نظر تمثل المفهوم المثالي للتاريخ وهو لم يطور بدوره مبادىء علمية لبحث الوعي الاجتماعي ، تؤكد ذلك آراء المدرسة النفسية التي تحتل في علم الاجتماع البرجوازي محلا رئيسيا اذ يدرس ممثلوها بوجاردوس آلبور آش الخ) عند تحليل العمليات الاجتماعية البواعث المثالية فحسب للسلوك الانساني دون

التعرض للعلاقات المادية ، اي للوجود الاجتماعي للبشر وبالنسبة لهم لا يوجد الوجود الاجتماعي مستقــلا عن الوعي الانســاني ، بل يرتبط باحساس الذات وعلاقتها به

وتملك المدرسة النفسية في علم الاجتماع نفـوذا كبيرا في المجـال البرجوازي ولكنه من الصعب في العصر الراهن تبني المفهوم المثالي حول العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي بصورة معلنـة بسبب التناقضات الظاهرة لهذه الآراء مع الوقائع التاريخية التي تظهر الارتباط الاجتماعي للوعي ، وبسبب تطور المعارف العلمية أيضا

وتجد مقولة المادية التاريخية حول الدور المحدد الذي يلعبه الوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي الاجتماعي انتشارا متزايدا ولقـد نشأت سوسيولوجيا المعرفة التي غدتاتجاها قائدا في علم الاجتماع البرجوازي. كرد فعل خاص على النظريــة الماركسية في الوعي الاجتماعي ونشوئـه وتطوره كتابع للوجود الاجتماعي ولا يمتنع ممثلو هذا الاتجاه (دوركهايم، ماكس شيلر ، كارل مانهايم بيتيريم سوروكين فيرنر شتارك جـاك جيروم مانكيه الخ) عن انكار تبعية الوعي الاجتماعي فحسب ، بل هم يعتبرون ان المهمة الرئيسية لسوسيولوجيا المعرفة تكمن في كشف تعين المعرفة بشروط الوجود الاجتماعي

كتب أحد مؤسسي هذا الاتجاه عالمالاجتماع الالماني كارل مانهايم في أحد مؤلفاتــه : تدرس سوسيولوجيا المعرفــة ارتباط المعرفة بالوجود (٣) ، وتطمح لتفسير النظريـات واشتقاقاتها بالارتباط الوثيق مع الفئات الاجتماعية والاوضاع الاجتماعية العامــة النموذجية التي تنشأ فيها ، والتي هي من صنعها وبحسب كلمات عالم اجتماع الماني آخر هو ماكس شيلر يجبعلى سوسيولوجيا المعرفة دراسة « حقيقة رئيسية هي الطبيعــة الاجتماعية لكل معرفة لكــل حفظ وتوصيل للمعرفة لتعميمها وتطويرها المنهجيان (٤)

ويقدم عالم الاجتماع الاميركي البرجوازي روبرت ميرتون في كتابه النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية ملخصا قصيرا حول تصورات اهم ممثلي سوسيولوجيا المعرفــة وهو يظهر ان سوسيولوجيا المعرفة تريد الاجابة على أسئلة من مثــل ما هو الاساس الحقيقــي (الاجتماعي والثقافي) لمنتجات الفعالية الفكرية ؟ أي من منتجاتالفعالية الفكرية تصلح

كموضوع للتحليل السوسيولوجي ؟ كيف ترتبط منتجات الفعالية الفكرية مع الاساس الـواقعي ؟ (٥) وليس لدى ممثـــلي سوسيولوجيا المعرفة وجهة نظر موحدة حيال هذه الاسئلة الهامة انهـــم متحدون فقط في ضرورة حل مشكلة التبعية الاجتماعية للمعرفة من منظور مثالي ويكمن جوهر اجاباتهم على الاسئلة السابقة فيما يلي

تحت الاساس الواقعي (الاجتماعي) لمنتجات الفعاليه الفكرية للبشر يفهم ممثلو سوسيولوجيا المعرفة الظواهر المتنوعـــة للحياة الاجتماعية كالطبقة ، والجيل والفئة الوظيفية والوحدة الاتنية ، وبنية السلطة الخ وهم يتحاشون دور الانتاج المادي والعلاقات الاقتصادية للبشر كعامل رئيسي يحدد في السياق النهائي محتوى الفعالية الفكرية وحين يذكر ممثلو سوسيولوجيا المعرفـــة العلاقات الاقتصادية بين العوامـــل الحقيقية للتطور الاجتماعي فهم يفعلون ذلك من اجل اعتبار اهميتهـــا مساوية لأهمية غيرها من العلاقات الاجتماعية المتعددة ويبدي مانهـايم علنا تحفظه حيال اعادة الوجود الاجتماعي الى العـــلاقات الاقتصادية وحيال اعتبارها العلاقات المحددة لسواها

ويحلل سوسيولوجيو المعرفـــة منتجات الفعاليـــة الفكرية مثـل الايديولوجيات والنظريات السياسية والقيم والمثل الخ وتعتبر الروح الموضوعيـــة لدى ماكس شيلر مثـــلا موضوعا للتحليـــل السوسيولوجي أي المحتوى الدلالي سواء اتخذ شكلا ماديا أم كان فعالية انسانية نفسية خاصة وحسب شيلر تأخذ الروح الموضوعية شكل العمل الفني واللغة والكتابة ، والتقاليد والعادات ، والطقوس وسواها من النماذج المطابقـــة لوعي الجماعات أما القيـــم والمثل والافكار الخ فهي نتاج فعالية تقوم بها نخبة مثقفة وتعبر عن نفسها بأشكال مناسبة ولكنها شأنها شأن غيرها يجب أن تخضع نحواها للتحليل السوسيولوجي (٦)

كيف يفهم سوسيولوجيو المعرفة الترابط بين الروح الموضوعيه والوجود الاجتماعي ؟ انهم يرون العلاقة بين الوجود الاجتماعي ومنتجات الفعالية الفكرية بطريقة بالغة المحدودية فيقول بعضهم ان الذات العارفة لا تخضع لأي تأثير اجتماعي (٧) وان تأثير المجتمـــع يقتصر فقط على عملية نشر المعرفة ، التي هي من وضع النخبة بين الجماهير ويعترف آخرون بأن للمجتمع تأثيرا على الايديولوجيا والدين ... الخ ولكنهم

يزعمون ان « المعرفة البحتة » و العلوم البحتة لا تخضع لأية تأثيرات اجتماعية ، وفي حال خضوعها ، فان مـــن الصعب جدا تحـــديد هذه المؤثرات هذه هي أيضا وجهة نظر عالم الاجتماع البلجيكي ماكيه ، فهو يقسم أيضا الفعالية الفكرية الى مجالين : مجال المعرفة العلمية ، والمجال الآخر غير العلمي ، الذي يشمل الفلسفـة والاخلاق والادب والمعتقدات الدينية الخ وفي حين يتعين المجال الثاني بالمصالح الطبقية ، فان من الصعب اثبات تعيين اجتماعي للعـــلوم الطبيعيـة والتجريبية (٩)
والحال ، ليست الايديولوجيا هي المجال الذي يملك ، دون سواه ، تعيينا اجتماعيا ، بل ان العلم أيضا يتحدد بالمجتمع ويعبر ذلك عـن نفسه في تعيين تطور العلوم ، وخاصة الطبيعية منهـا بحاجات ومصالح الانتـاج المادي وليس تاريخ العلوم الطبيعية سوى برهان مقنـــع على ان نشوء وتطور فروعها المختلفة يعود الى الحاجات الملحة للانتاج ويؤكـد تحول العلم الى قوة منتجة في عصرنا الراهن ، ان هذا الشكل من الفعالية الفكرية صار الآن يتعين ، أكثر من اي وقت مضى ، اجتماعيا

يمتاز مفهوم سوسيولوجيا المعرفة البرجوازية حول الترابط بيـن الوجود الاجتماعي والفعالية الفكرية بضيق الافق ويتجلى ذلك في فهمه الميكانيكي للترابط السببي بين الاساس الاجتماعي والوعي وفي اعتقاده بأن الاساس الواقعي للوعي هو اساس ثقافي يضم قيما فكرية ، ونمطا ثقافيا ، و « روحا شعبية » ، وأشكالا يتجلى الرأي العام بها الخ

ولقد برهنت الادبيات الماركسية منذ وقت بعيد على تهافت مفاهيم سوسيولوجيي المعرفة البرجوازيين ، ونحن لن نعالج هنا نقـــاط خلافنا معهم بتفصيل ، بل سنقتصر على مناقشة مفهـــوم **الترابط السببي بين الوجود الاجتماعي والوعي** .

يزعم مانهايم ان العـــلاقة بين الشروط المعينة للوعـــي والوعي الذي « يتعين بها » ليست علاقة سببية بالمعنى الاصلي للكلمة ، بل هي شكل من أشكال الترابط غير المحدد ويبدو هـــذا اللاتحدد في ان الافكار قد تملك محتوى غير اجتماعي من الصعب ارجاعه الى مصـــالح اجتماعية ذات طبيعة طبقية ان الطبقات والمجموعات تحدد فقط أسلوب التفكير ولا تحدد محتوى الافكار والمفاهيم

يفهم مانهايم الترابط السببي بين الوجود الاجتماعي والوعي كتعبير

عن المصالح والاهداف الطبقية في وعي كل فرد من طبقة ما ولان ذلك لا وجود له في الواقع فان مانهايم يعارض النظرة السببية الى العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي وفي نفس الوقت فهو يزعم ان انتماء الفرد الى مجموعة اجتماعية محددة يؤدي الى تحديد تفكيره بصورة قدرية مسبقة من خلال وضع هده المجموعة ان الفرد كما يدعي مانهايم لا يمكن أن ينفصل عن المجموعة التي يفكر ويتصرف بداحلها (١٠) وتفكيره مرتبط ارتباطا وثيقا بوعيها والوعي الفردي هو بالنسبة لمانهايم. وببساطة ، برهان على ان المجموعة تعي وضعها الاجتماعي وعيا مباشرا. هنا يبدو بوضوح كم هو متناقض مفهوم مانهايم حول الارتباط بين الوجود الاجتماعي والوعي ومن وجهة نظره لا يمكن عرض العلاقة بين ما هو اجتماعي وفكري كعلاقة سبب بنتيجة من جهة ، وهو ينتقد ماركس لانه علل الترابط بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي وفق هذا المبدا السببي من جهة أخرى يفسر مانهايم نفسه الترابط بين تفكير الفرد ووعي المجموعات بروح سببية مفهومة بصورة ميكانيكية وهو ينزل تبعية الوعي للوجود الاجتماعي الى مسوى تبعية الوعي الفردي لحالة المجموعة التي ينتمي الفرد اليها ولوضعها الاجتماعي

يساوي نقاد الماركسية في حالات كثيرة بين مفاهيم مانهايم عن الترابط بين الوجود الاجتماعي والوعي وبين مفاهيم ماركس يقول ميرتون ان ماركس قد سار الى أي مدى كبير يحدد الوضع الاقتصادي والسياسي لمجموعة ما تفكيرها (١١) ثم يعرض مفهوم مانهايم حول تبعية الوعي الفردي لوضع المجموعة التي ينشط ضمنها وينسب الى الماركسية فهم سوسيولوجيا مانهايم المعرفية المتميز للايديولوجيا كوعي مباشر للوضع الاجتماعي المجموعة ويصل ميرتون الى تقديم التناقضات التي تميز وجهات نظر مانهايم وكأنها اثبات لتهافت المفاهيم الماركسية حول علاقة الوجود الاجتماعي بالوعي الاجتماعي ان عالم الاجتماع الاميركي يعترف على كل حال بانجازات الماركسية في معالجة مشاكل سوسيولوجيا المعرفة والعلم ولكنه يرفض ما تقدمه حول الوعي الاجتماعي بوصفه نظرية منغلقة على ذاتها وهذا شيء مفهوم لان المعالجة المثالية لمشاكل المعرفة لا تتوافق والمادية بوسع المرء أن يتحدث كما يشاء حول الارتباط الاجتماعي للوعي بيد ان مفهوم الوجود الاجتماعي لن يمتلك محتوى علميا الا بعد تضمينه العنصر الاكثر أهمية وتحديدا : **انتاج السلع المادية .**

تتمايز سوسيولوجيا المعرفة البرجوازية ، كما قلنا سابقا ، تمايزا كبيرا ويقول ممثلوها ان نظريتهم الاجتماعية ليست سوى علم تعيّن المعرفة بظروف، وشروط الوجود الاجتماعي ، ولكنه ليس صحيحا ان سائر مدارس سوسيولوجيا المعرفة تتعامل حقا مع بحث هذه الدائرة من المسائل فالمدرسة السوسيولوجية الاميركية مثلا لا تطرح على نفسها مثل هذه المهمة وقد أعاد واحد من أهم وجوهها ، العالم سوروكين ، الاساس الواقعي للوعي بصورة رئيسية الى شروط ثقافية أو عناصر ثقافية ـ اجتماعية وفي مؤلفه ذي الاجزاء الاربعة « الديناميكية الاجتماعية والثقافية يحلل سوروكين تبعية المعرفة للشروط الثقافية ويفهم هذه كمنظومات فكرية ومقولات فلسفية ونظريات اجتماعية ـ سياسية ، وسواها من التكوينات الفكرية ويؤكد وجود تطابق منطقي بين « منظومات الحقيقة و « منظومات المعرفة (١٢)

في الوقت الراهن تنصرف سوسيولوجيا المعرفة في الولايات المتحدة بالدرجة الاولى الى دراسة المسائل المرتبطة بانتشار الافكار والمفاهيم ومنظومات التفكير والراي ، أي بدراسة درجة الاشباع الاعلامي للجماهير، وتنشغل أقل من ذلك بمشاكل التبعية الاجتماعية لهذه الظواهر غير انه سيكون من الخطأ القول ان علماء الاجتماع الاميركان لا يملكون أية وجهة نظر حول هذه المسألة ان علماء اجتماع كبار مثل تالكوت بارسون وروبرت ميرتون ، يولون اهمية كبيرة في أعمالهم للتحليل السوسيولوجي للمنظومات الفكرية في المجتمع وهم يدعون ان المنظومات الفكرية مرتبطة وظيفيا بالبنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع وبالنتيجة فانهم لم يستطيعوا تجاوز محدودية مفاهيم شيلر ومانهايم ودوركهايم وسواهم من سوسيولوجيي المعرفة « الكلاسيكيين بواسطة الدفاع عن الارتباط الاجتماعي للمعرفة ، بل تجاوزوا تلك المحدودية عن طريق رفض هذا الارتباط وهذا يبرهن مرة أخرى انه ليس ممكنا حل مشكلة العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي حلا علميا من مواقع مثالية وقد لاحظت موتروشيلوفا بحق في نقدها لمفاهيم شيلر ومانهايم ان سوسيولوجيا المعرفة لدى شيلر ومانهايم قد اثبتت عجزها عن الوصول الى نتائج منهجية دقيقة يمكن على أساسها معرفة الروابط التي تشدّ ، على أرضية علمية ، الاشكال المختلفة والمعقدة للمعرفة الى الشروط الاجتماعية المشخصة المطابقة لها هذا الحكم يصلح بالنسبة لسوسيولوجيا المعرفة الاميركية المعاصرة ، ولسواها من المدارس البرجوازية الاخرى .

عندنما يتبنى الماركسيون الحل المادي لمسألة العلاقـــة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، فهم ينتقدون أيضا أولئك الـذين يقرّون بالمادية ، ولكنهم يطبقونها بتردد ومن المعروف ان مثل هـذا التردد قد برز لدى **كارل كاوتسكي** الذي كان يقرّ بتبعيـــة الوعي للوجـود ولكنه ينكر ، فـي نفس الوقت ، ان الــوعي الاجتماعي هو انعكـــاس للوجود الاجتماعي (١٣) ثمة مفهوم مغلوط للاطروحة الماركسية حـول الترابط بينالوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي، يبرز بشكلخاص لدى **اكسيلرود** التي اكدت في التخطيطات الفلسفية ولدىعرض مفهوم ماركس وانجلز ارتباط محتوى الوعي بالوجود الواقعي وبتطور العالم الموضوعي الموجود خارجنا » واعتبرته نقيضا لانعكاس العالم الموضوعي في وعينا مما زيف حل ماركس لهذه المسألة (١٤)

ان معارضة أطروحة انعكاس الوجود من خلال الوعي بأطروحة « تبعية محتوى الوعي للوجـــود الواقعي هي أمر مغلوط فالاولى تكمل الثانية بدل أن تلغيها وتجعل فهمنا أكثر عمقـا للعلاقة بين الوجود والوعي واذا كان الوعي بطبيعته ليس انعكاسا فانه سيكون من الصعب اثبات تبعية الوعي للوجود الواقعي ان جوهر ما هو فكري يكمن في انه انعكاس أو تعبير عما هو مادي وماركس وانجلز لم ينكرا طبيعـة ما هو فكري طبيعة الوعي ، بل حدداها قبـــل غيرها وهما يقـولان فـي الايديولوجيا الألمانية » ان الوعي لا يستطيع ان يكون شيئا آخر سوى الوجود الذي تم وعيه » (١٥) ويقولان في نفس الكتاب الافكار السائدة ليست سوى التعبير الفكري عـن العلاقات الماديـــة السائدة العلاقات المادية السائدة المعبر عنها بأفكار (١٦)

يقول كلاسيكيو الماركسية ان الواقع ينعكس من قبل الوعي البشري. هذا ما تراه أيضا اكسيلرود ، ولكنها تتحايل على الامر : « ماركس وانجلز لم يستخدما كلمة « انعكاس » بالمعنى المباشر ، بل بالمعنى المجازي ان تبعية الافكار للاشياء هي أمر ، وانعكاسها التام في الدمـاغ كما في مرآة أمر آخر » (١٧) ان نظرية المعرفة المادية ـ الجدلية لا تعرفمفهوما سوقيا حول الانعكاس في الدماغ كمـا في مرآة ومـن الصعب اشتقاق تعارض بين « تبعية » الافكار للوجود ، و انعكاس » الوجود في الافكار. وكلاسيكيا الماركسية لم يسمحا بمثل هذا التعارض وتعتبر اليوم أطروحة لينين حول الوعـي كانعكاس للوجـــود الاجتماعي مكونا أساسيا

للعلم اما في مسألة علاقة هذه الاطروحة بالمبدأ الذي يقول بتحدد الوعي بالوجود الاجتماعي ، فلا زالت هناك وجهات نظر مختلفة وهناك أيضا مناقشة حول مفهوم المبدأ النهاجي الاساسي لبحث الحياة الفكرية للمجتمع، فيقترح توجارينوف التمييز بين « الوعي ـ اطلاقا ـ » و « الوعي الاجتماعي » يقول توجارينوف « تدخل في الوعي ـ اطلاقا ـ كل الافكار حول العالم المحيط بنا ، وليس فقط حول المجتمع » (١٨) وهو يفكر في هذا المجال بمقولات حول الطبيعة « التي لا يمكن اعتبارها جزءا من الوعي الاجتماعي ، باعتباره انعكاسا للعلاقات الاجتماعية » (١٩) ويميز توجارينوف بين وعي الطبيعة ووعي المجتمع ، ويستثني وعي الطبيعة من « الوعي الاجتماعي » ، كي لا نتورط في تناقض مع تعريف هذه المقولة « كانعكاس للوجود الاجتماعي

ليس صحيحا فهم أطروحة لينين حول انعكاس الوجود الاجتماعي بواسطة الوعي الاجتماعي بوصفها تعريفا لمقولة « الوعي الاجتماعي » وعلى هذا الاساس اخراج وعي الطبيعة من محتواه ان اطروحة لينين لا تسمح بتقليص الوعي الاجتماعي ، أي وعي المجتمع ، الى مستوى وعي حول المجتمع ، أي وعي المجتمع لذاته (وعي المجتمع حول نفسه) وهذا بالضبط هو ما يفعله توجارينوف ، وهو يطرح علينا السؤال التالي لماذا يقود تأمل الوعي الاجتماعي على صعيد انعكاس الوجود الاجتماعي بعض الفلاسفة الى تضييق محتوى الوعي ، واخراج الوعي حول الطبيعة منه ؟

في رأيي ان أحد الاسباب يكمن في التفسير الاحادي الجانب للمبدأ النهاجي الرئيسي في تحليل الوعي هذا التفسير يركز الانتباه على ان الوعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي ، ويهمل تعين الوعي من قبل الوجود الاجتماعي ان اهتمام الباحث ينصب على الانعكاس فقط ، وهذا يؤدي الى تجاهل الشروط الاجتماعية المشخصة التي يتم فيها ، وموشور المصالح الاجتماعية العيانية التي يتحقق من خلالها أي انه يحط من قدر الدور المعين الذي يلعبه الوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي لقد أولى كلاسيكيو الماركسية اهمية من الدرجة الاولى لتفسير هذه التدمية ، فأشار ماركس وانجلز في « الايديولوجيا الالمانية الى ان الوعي هو « بالاساس نتاج اجتماعي » (٢٠) ، وسيبقى كذلك « ما دام للبشر وجود (٢٠) . فالاساس الذي ينشأ الوعي فوقه ، ويتطور عليه ، هو

الممارسة المادية للبشر ولا يفصل كلاسيكيو الماركسية وعي الطبيعة عن وعي المجتمع ، نظرا لوحدة الاساس الذي ينشأ عليه ، ألا وهو العمل البشري يقول ماركس وانجلز **« ... حتى العلوم الطبيعية البحتة تكتسب هدفها ومادتها اصلا من خلال التجارة والصناعة ، من خلال النشاط الحسي للبشر »** (٢٠)

ليست الطبيعة بما هي طبيعة ، بل نشاط البشر لتغيير الطبيعة هو من ينجب العلوم الطبيعية بهذه الطريقة تنعكس الطبيعة بقوانين تطورها وخواصها في وعي البشر غير اننا لا نستطيع الوصول الى أي فهم لوعي الطبيعة ، ان نحن تجاهلنا تبعيته الاجتماعية فقط عندما نراعي حاجات المجتمع بخصوص معرفة ظواهر الطبيعة ونراعي مستوى التطور الاجتماعي والنظام الاجتماعي السائد ، ونظرات الطبقات المختلفة الى العالم التي تؤثر على النشاط المعرفي أي عندما نراعي الاشتراطية الاجتماعية لمعرفة الطبيعة ، فاننا نستطيع الوصول الى حكم صحيح عليها. مثل هذه الطريقة لا تترك مجالا لاي فارق مبدئي بين وعي الطبيعة ووعي المجتمع على صعيد الانعكاس هذا الوعي وذاك هما نتاج للمجتمع ويتبعان له

الوعي هو نتاج للمجتمع ، وبهذا المعنى هو وعي اجتماعي بهذه الصفة النوعية يعتبر ثانويا بالقياس الى الوجود الاجتماعي كتكوين منبعث منه ، كوعي وانعكاس لوجود البشر ، و وجود البشر هو حياتهم الفعلية (٢٠)

في السنوات الاخيرة انتشر انتشارا واسعا المفهوم القائل بالوعي الاجتماعي كنتاج للمجتمع ، وكتكوين فكري تمثل العلوم الطبيعية جزءا من محتواه (٢١) ومع ذلك فان تفسير مصطلح « الوعي الاجتماعي لا يزال غير محدد بدقة حتى الآن ولا زلنا نصطدم حتى الآن بمفهوم الوعي الاجتماعي بمعناه الضيق أي كوعي للعلاقات الاجتماعية المادية

لدى بحث الوعي الاجتماعي يلعب فهم الوجود الاجتماعي دورا كبيرا. وهو يحدد ماذا يفهم المرء تحت مصطلح « محتوى الوعي الاجتماعي

يؤكد الفيلسوف البلغاري شيبسكي انه يوجد ستة تفسيرات مختلفة لمصطلح الوجود الاجتماعي » لدى الفلاسفة الماركسيين وفي كتاب بوبوف حول « السببية في المجتمع تبحث التعريفات الستة لمقولة

« الوجود الاجتماعي (٢٢) اننا لن نكرر ما قيل في هذا المؤلف بل نلاحظ انه يوجد في الادبيات الفلسفية الى جانب التحديد الصحيح لمقولة « الوجود الاجتماعي وجهتا نظر متطرفتان الاولى تضيق مفهوم « الوجود الاجتماعي وتعتبره فقط مجموع علاقات الانتاج والثانية توسعه دون مبرر وتدخل فيه ظواهر ليست جزءا منه

لقد رفض لينين في مؤلفاته تقليص الوجود الاجتماعي ليغدو جملة علاقات الانتاج ، وبشكل خاص في ثلاثة مصادر ومكونات للماركسية و « كارل ماركس حيث نظر الى البنية الاقتصادية للمجتمع بصفتها الاساس الذي تقوم فوقه ظواهر الوعي الاجتماعي ولكنه سيكون من الخطأ القول ان لينين قد ماثل ما بين مفهوم « الوجود الاجتماعي » ومفهوم « البنية الاقتصادية للمجتمع وفي مؤلفاته توجد تصريحات عديدة محتواها ان البنية الاقتصادية تحدد وعي البشر في السياق النهائي ، دون أن يستنفذ محتوى الوجود الاجتماعي نفسه في هذا التحديد وكتب لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي عند معالجة محتوى الوجود الاجتماعي الذي ينشأ مستقلا عن الوعي الاجتماعي

« ومن واقع انكم تعيشون وتتدبرون شؤونكم ، تنجبون اطفالا وتنتجون سلعا وتبادلونها ، تنشأ سلسلة أحداث ضرورية موضوعيا ، سلسلة تطور مستقلة عن وعيكم الاجتماعي ، وتستعصي على ان يحيط بها احاطة تامة . ان أعلى مهمات الانسانية هي الامساك بالمنطق الموضوعي لهذه التطورية الاقتصادية (تطورية الوجود الاجتماعي) في اسسه العامة ، لمطابقتها مع وعيهم الاجتماعي ووعي الطبقات المتقدمة لسائر البلدان الراسمالية باشد ما تكون المطابقة وضوحا ونقدية » (٢٣)

لسنا بحاجة للاشارة الى أعمال أخرى للينين ، فالاستشهاد السابق يدل على انه ، لدى تحليل الوجود الاجتماعي ، لم يحصر عمله في وصف البنية الاقتصادية فقط

ويؤدي تقليص الوجود الاجتماعي الى جملة علاقات الانتاج المادية لتضييق محتوى الوعي الاجتماعي أيضا فتسقط منه ليس فقط العلوم الطبيعية ، بل تكوينات فكرية عديدة لا تمثل انعكاسا في رؤوس البشر لعلاقات الانتاج القائمة وعندئذ يكون الوعي الاجتماعي متماثلا فيجوهره مع الايديولوجيا الاجتماعية

يكمن التطرف الثاني في توسيع مفهوم الوجود الاجتماعي في نهاية

الخمسينات جرت في مجلة « فوبروسي فيلسوفيه » مناقشة حول العلاقة المتبادلة بين الوجــود الاجتماعي والوعي الاجتماعي . وقد اتضح خلال النقاش ان بعض الفلاسفة كانوا يميلون الى ادخال مجمل نشاط وحيــاة الانسان الواقعية تحت مقولة « الوجود الاجتماعي » (٢٤) . مثل هــذا التفسير الموسع لمفهوم الوجود الاجتماعي لم يجــد في مجريات النقاش دعما يذكر ، لانه محا الفروق بين العــلاقات المادية والايديولوجية ، وبين ظواهر البنية التحتية والفوقية في المجتمع ، مع ان المرء يجد حتى يومنا هذا تصريحات تدعم هذا الاتجاه . مثل هذه الآراء مغلوطة في محتواها ، ولكنها ، كما يبدو لنا ، رد فعل خاص عــلى تقليص الوجــود الاجتماعي واعتباره مجرد علاقات انتاج ، وعلى الزعم بأن الوعي الاجتماعي لا يعكس سوى علاقات الانتاج .

في مجرى المناقشة المذكـورة كانت هناك مفــاهيم صحيحة حول محتوى « الوعي الاجتماعي » ، تعتبر الوجود الاجتماعي جزءا من مجــال العلاقات الاجتماعية المادية التي لا تحتاج من أجل تكونها للمرور بالضرورة في وعي البشر . هذه العلاقات يمكن ، بعكس البنية الفوقية ، أن تنشــأ مستقلة عن ارادة ووعي البشر . وتعتبر العلاقات الاقتصادية ، أي العلاقات بين البشر التي تنشأ في عملية الانتاج والتبادل والتوزيع المشترك للمنتجات المادية ، في رأس هذه العلاقات . وتعتبر جزءا منها أيضا علاقات البشر مع الطبيعة ، التي تصبح ممكنة بفضل علاقات البشر بعضهم مع بعض . ان مفهوم « الوجود الاجتماعي » يضم سائر أنواع العلاقات الاجتماعية التي هي مادية بطبيعتها . هذا يعني ان مفهوم « الوجود الاجتماعي » هو مفهوم شامل المحتوى وغني جدا . ولتحديد هذا المحتوى ، يجب على المرء أن يحلل العناصر المادية للعــلاقات الاسرية ، وظروف السكن ، وطريقــة الحياة ... الخ ، التي تترابط مع ظروف الحياة اليومية للبشر .

ونعتقد ان مفهوم الوجود الاجتماعي كمجال للعلاقات الماديــة للبشر يمكننا من أن نحدد بدقــة محتــوى الوعي الاجتماعي ، فــلا نقصره على الايديولوجيا الاجتماعية . اذا كان الوجود الاجتماعي لا يقتصر على علاقات الانتاج فحسب ، بل يضم أيضا علاقات البشر مــع الطبيعة ، فان هــذه تنعكس بدورها في الوعي ، وليس من المقبول اخراج ما نعرفه حول الطبيعة من الوعي الاجتماعي . ان الطبيعة ، وبدقة أكبر ، ذلك القسم منها الذي اندمج في الممارسة الاجتماعية ، يبدو كجانب من حياة المجتمع ، وتبــدو

الطبيعة بالنسبة للانسان ، كما قال ماركس ، كطبيعة مؤنسنة بهذا المعنى يعتبر انعكاس الطبيعة المؤنسنة انعكاسا لوجود البشر ، اي لعلاقاتهم مع الطبيعة

ان فهم الوجود الاجتماعي كمجال للعلاقات المادية يمكننا من اعتبار المقولتين التاليتين الوجود الاجتماعي يعيّن الوعي الاجتماعي و « الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي كوجهين لا انفصام بينهما للمبدأ النهاجي الرئيسي لتحليل الوعي الاجتماعي وهي معللة في كتاب « نظرية الوعي الاجتماعي في ضوء نظرية المعرفة » لكاك ، الذي بذل جهودا كبيرا لحماية المبدأ المنهجي الاكثر اهمية في الماركسية من التزييف، فوقع في تصور غير دقيق يعتقد كاك ان كلمة **يعيّن** في الاطروحة القائلة « ان الوجود الاجتماعي يعيّن الوعي الاجتماعي لا تعبر فقط عن علاقة السبب بنتيجته ولكي يوضح فكرته ، فانه يقارن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي مع العلاقة بين علاقات الانتاج والقوى المنتجة. يكتب كاك في الحالة الاخيرة يصف مفهوم **« يعيّن »** السبب الذي تترتب عليه نتيجة. اما في الحالة الاولى فانه يصف ايضا **الانعكاس** » (٢٥) بهذا التحليل لكلمة « يعين يزيح كاك الفارق بين مقولتي الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي و الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي » ، بأن يجعلهما متماثلتين تماما ولكن مصطلح «يعين» يملك معنى آخر غير مصطلح « يعكس »

تتضمن العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي اتصالا بين الاول والثاني ، وبين الثاني والاول فبينما « يعين » الاول الثاني ، يعتبر الثاني بالنسبة للاول انعكاسا وكما هو معلوم فان انجلز قد تحدث لدى مناقشة المسألة المركزية في الفلسفة ـ مسألة العلاقة بين المادة والوعي ـ عن هذين الجانبين ، اي عن علاقة الوجود بالوعي والوعي بالوجود حين يطبق كلام انجلز على المجتمع ، فان حسم الجانب الاول من السؤال الرئيسي يعني ان الوجود الاجتماعي يعيّن الوعي الاجتماعي ، وان الوعي الاجتماعي يملك مرتبة ثانوية ، ويشتق من الوجود الاجتماعي، فهو نتاجه وهو يتغير ويتطور مع الممارسة الاجتماعية للبشر

ويجعل حل الجانب الثاني من المسألة المركزية للفلسفة بالامكان كشف جوهر الوعي الاجتماعي « كوعي للوجود و تعبير عنه ، اي ادراكه كانعكاس للوجود الاجتماعي ومن الواضح ان المرء يستطيع ادراك

الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي فقط عندما ينطلق من الحل المادي للجانب الاونثولوجي للمسألة الاساسية في الفلسفة أي من تعين الوعي الاجتماعي بالوجود الاجتماعي ولا ينتج عن ذلك ان حل الجانب الاول من المسألة الفلسفية الاساسية يعني في نفس الوقت حل الجانب الثاني من المسألة لهذا يجب على المرء لدى دراسة الوعي الاجتماعي الانتباه الى الظروف التي يحدث الانعكاس فيها وأية طبقة (أو طبقات) تحمل الوعي الخ ان الوعي الاجتماعي مشروط بالوجود الاجتماعي للتشكيلة المعطاة وللعصر المعطى ، وهو ، الى جانب ارتباطه بموضوع الانعكاس ، يرتبط أيضا بالذات العاكسة ، أي بحامل الوعي المشخص والعلاقات الاقتصادية نفسها (موضوع الانعكاس نفسه) يلتقطها وعي الطبقات المختلفة بصورة مختلفة كل طبقة تقيّم الواقع بطريقتها الخاصة

ان الشروط المادية والحالة الاجتماعية يحددان مصالح الطبقات ويمنحان وعيها التوجه نحو هدف ما ، أي يركزان اهتمامهما على جوانب معينة ، وذات أهمية ، من الوجود الاجتماعي وهما ينتجان طريقة التفكير الخاصة بها ، ونظرتها الخاصة الى الواقع لذا يجب عند تحليل الظواهر الفكرية مراعاة ان الوعي هو انعكاس للوجود وانه يتعين به أيضا وبكلمات أخرى على المرء الانتباه للترابط المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي (٢٦) الذي هو علاقة سببية يعود فيها الدور المعين الى الوجود الاجتماعي والانعكاس هو جانب من هذه العلاقة، شكلها الخاص ونتيجتها ويلعب الانعكاس ، الوعي ، دورا نشيطا وخلاقا في علاقته بالوجود الاجتماعي ويؤثر ، الى جانب عوامل أخرى على مختلف العلاقات الاجتماعية ، بما فيها العلاقات الاقتصادية

ان ترابط السبب ـ النتيجة الموضوعي القائم بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، يجعلنا نعترف بأطروحتي الماركسية القائلتين : ان الوجود الاجتماعي يعين الوعي الاجتماعي و الوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي كجانبين لا ينفصلان المبدأ الرئيسي في تحليل الحياة الفكرية للمجتمع

٢ ـ المنظوران المعرفي والسوسيولوجي لبحث الـوعي الاجتمـاعي

الوعي الاجتماعي هو ظاهرة معقـدة ومركبة مـن ظواهر الحياة الاجتماعية وليس بوسع المرء دراسنها على مستوى واحد وتحت صورة واحدة من أجل كشف بنيتها الفعلية ، كما لا يستطيع المرء دراسة المكان من خلال التركيز على بعد واحد من أبعاده وتعتبر معالجة هذه الظاهرة ودراستها من وجوه مختلفة مبدأ منهجيا هاما نظرا لتنـوع روابطها وعلاقاتها مع غيرهـا من الظواهر كموضـوع الانعكاس والظروف الاجتماعية التي يحدث الانعكاس في ظلها والشروط التاريخيـة للتعبير عن الوعي ونشاط الوعي نفسه الخ

وبحث الوعي الاجتماعي من وجوه مختلفـة هو أمر نسا تاريخيا فالوجوه المختلفة للوعي التي يعرفها العلم المعاصر لم تتمايز باي حال دفعة واحدة بل تكونت في سياق نمو تاريخي وقد وجد مبدأ البحث المتعدد الجـوانب والمستويات للوعي الاجتماعي تعليله فـي الماركسية أول الامر اذ لم يكن بوسع الفلاسفة والسوسيولوجيين البرجوازيين تبريره حتى حين كانوا يحسـون حاجة فعلية نحو التعاطي مع ظاهرة الوعي الاجتماعي ويقومون بمحاولات لتحقيقها فعليا ولقد بذل السوسيولوجي الفرنسي **دوركهايم** جهودا كبيرة لاستكمال التحليـل المعرفي الوعـي بتحليـل سوسيولوجي لتجاوز خطأ نظريات المعرفة المثاليـة التي تنظر الى عملية اكتساب المعرفة خارج تبعيتها للمجتمع ويكمن جوهر تصورات دوركهايم في انـه يعتبر المفـاهيم العامـة ـ بعكس التصـورات والاحاسيس الفردية الخ ـ تصورات جماعية تنتجها الفئـات الاجتماعية وترتبط بها ان بين التصورات الفردية والجماعية نفس المسافة التي تفصل ما هو فردي عما هو اجتماعي

يرى دوركهايم ان التعاطي السوسيولوجي مـع تحليل الوعي يؤدي الى تجديد نظرية المعرفة من حيث المبدأ يجب على المرء أن يوافق على تقييم هذا التعاطي من الناحية السوسيولوجية غير ان الطريق الخاصة التي يطبق دوركهايم بها المنهج السوسيولوجي لا تؤدي ، برغم ذلك الى اي تجديد لنظرية المعرفة فهو لم يفهم كيف يفصل علم المعرفة عن عـلم الاجتماع ، وكيف يربط التحليل السوسيولوجي ربطا عضويا مع التحليل

المعرفي ، لانه حاول التصدي لهذه المهمة من مواقع مثالية لقد تحدث في الواقع عن الاشتراطية الاجتماعية للوعي . وعن تبعية مقولة الوعي الجماعي » للتنظيم الفئوي للمجتمع ، للبنية الاجتماعية . ولكنه فهم هذه بطريقة ميكانيكية كبنية نابعة من علاقة الزمان ـ بالمكان وحسب مفهومه تعتبر الافكار أساس تطور المجتمع ومؤسساته. وتوجد الظواهر الاجتماعية عبر الافكار ومن الافكار ومن المفهوم ان مبدا الاشتراطية الاجتماعية للوعي يفقد أساسه الواقعي ، اذا كان الوجود الفعلي للظواهر الاجتماعية مرتبطا بالافكار حقا في هذه الحالة لن يؤدي تطبيق الطريقة السوسيولوجية في بحث الوعي الى اغناء فعلي لنظرية المعرفة ويمثل مفهوم دوركهايم مثالا على ان تحقيق الحاجات الناضجة موضوعيا للمعرفة العلمية من مواقع خاطئة يعزز فقط انتشار النزعة النسبية في علم الاجتماع البرجوازي ويصادر دوركهايم مسألة حقيقة التصورات الجماعية من خلال تأكيده على ان أية قناعة أو معتقد يكون مبررا بمجرد انبثاقه من حاجة اجتماعية ومحافظته على التواصل الاجتماعي ان احتقار مسألة الحقيقة في التحليل السوسيولوجي هي صفة يشترك فيها سائر ممثلي سوسيولوجيا المعرفة

ان محاولة استكمال التحليل المعرفي للوعي بالتحليل السوسيولوجي هو من الصفات المميزة لكل اتجاه سوسيولوجيا المعرفة ويميزها أيضا انها في العادة تعبر عن وجهة نظر متطرفة في نسبيتها وحين تعمل للخلاص من نزعتها النسبية المفرطة فانها سرعان ما تستغني عن مقولتها حول اشتراطية الوعي الاجتماعي نفسه أي عن الوجه السوسيولوجي لبحث الوعي هكذا يزعم شيلر ان المعرفة الحقة ليست ممكنة الا بتجريدها عن مصالح الفئات الاجتماعية وعبر مانهايم عن مفهوم قريب من ذلك حين قال بما ان الفئات الاجتماعية المختلفة تملك طموحات واهداف مختلفة فان بوسع كل منها اعتبار مفاهيمها الخاصة صحيحة ومن العبث الجدال حول صحة آراء المجموعات فالمسألة هي ايجاد الارتباط بين هذا التصريح ذاك وبين التفكير المجموعي

يحول سوسيولوجيو المعرفة البرجوازيون مبدا الاشتراطية الاجتماعية لمنتجات الفعالية المعرفية الى عقبة في وجه المعرفة الموضوعية للحقيقة . اذا كان الوعي مشروطا بالمجتمع ، فانهم يستنتجون انه لا يمكن

ان توجد معرفة موضوعية ، لان كل فئة اجتماعيـــة تترك قيادها لاهدافها ومصالحها وتضع لنفسها بالتالي ، مفهوما متحزبا ومشوها عن الواقع. في الحقيقة لا تشكل كل فئة اجتماعية لنفسها بالضرورة تصورا مشوها عن العالم هـــذه مسألة تتحدد بطبيعـــة مصالحها الموضوعية المرتبطة بدورها بالمكان الذي تحتله الفئـات الاجتماعية ـ وفي رأسها الطبقات ـ داخل البنية الاجتماعية للمجتمـــع عندما تتطابق المصـالح الاساسية للطبقات مع السيرورة الموضوعية للتاريخ فان مصالحهـا تتضمن عندئذ المعرفة الصحيحة للواقع ان الاشتراطية الاجتماعية لوعي سائر الطبقات التقدمية لا تعيق معرفة الواقع الموضوعي بل هي تشترطها من هنـا نستنتج عدم جواز الوصول الـــى نتائج سببية من واقـــع الاشتراطية الاجتماعية للوعي فقط عندما يراعي المرء الاشتراطية الاجتماعية للوعي ويعتبر الممارسة الاجتماعيه مقياسا للحقيقة فانه يصل الى التمييز بين المعرفة الموضوعية والتصورات والمفاهيم الذاتيه

ان نكران الحقيقة الموضوعيه وامكانيه معرفتها هي الخطيئة الاساسية لسوسيولوجيا المعرفة البرجوازيه. ويؤكد تاريخ هذا الاتجاه السوسيولوجي ان استكمال التحليل المعرفي بتحليل سوسيولوجي يقوم على أسس مثالية لا يفيد لا نظرية المعرفة ولا السوسيولوجيا وليس من الممكن على هذا الاساس الخاطىء الدمج العضوي للوجه المعرفي بالوجه السوسيولوجي في بحث الوعي الاجتماعي وليس مـن قبيل الصدف ان غالبية نظريات السوسيولوجيا البرجوازية الحديثة لا تحلل الوعي الاجتماعي على صعيد نظرية المعرفة ، بل تشتق نظريات المعرفة نفسها من الاشتراطية الاجتماعية للوعي انهم لا يدرسون المعرفة كظاهرة اجتماعية

الماركسية فقط تستطيـــع أن تربط عضويـــا بين الوجه المعرفي والسوسيولوجي في تحليل الوعي الاجتماعي وحسب قـول **اللينيين** **فان كارل ماركس وفريدريك انجلز قد أعليا صرح المادية ، حين وضعـــا المادية التاريخية ، أي حين وسعا المادية لتشمل معرفة الحياة الاجتماعية .** فمن خلال المفهوم المادي التاريخ تلقت نظرية المعرفة للمرة الاولى وجهـــا علميا لقد وضع ماركس وانجلز الممارسة ، أي الفعالية التاريخية للبشر، في أساس نظرية المعرفة ، وتوصـــلا عبر ذلك الى حل علمـــي للمسائل الرئيسية لنظرية المعرفة ، مثل مسألة موضوع المعرفـــة ومسألة مناهج المعرفة ، ومسألة الحقيقة والمقاييس الموضوعية للحقيقـــة . ان المادية ،

كما طبقها كلاسيكيا الماركسية على المعرفـــة ، تبقى واقفــة باستمرار على أرض التاريخ ، فهي لا تفسر الممارسة بالفكرة ، بل تفسر التشكيلات الفكرية بالممارسة المادية

لقد مكّن خلق المادية التاريخية مـن دراسة الوعي الاجتماعي ليس فقط على صعيــد نظرية المعرفة بل وعـلى الصعيد السوسيولوجي ويكمن انجاز **ماركس وانجلز** فـي انهما فسرا علميـا الطبيعـة الاجتماعية للوعي ، وأظهرا ارتبـاط الوعي الاجتماعي بالوجــود الاجتماعي وعللا الاستقلال النسبي لتطور الوعي ودوره الفعال في الحياة الاجتماعية كما تكمن في تأكيدهما على الوجه السوسيولوجي لهـذه المسائل وقد حلل ماركس وانجلز الايديولوجية وأشكالها مـن منظور سوسيولوجي بصـورة رئيسيــة

اشار لينين الى أهميــة تحليل الايديولوجية وأشكالها من منظوري نظرية المعرفة والسوسيولوجيا وان ملاحظاته حول ضرورة كشف الجذور المعرفية والسوسيولوجية للدين وحول الجــذور المعرفية والاجتماعية لعمليات المعرفة معروفة للجميع وكان لينين يعتقد ان تحليل الظـواهر الفكرية فقط من منظور نظرية المعرفة أو فقط من المنظور الاجتماعي لـن يكون كافيا ولهذا قام بدمج هـذين المنظورين ان مراعـاة المنظورين المعرفي والاجتماعي لدى بحث الـوعي الاجتماعي هو أمر يحتمه جوهر الفلسفة الماركسية التي تمثل وحدة المادية التاريخية والجدلية ان بعض العلماء الذين يشتغلون بدراسة الوعي الاجتماعي ينكرون هذين الوجهيـن في تحليلـه وقد وصف **ايجينتشانيان** الفصل بين الوجـه المعرفـي والسوسيولوجي بأنه مفتعل وقال ان وجهة النظر التي تدعو في مجال الفلسفة الى دراسة الوعي من منظوري نظرية المعرفة والسوسيولوجيا، هي وجهة نظر خاطئة

ويبرر ايجنيتشانيان وجهة نظره بأنه يوجد في واقع الحال سوى وجه واحد درس المادية التاريخية والجدلية الوعي الاجتماعي من خلاله ، الا وهو الوجه المعرفي ان الماديـة التاريخية تتميز عن الماديـة الجدلية بوصفها علما متفردا يملك نظرية المعرفة الخاصة به أو ديالكتيك المعرفة السوسيولوجية ان ايجينتشانيان يفصل اذن «المعرفة السوسيولوجية» عن المعرفة الفلسفية ، ونظرية معرفة المادية الجدلية عن نظريــة معرفة المادية التاريخية (أو ديالكتيك المعرفـة السوسيولوجية) التي يكلفهـا بمهمات نظرية معرفية خاصة

ان محاولات فصل نظرية معرفة للمادية التاريخية عن نظرية معرفة للمادية الجدلية قد وجدت في السابق ويبدو لنا ان بحث الوعي الاجتماعي ليس ممكنا عن طريق فرز نظرية معرفة خاصة داخل المادية التاريخية فالمادية التاريخية والجدلية تمثل نظرة متماسكة للعالم وليس لهما سوى نظرية معرفة **واحدة** وليس بحث الوعي الاجتماعي في المادية التاريخية عادة ، ودراسة نظرية المعرفة في المادية الجدلية بمبرر كاف لوضع نظرية معرفة خاصة بالمادية التاريخية لان النظرية التاريخية ـ المادية في المعرفة الاجتماعية هي جزء من نظرية المعرفة وبهذه الصفة فهي تبحث على الصعيدين المعرفي والسوسيولوجي وهذا الاخير يمثل استكمالا ضروريا للاول

اما مسألة الصعيد الذي يجب دراسة الوعي الاجتماعي عليه فهي ترتبط بالمهمات التي تكون معطاة في كل مرة ففي بعض المسائل يجب على المرء استخدام كليهما لانهما لا يستثنيان بل يكملان بعضهما ويشترط أحدهما الآخر ولا مجال للخوف من أن تعني دراسة الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي ادخالا لمشاكل الانعكاس والمعرفة في التحليل السوسيولوجي أو أن تعني دراسته على الصعيد السوسيولوجي استغناء عن تأمل الوعي الاجتماعي كانعكاس للعلاقات والمصالح المادية في رؤوس البشر هذه المخاوف لا أساس في المفهوم الجدلي ـ المادي للمعرفة

ومع ذلك فان المفهوم الجدلي المادي للمعرفه لا ينكر متميزا بذلك عن النزعة النسبيه خصائص المنظور المعرفي والسوسيولوجي في بحث الوعي الاجتماعي فالمنظور المعرفي يتضمن قبل كل شيء تحليلا لروابط وعلاقات الوعي الاجتماعي مع موضوع الانعكاس اي انه يتضمن شرحا لكيفية تحقق عمليه التعرف الاجتماعي وأين تكمن خصوصية اشكاله في تبعيتها لطريقه الانعكاس وكيف يمكن الوصول الى المعرفة الحقيقية الخ هذا المنظور المعرفي هو بحث المسائل الاساسية لنظرية المعرفة ، مطبقة على عملية التعرف الاجتماعي

ويمثل الوجه السوسيولوجي تحليلا للوعي الاجتماعي الذي يحتل مكانا معينا في النظام الاجتماعي ، ويحقق ادوارا خاصة في حياة المجتمع. وهو يقدم الامكانية لبحث الروابط والعلاقات الجديدة للوعي الاجتماعي ، ولكن **لينين** يقول **« ان وعي البشر لا يعكس فقط العالم الموضوعي ، بل**

هو يخلقه أيضا » ان الدور الفعال والخلاق للوعي يبدو ايضا عبر التحليل السوسيولوجي الذي يُنظر عبره الى الوعي في ارتباطه بالفعالية الاجتماعية للبشر

ان تحليل الوعي الاجتماعي في المنظور السوسيولوجي لا يمكننا فقط من اكتشاف الدور الفعال للوعي ، بل يمكننا أيضا من تحديد محتواه بصورة أفضل بأن يفسر ارتباطه بالطبقات والمجموعات البشرية الاخرى التي تنعكس الحقيقة من خلال مصالحها وحاجاتها بصورة جزئية ان التحليل السوسيولوجي يمكننا من تفسير ارتباط بنية الوعي الاجتماعي بتنظيم المجتمع نفسه وهو يعمق تصورنا حول الوعي الاجتماعي ، وحول خصوصيات تكونه وعمله

وينتج المنظور المعرفي والسوسيولوجي فيالبحث من التأثير المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ومن ان الوعي يعكس الوجود بينما يحدد الوجود الوعي ومن خلال التأثير الفعال للوعي على حياة البشر

يمكننا المنظور المعرفي قبل كل شيء من كشف حركة الواقع حيال الوعي وأصل الافكار والتصورات وبعكس ذلك يعرفنا المنظور السوسيولوجي على الانتقال من الوعي الى الواقع ، وعلى تحقق الافكار والتصورات في إلحياة الاجتماعية

يؤكد تاريخ العلم ان المنظورين المعرفي والسوسيولوجي في بحث الحياة الفكرية للمجتمع مبرران تماما وقد درست الادبيات الماركسية منذ وقت طويل الوعي الاجتماعي في هذين المنظورين وعلى سبيل المثال فان ثمة علاقة بين خصوصية أشكال الوعي الاجتماعي حيال موضوع الانعكاس وطرائق الانعكاس (المنظور المعرفي) ، وحيال دورهما في حياة المجتمع ومحتوى تلك الحاجة الاجتماعية التي يدين كل واحد من هذه الاشكال بوجوده الفعلي لها (المنظور السوسيولوجي) بيد ان مسألة فصل وربط منظوري دراسة الوعي الاجتماعي ، لم تختف حتى الآن من البحث بل اكتسبت الآن حدة معينة لان الوعي الاجتماعي نبحث بالدرجة الاولى على صعيد معرفي وهذا يعيق عملية معرفة شاملة لهذه الظاهرة ان المنظور السوسيولوجي لا يستغل الا بصورة جزئية في الدراسة

ويعبر الاهتمام الجزئي بالمنظور السوسيولوجي عن نفسه في الاقلال

من قيمة التعاطي التاريخي ـ المشخص مع تحليل بنية الوعي الاجتماعي ان المنظورين ، المعرفي والسوسيولوجي ، يؤديان الى نتائج ايجابية ، فقط حين يستخدمان بصورة تاريخية ـ مشخصة لنعط مثالا على ذلك من اجل النضال ضد مخلفات الماضي في وعي وسلوك البشر ، لا يفيدنا كثيرا معرفة ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي بأشكال خاصة وعلى أصعدة مختلفة ، وانه يتطور بصورة مستقلة عنه او متصلة به نسبيا هنا يجب على المرء أن يعرف الاسباب المحدده بدقة لوجود هذه المخلفات في المجتمع المعني ، ويجب أن يملك تصورا مشخصا حول الوعي السائد اجتماعيا ، وحول أوضاعه واتجاهات تطوره الخ للحصول على هذه المعرفة يجب القيام بخطوة من المجرد الى المشخص في معرفة الوعي الاجتماعي هذا ممكن فقط عن طريق بحث الوعي الاجتماعي بطريقة تاريخية ـ مشخصة

أولا يعني البحث التاريخي ـ المشخص لدى دراسة الوعي الاجتماعي من منظور سوسيولوجي ان وعي مجتمع معين لا يمكن أن يحلل الا بالارتباط مع الانتاج المادي والفكري الخاص به ومع البنية الاجتماعية المطابقة له ويتحدد الانتاج الفكري بالانتاج المادي الذي يختلف باختلاف التشكيلات الاجتماعية كتب **كارل ماركس** ما يلي

> « لكي نتأمل الترابط بين الانتاج الفكري والمادي ، يجب قبل كل شيء ان لا ننظر الى الانتاج المادي نفسه بصفته مقولة عامة ، بل يجب ضبطه في صيغة تاريخية محددة هكذا يتطابق مثلا مع طريقة الانتاج الراسمالية شكل من الانتاج الفكري يختلف عن الانتاج الفكري لطريقة انتاج العصور الوسطى فاذا لم نفهم الانتاج المادي نفسه في صيغته التاريخية الخاصة فانه يصبح من غير الممكن فهم ما يحدد الانتاج الفكري المطابق له ، والتأثير المتبادل بينهما » (٢٧)

ثانيا لدى البحث يعني نحص نفهم الوعي الاجتماعي كنتاج لجملة الظروف المؤثرة في نشوئه وتطوره فالى جانب الوسط الاجتماعي بانتاجه المادي كعامل محدد يؤثر في الوعي الاجتماعي أيضا الوسطان الطبيعي والتاريخي كتب **بليخانوف** حول هذا الاخير ما يلي

> « بما ان كل مجتمع يقع تحت تاثير جيرانه ، فانه من الممكن القول ان لكل مجتمع وسطا تاريخيا اجتماعيا ما يؤثر في تطوره ان نفوذ الوسط التاريخي ، المحيط بمجتمع ما ، يعبر عن نفسه بالطبع في تطور ايديولوجيته » (٢٨) .

ثالثا يتطلب البحث التاريخي ـ المشخص مراعاة القوانين العامة للتأثير المتبادل بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، والاستقلالية النسبية للوعي الاجتماعي واستمرارية تطوره الخ وقد أشار بليخانوف بالكلمات التالية الى هذا الجانب من المعرفة التاريخية ـ المشخصة

> **« لفهم « حالة الادمغة » في كل عصر صعب ، ومن أجل تفسير اسباب سيادة هذه التعاليم وليس غيرها في عصر ما ، يجب على المرء ان يتعرف على « حالة الادمغة » في العصر السابق ، وأن يعرف التعاليم والاتجاهات التي سادت آنذاك . بغير ذلك لن نفهم الحالة الفكرية لعصر ما ، حتى لو تعرفنا على خير وجه على اقتصاده » (٢٩) .**

رابعا يؤدي البحث التاريخي ـ المشخص الى تفسير معتقدات وأوضاع وعي الجماهير الشعبية العريضة أي الى تفسير ذلك الوعي الواقعي الذي يحدد بواعث الفعل لديها ان التعاليم والاتجاهات السائدة في مجتمع ما تعكس وضع الوعي الاجتماعي النظري ، الذي لا يكفي الانطلاق منه لاعطائنا فكره واضحة عن الوعي الجماهيري الحقيقي لذا يجب على المرء أن يحلل الىجانب الوعي النظري (المنظومات الايديولوجية للعلم) تلك الظواهر الفكرية التي تؤثر حقا في الجماهير العريضة عندما تسيطر الافكار حقا على وعي الجماهير فانها تغدو حسب الكلمة الشهيرة لكارل ماركس قوة مادية ويتطلب البحث التاريخي ـ المادي السير بالتحليل حتى الكشف عن تلك التكوينات الفكرية التي غدت قناعة للجماهير العريضة تهيمن على حسها وفكرها

ان البحث التاريخي الحازم يوسع امكانات معرفة الظاهرات موضوع البحث ويسمح المنظور المعرفي بدراسة الوعي الاجتماعي كانعكاس مجرد عن الظروف الاجتماعية التي تحقق في ظلها بهذا المعنى يمكن القول ان الظاهرة موضوع البحث تدرس من هذا المنظور لذاتها » وفي المنظور السوسيولوجي يدرس الوعي الاجتماعي كظاهرة خاصة للحياة الاجتماعية التي تحدد بشروط الوجود الاجتماعي المتحقق ، وتلعب دورا فعالا في حياة البشر ويقود البحث التاريخي ـ المشخص الباحث الى دراسة وعي مجتمع معين يجد نفسه على مستوى محدد من تطوره ذلك يفترض تحليلا شاملا للوعي الاجتماعي في مستويه المعرفي والسوسيولوجي

هذان المنظوران المختلفان يجب أن ينظر اليهما في وحدتهما .

وسنعرض الآن اهمية استخدام منظوري الدراسة في وحدتهما من اجل تحديد الوعي الاجتماعي كظاهرة خاصة للحياة الفكرية للمجتمع ، ولتحليل بنية الوعي الاجتماعي

على الصعيد المعرفي يمكن تعريف الوعي الاجتماعي فقط عن طريق علاقته مع الوجود الاجتماعي سيبدو الوعي الاجتماعي عندئذ كانعكاس للوجود الاجتماعي هذا التحديد يبرز الطبيعة الاجتماعية للوعي وحقيقة انه ينمو من شروط الحياة المادية للبشر ويعكسها ان العمل والعلاقات الاجتماعية التي يقيمها البشر في سياق فعاليتهم واللغة كشكل تعبير وتثبيت لنتائج الفعالية المعرفية يحددان الطبيعة الاجتماعية للوعي

يتم تعريف الوعي الاجتماعي غالبا في المنظور المعرفي ويحلل تحت منظورات مختلفة لا وجوها مختلفة تختلط عند تعريف الوعي الاجتماعي بعضها دون ان يمكن التمييز فيما بينها غير ان الحاجة الى تحليل شامل تطرح على الباحث دوما مسألة تعريف الوعي الاجتماعي والسبب في ذلك يعود الى ان المنظور المعرفي لا يستطيع الاحاطة الشاملة بجوهر ومحتوى الوعي الاجتماعي من هنا لا يكفي تحديد الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي فقط

تعتبر المكونات الفكرية بالغة التنوع وقد وضعت لوصفها مفاهيم مختلفة مثل حياة فكرية للمجتمع ثقافة روحية وعي اجتماعي وعي فردي وغيرها وتوجد فروق بين هذه المكونات ولكننا نهمل عند دراستها على الصعيد المعرفي لوحده لانها جميعا تمثل على هذا الصعيد انعكاسا للوجود الاجتماعي غير ان الفروق سرعان ما تظهر حين ينتقل التحليل الى المستوى الاجتماعي أي عندما تصبح ضروريا تفسير حوامل هذه الانواع من الوعي ومحتوياتها ودورها في الحياة الاجتماعية الخ

على صعيد العلاقة مع الوجود الاجتماعي لا توجد فروق بين مفاهيم الوعي الاجتماعي و الحياة الفكرية للمجتمع و الثقافة الروحية هذه المفاهيم الثلاثة تستخدم غالبا لاداء المعنى نفسه ان الفروق بين هذه المفاهيم تبدأ بالظهور حين يصل التحليل الى صعيده السوسيولوجي

في الادبيات السوسيولوجية للسنوات الاخيرة تقدم تعريفات لمفاهيم الحياة الفكرية للمجتمع و الثقافة الروحية و الوعي الفردي .

ذلك يجعل من الممكن ، وبالاستناد الى هذه المفاهيم ، تعريف الوعي الاجتماعي من منظور سوسيولوجي

عند تحديد هذه الظاهرة أو تلك ، من المهم مقارنتها بغيرها من الظواهر المشابهة لها وتدل مقارنة الوعي الاجتماعي مع الحياة الفكرية للمجتمع على عدم تماثل هذين المفهومين فعندما نتحدث عن الحياة الفكرية فانه لن يكون بوسعنا تجريد انتاجها ، فالى جانب الافكار والتصورات يضم مفهوم الحياة الفكرية للمجتمع » أيضا الانتاج الفكري والعلاقات الفكرية

يتميز المستوى السوسيولوجي للبحث عن المستوى المعرفي في انه يمكننا من كشف تلك الجوانب من الوعي التي نجردها عندما ندرسه كانعكاس للوجود الاجتماعي من المعروف ان كل مجال من العلاقات الفكرية بين البشر مرتبط عضويا مع أفكار ومفاهيم ومشاعر وتصورات وظواهر مماثلة على الصعيد المعرفي لا تلعب هذه المسألة أي دور ، في حين تلعب دورا أوليا على الصعيد السوسيولوجي ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة للانتاج الفكري على الصعيد المعرفي تعبر المسألة الاساسية عن نفسها في ان الوعي الاجتماعي ليس سوى جملة من التصورات والافكار والنظريات. . .الخ ، بينما تدور المسألة المركزية في الصعيد السوسيولوجي حول انتاج البشر الذين يقيمون بين بعضهم علاقات محددة ، وحول الاشكال (الصيغ) الفكرية لهذا الانتاج وفعالية استخدامها ومن الجلي ان هذا كله يعتبر جزءا من الحياة الفكرية للمجتمع

ان مفهوم « الحياة الفكرية للمجتمع هو المفهوم الاكثر اتساعا لدى تحليل التكوينات الفكرية من منظور سوسيولوجي وهو يتضمن أيضا مفهوم الثقافة الروحية الذي يعني انتاج وتوزيع واستهلاك القيم الفكرية. انه العملية الموحدة لخلق وامتلاك مجمل الغنى الروحي للمجتمع وبينما تدل الثقافة المادية على مستوى السيطرة الفعلية للبشر على الطبيعة ، فان الثقافة الروحية تدل على مدى السيطرة الفكرية على العالم

يملك الوعي الاجتماعي علاقة مباشرة بالثقافة الروحية ويتضح من هذه العلاقة ان الوعي الاجتماعي ليس سوى وجه للثقافة الروحية ولا يتطابق المفهومان لان الثقافة الروحية تتضمن انتاج الافكار والمفاهيم والنظريات الخ وتوزيعها واستهلاكها بل أيضا لان مفهوم الثقافة الروحية » يشمل مجمل القيم الفكرية التي خلقها الانسان في سياق

تاريخه بأكمله بعكس ذلك يحتوي مفهوم الوعي الاجتماعي قبل كل شيء على جملة الافكار والنظرات والتصورات وسواها من التكوينات الفكرية الخاصة بعصر ما ان وعي العصور الماضية ليس متضمنا في الوعي الاجتماعي الاشتراكي ولكنه يوجد في شكل هياكل للثقافة الروحية كالاعمال الادبية والفنية في العادات والتقاليد الخ ان ما هو تقدمي من هذا الارث الفكري يوضع في خدمة الشعب

تتجلى جدلية العلاقة بين الثقافة الروحية والوعي الاجتماعي في ان وعي كل عصر يستند الى المكتسبات الثقافية للماضي ويمتص كثيرا منها ومع تغير مجتمع ما ، فان وعيه لا يختفي دون ترك أي اثر ، بل هو ينتقل من جيل لآخر في شكل هياكل ثقافية مشيئة أفضلها القيم الخالدة للثقافة العالمية

من هذه المقارنة القصيرة للثقافة الروحية مع الوعي الاجتماعي يبرز بوضوح ان الوعي الاجتماعي هو اعادة انتاج البشر للواقع في شكل أفكار وتصورات ونظريات ونظرات في مرحلة معينة من التطور التاريخي وبالارتباط معها في هذا تعبر خصوصيته كظاهرة فكرية عن نفسها بيد ان هذه الخصوصية نسبية فالوعي الاجتماعي ليس سوى وجه من كل أي من الثقافة الروحية ومن المستحيل عرض الوعي الاجتماعي بصورة معزولة خارج الثقافة الروحية والحال ان الافكار والمفاهيم والتصورات وسواها من التكوينات الفكرية تشيىء نفسها في اللغة والكتب وغيرها من التجسيدات المادية للثقافة وحين يمتلك البشر منتجات الانتاج الفكري وينهون تشيؤها باعادة المحتوى الحبيس فيها الى مستواه الفكري مرة أخرى فانهم يمتلكون أيضا الوعي الاجتماعي

وتبرز خصوصية الوعي الاجتماعي محللة على الصعيد السوسيولوجي، بصورة اكثر وضوحا عند مقارنتها بالوعي الفردي بحسب مصدره يمثل الوعي الفردي أيضا منتجا اجتماعيا من هذه الناحية لا توجد فروق بين الوعي الاجتماعي والفردي غير انهما يمايزان بخصوص حامل كل منهما فالوعي الفردي هو وعي الانسان المتفرد بينما يمثل الوعي الاجتماعي ظاهرة ذات طابع جماهيري وهو حسب جوهره فوق فردي أي انه يشمل معارف وتصورات وآراء يشترك فيها بشر كثيرون لهذا نستطيع عند تحليل الوعي الاجتماعي تجاهل وعي الفرد وفهمه

(الوعي الاجتماعي) بصورة غير شخصية كنتاج لظروف اجتماعية محددة مثبت في اللغة والاعمال الثقافية

من هو الآن الحامل أو الذات لهذا الوعي فوق الفردي ؟ يزعم أحيانا انه ليس للوعي الاجتماعي حامل اجتماعي مشخص ويستند المرء في هذا الزعم الى ماركس الذي كتب في « **بؤس الفلسفة** » ان المرء لا يستطيع أن يتصور المجتمع بطريقة برودون، أي كشخص يملك موهبة العقل (٣٠) ولكن هذا الاستشهاد بماركس ليس في محله فماركس يؤكد فقط ان المجتمع ليس شيئا متميزا عن البشر الذين يكونونه انه نتاج التأثير المتبادل للبشر ، ووعيه هو حصيلة الفعالية الفكرية لاعضائه على كل حال فانه لا يمكن أن نستنتج من ذلك عدم وجود حامل للوعي الاجتماعي فهذا الوعي يرتبط بالافراد ، وهو يتحقق ويتطور من خلالهم فقط ، ولكنه مع ذلك واقع خاص بالنسبة للوعي الفردي وفي المجتمع الطبقي فان حامل (الذات) الوعي الاجتماعي هو هذه الطبقات أو تلك أو هذه المجموعات أو تلك أما في الاشتراكية فان الشعب بكامله هو حامل الوعى الاجتماعي

ويتمايز الوعيان الفردي والاجتماعي بمحتواهما أيضا فالفرد الواحد محدود بالشروط المشخصة لحياته وفعاليته وبوسطه الحياتي المباشر ، ولهذا فهو ليس في وضع يمكنه من الاحاطة بوعيه بالوجود الاجتماعي الكامل هذا ما تستطيعه فقط الطبقة او المجتمع بأسره

بالقياس الى الوعي الفردي يعتبر الوعي الاجتماعي كنتاج للفعالية الفكرية لطبقات كاملة ، ظاهرة فكرية أكثر تنوعا وغنى في محتواها ان على كل انسان أن يكوّن من جديد وعيه الفردي ، في حين ينقل الوعي الاجتماعي من جيل لآخر لهذا السبب يكون الوعي الفردي أضيق من حيث حجمه ، وأفقر من حيث محتواه من الوعي الاجتماعي

الوعي الاجتماعي هو اذن الاحاطة بالواقع من قبل طبقة محددة او فئة اجتماعية او المجتمع بأسره ، والعلاقة معه

عند تحليل الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي تبرز الذات العاكسة ذلك لا يقلل بأي حال من ضرورة دراسة الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي ، كانعكاس للوجود الاجتماعي بالعكس ان تحديد الوعي الاجتماعي بحسب ذاته يستكمل فقط تحديده وفق موضوع

الانعكاس هذا الاستكمال هام في نظرنا لانه يسمح بالانتقال من الوصف العام للوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي الى ادراك مكانه ودوره في المجتمع ومن المعروف ان قوة الافكار والآراء والتصورات لا تكمن فيها هي بقدر ما تكمن في حامليها أي أولئك الـــذين يعتنقونها لتقودهم ان من المهم جدا تحليل الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي مع مراعاة حامليه (ذواته

في العصور التاريخية المختلفة يوجد حملة مختلفون للوعيالاجتماعي. أي ان دور الوعي في حياة البشر لا يبقى هو نفسه ولمعرفة هذا الدور يجب تحليل الانواع أو النماذج المختلفة من الوعي الاجتماعي

عند تحليل بنية الوعي الاجتماعي يجب على المرء الانطلاق من تنوعه. ذلك يكشف تنوع عناصره وترابط تأثيرها المتبادل ويمكننا من التوغل أعمق فأعمق في طبيعته

من منظور معرفي تظهر بنية الوعي الاجتماعي مستويين رئيسيين الوعي اليومي والوعي النظري وينشأ الوعي اليومي منالشروط التطبيقية للحياة الاجتماعية وفيه تعبر حاجات ومطالب البشر اليومية عن نفسها وقد أكد **لينين** على خصوصيات الوعي اليومي فيما يلي

> **« ان كل منتج فرد في الاقتصاد العالمي يعي انه يدخل هـــذا التغير وذاك في تقنية الانتاج . وكلمالك سلع يعي انه يبادل السلـــــع مقابـــل أخرى ، ولكن المنتجين ومالكي السلع هؤلاء لا يعــــون انهم بذلك يغيرون الوجود الاجتماعي » (٣١)**

ان وعيهم محدود بالشروط التطبيقية لوجودهم ان الوعي المحدد بالاطار الحياتي اليومي للبشر هو الوعي اليومي

بعكس الوعي اليومي يتجاوز الوعي الاجتماعي النظري اطار ظروف الوجود الفعلي التطبيقي للبشر انه يطمح الى التعبير عن جوهر الظواهر الاجتماعية وعلى سبيل المثال فان المفهوم المادي للتاريخ الذي وضــــه ماركس وانجلز هو الوعي الاجتماعي النظري للطبقة العاملة

ويكمن الفارق النوعي بين الوعيين اليـــــومي والنظري في ان الاول يبقى على سطح الظواهر دون أن تصل تعميماته الـــى عمقها في حين يحاول الثاني التوغل الى جوهر الظواهر ، وكشف قوانين وجودها الفعلي

وتطورها ان الوعي اليومي والوعي النظري يمثلان الى حد ما مستويان أو طبقتان من الوعي الاجتماعي

هذان المستويان يتمايزان أيضا في نقطة شكليــة عن بعضهما ان الوعي اليومي والوعي النظري هما دوما تعميمان بيد ان الثاني هو تعميم من طبيعة أرقى وهو يبدو كمفهوم محدد وكمنظومة مفاهيم بينما لا يشكل الوعي اليومي أي نظام منطقي بل هو يمثل جملة خبرات العمل والتصورات والمعـــارف التقليدية للبشر هـــذا الوعي يجمّع ويصنف الحقائق حسب صفات ظاهرية ويقيمها من وجهة نظر الحاجات اليومية للبشر

يوجد الوعي اليومي والوعي النظري في تأثير متبادل دائم وكـل نمط من الوعي الاجتماعي يملك علاقة محددة بين مستويي الوعي، هذين ويفترض تحليل بنيـــة الوعي الاجتماعي عـــلى الصعيد المعرفي تفسير خصوصية هذين المستويين من الـــوعي كمـــا يفترض تفسير روابطهما وقوانين تأثيرهما المتبادل

من منظور معرفي يبدو الوعي الاجتماعي فضــلا عن ذلك كمحصـلة لاشكال المعرفة التي تتمايز عن بعضها حسب موضوع وطريقة الانعكاس وتوجد الآن أدبيات كثيرة تصف الـوعي السياسي ، والوعي القانوني والوعي الاخلاقي وسواها من أشكال المعرفة الاجتماعية ويمكن القول ان تصور بنية الوعي الاجتماعي قد تكون بالارتباط مع تحليل أشكاله المختلفة.

هل ينتج الآن عن تصور بنية الـــوعي الاجتماعي تقسيما (تفريعا) للوعي الى أشكاله الخاصة ؟ نعم فهذا التفريع هو أمر ضروري بفضل الارتباط بموضوع الانعكاس أي الارتباط بجوانب محددة من الواقــع ، والارتباط بطرق الانعكاس التابعة بدورها لطرق المعرفة البشرية تتمايز في المعرفة الاجتماعية أشكال معينة لها صفات خاصـــة ولعله من غير الضروري البرهنة على ضرورة تحليل بنية الوعي الاجتماعي كتابع لموضوع وطرق الانعكاس أي على الصعيد المعرفي ان تفريع الوعي الاجتماعي في طبقات ، بحسب عمق (تمامية) الانعكاس ، وفي أشكال موافقة لهـــا ، بحسب موضوع وطرز الانعكاس ، ليس سوى واحدة من بناه ، يمكن أن نسميها بنية ذات طبيعــة أولى ، تعبر عن خصوصية الـــوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي. غير ان خصوصية الوعيالاجتماعي لا تستنفد

نفسها في كونها انعكاس للوجود الاجتماعي. ولهذا فان بنيه الوعي لا تقتصر فقط على البنية ذات الطبيعة الاولى

ان الوعي هو وحده انعكاس الواقع والرابطه معه غير ان هاتين اللحظتين لا تعبران عن نفسهما في كل التكوينات الفكرية بنفس القدر وحسب مياسيتشيف تبرز روابط الانسان الى المرتبة الاولى في الحاجات والعواطف هذه المفاهيم وما يشبهها لها محتوى مشيىء يعكسه وعي البشر ويمكن القول فضلا عن ذلك ان محتوى مفاهيم الحاجة و « العاطفة و الاحساس و الاهتمام ليس شيئا خارجيا بل ان الحاجة والعاطفة والاحساس والاهتمام هي أشياء قائمة بذاتها وهي لا تعكس فقط الواقع الموضوعي بل توجد كحياة نفسية كرابطة منصبّة على هذا أو ذاك من الموضوعات ويوجد في الحاجات والاحاسيس انعكاس ورابطة مع التأكيد على ان العامل الاصيل والمحدد هنا هو الرابطة

وتبدو الامور في الوعي الاجتماعي على هذا المنوال أيضا وعلى سبيل المثال فان عنصر الانعكاس لا يملك الاهمية الاولى لدى تحليل خصوصية الرأي الاجتماعي كأحد مكونات الوعي والحال ان حقائق الحياة الاجتماعية تسبق دوما تكوّن الرأي الذي يتشكل فوقها مثله في ذلك مثل التصورات البشرية عن هذه الحقائق ان الرأي يتكون على أساس آراء وتوجهات معينة للفئات الاجتماعية وتقاليدها وعاداتها الخ لذا فان خصوصية الرأي الاجتماعي لا تكمن في انه انعكاس للواقع هذا شيء مفروغ منه) بل في انها تعبّر عن رابطة ، أي تجعلها فعالة على أساس مفاهيم وتصورات يملكها البشر سلفا

لدى دراسة بنية الوعي الاجتماعي من منظور معرفي فاننا لا نجد مكانا للرأي الاجتماعي لانه يتكون على صعيدي ألوعي اليومي والنظري وهو يبدو في السياسة والاخلاق والفن وسواها من أشكال الوعي الاجتماعي ـ انه ليس شكلا خاصا للوعي الى جانب هذه الاشكال في هذا المثال يتضح ان تحليل بنية الوعي من منظور معرفي فقط يجب أن تستكمل بتحليل يتم من منظور سوسيولوجي

ان تحليل دور الوعي الاجتماعي في حياة البشر ومعرفة وظائفه التي يحققها ، تمكننا من معرفة بنية أخرى من في هذه الحالة لا يفرع الوعي الاجتماعي حسب موضوع وطرق الانعكاس بل على ضوء الوظائف

الايديولوجية والمعرفية والجمالية وغيرها من الوظائف الاجتماعية التي يحققها هنا تتضح عناصر بنيـة الوعي الاحتماعي الاخرى والروابط المتبادلة بينها

من منظور معرفي تعتبر الاحاسيس والتصورات والمفاهيم وسواها من التكوينات العاطفية والارادية والعقلانية اكثر العناصر بساطة في بنية الوعي في المنظور السوسيولوجي تتكون هذه العناصر من المعارف والآراء والمعتقدات والضوابط والرموز والقيم كل واحد من هذه العناصر له معنى معين بالنسبة لنشاط البشر وهو يرتبط بالشحنة الاجتماعية التي يحملها فبمساعدة المعارف التي تثبت التصورات حول ظواهر وقوانين العالم الموضوعي، تتحقق الفعالية المتعددة الاشكال للبشر . وتحدث العلاقات المتبادلة للبشر بمساعدة ضوابط اجتماعية تعين حدود الفعالية البشرية بأن تقرر هذا السلوك أو ذاك او تمنعه وتبدو القيم كأهداف ومثل عليا للبشر وبواسطة القيم يوحد البشر أنفسهم توحيدا عضويا مع حياة المجتمع انها ناظمة لفعالية الانسان الفرد ولنشاط الفئات والطبقات الاجتماعية وهي تحمي ضوابط السلوك ، وتحدد مدى استغلال المعارف في المجتمع ، الى جانب وظائف اخرى تؤديها

وتتفرع أفكار وآراء البشر، بحسب تبعيتها للوظائف الاجتماعية التي لها، الى مجالات كبيرة للوعي الاجتماعي وكان المجال الاول الذي نشأ تاريخيا هو السيكولوجيه الاجتماعية والايديولوجيا والعلم وهذه التكوينات توجد الى جانب أنـواع الوعي الاجتماعي ان أنواع الوعي التي تحقق وظائف معينة ، تشكل هذا أو ذاك من المجالات الخاصة للوعي الاجتماعي.

ويسمح البحث التاريخي ـ المشخص لبنية الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي باكتشاف مصفوفة كاملة من التكوينات الجديدة التي تسقط في حال دراستها على الصعيد المعرفي ومنها مثلا أوضاع الوعي الاجتماعي وقد نتجت مسألة أوضاع الوعي بالارتباط مع تغير دور الافكار والمفاهيم المشخصة في حياة المجتمع ودلت ممارسة البحث العلمي على ان دور الافكار السياسية والاخلاقية والفنية وغيرها من الافكار لا يمكن ضبطها بدقة عندما تفصل عن مجمل وعي طبقة أو مجتمع ما ، لان هذه الافكار مترابطة بشدة مع بعضها وتؤثر بصورة مشتركة على حياة البشر ان تأثير الافكار الاخلاقية على سلوك البشر يحدث مثلا بالتلازم مع تأثير الافكار السياسية والقانونية والفلسفية وغيرها في حالة كهذه

يطرح نفسه السؤال حول الكيفية التي يحلل المرء بها دور الافكار الاخلاقية وسواها في حياة المجتمع

نحن نعتقد ان دور فكار ومفاهيم محدده يعبر عن نفسه من خلال الاوضاع المشخصة للوعي الاجتماعي ان للوعي الاجتماعي أوضاعا محددة وبالتالي فهو يؤثر كمحصلة لسلوك ونشاط البشر وهو يكتسب نفوذه من محمل محتواه ومن حملة الافكار والتصورات والاحاسيس... الخ.

ليس وضع الوعي الاجتماعي ببساطة مجموع الافكار الآراء والتصورات والمشاعر المحدده بل وهو حالة تحتل فيها أفكار معينة مركزا مهيمنا في الوعي وتطبع محتواه باسره بطابعها الخاص ان وعي مجتمع ما طبقه فئة اجتماعية يعني في كل وقت مسبقا بأفكار سياسيه وفلسفيه اخلاقيه الخ محددة وهو يكتسب بالتالي تناسقا وتوجها تسوسه شيئا وضاعه المختلفة ان تناسق مكونات الوعي وانصبابها على هدف معين تحت تأثير الافكار والتصورات والآراء والمشاعر المهيمنه فيه يشكلان خصوصية المميزه لاوضاع الوعي الاجتماعي

هذه الخصوصيه تجعل المنعكس بين محتوى الوعي الاجتماعي أي الآ والنظريات مكونات حرى الموجوده فيه وبين تعبيره المشخص وذلك بحسب الافكار والمشاعر التي تهيمن بداخله في وقت محدد

ان بحث منظومه سبع المنظورات التي يجب بحسب الظاهر المبحوثة نفسها وتعدد روابطها وعلاقاتها مع ظواهر وانماط حرى وكما سبق وقلنا فان بنية الوعي الاجتماعي قد درست حتى عاليا من منظور معرفي أما بحصوص المستوى السوسيولوجي للبحث فان هناك امورا كثيرة لا تزال غامضة وهذا بحد ذاته كاف لجعل عمدا التحليل السوسيولوجي قضية راهنة

٣ ـ تبعية بنية الوعي الاجتماعي لانواع فعالية وعلاقات البشر الاجتماعية

قلنا ان بنية الوعي الاجتماعي مشروطة اجتماعيا فكيف نفهم هذه الشرطية الاجتماعية ؟ يعتقد **اميل دوركهايم** ان هناك تطابقا مباشرا بين تنظيم المجتمع والوعي الجماعي فالبشر يخلقون مفاهيم جماعية بحسب الاشكال التي يأخذها التنظيم الاجتماعي (٣٢)

ويعبّر الاقتصادي الالماني **فيرنر سومبارت** في دراساته عن آراء مماثلة وهو يتبع بصورة مباشرة تطور الفكر الرأسمالي بعناصره الاساسية ـ الفكر الرأسمالي والبرجوازي الصغير ـ لتطور الانتاج والاشكال الرئيسية للتنظيم الرأسمالي (٣٣) ويزعم وجود تبعية تامة بين هذه العناصر

بيد ان مفهوم الارتباط المباشر بين بنية الوعي وبنية المجتمع لم يجد انتشارا واسعا في السوسيولوجيا لانه يبسط ويشوه الروابط الفعلية. والحال ان أساس هذا المفهوم يكمن في تفسير الروابط القائمة بين الظواهر المادية والفكرية من وجهة نظر اشتراطية ميكانيكية

ويعمل السوسيولوجيون البرجواريون المعاصرون لالصاق وجهة نظرهم حول التبعية الاجتماعية المباشرة للوعي بالماركسية ولهذه الغاية فهم يوجهون نقدهم ضد المادية التاريخية (٣٤) ويعارضون تفسيرها الجدلي حول تبعية بنية الوعي الاجتماعي للمجتمع بتحليلهم البنيوي ـ الوظيفي

يدعي التحليل البنيوي ـ الوظيفي في السوسيولوجيا البرجوازية انه يكشف عن بنية المجتمع احمالا وبالتالي فهو يكشف عن بنية الوعي أو الثقافة وعن وظائف المؤسسات الاجتماعية ويبرز هذا التحليل كعناصر رئيسية للبنية الاجتماعية الفرد والنظام الثقافي والنظام الاجتماعي الذي لا يلبث أن ينقسم بدوره الى مصفوفة من الانظمة الادنى (٣٥) وتدرس هذه الانظمة على الصعيدين البنيوي والديناميكي وتمثل وظائفها صلة الوصل بينهما

لقد برهنت الادبيات الماركسية على التهافت العلمي للتحليل البنيوي ـ الوظيفي للسوسيولوجيا البرجوازية ويبدو التهافت في عجز

هـــذا التحليل عن اظهـــار الروابط والعلاقات الجوهرية فـــي الظواهر الاجتماعية وفي تجاهله لعلاقات الانتاج بصفتها الاكثر أهميـــة والمعينة لغيرها من العلاقات وتنطلق الماركسية من ان الانظمة الاجتماعية المختلفه وعناصرها تملك تأثيرا متبادلا بعضها على بعضها وان الاقتصاد هو العامل المعين في هـــذا التاثير المتبادل هـــذه الحقيقة ينكرها ممثلو التحليل الوظيفي ـ البنيوي ويظهـــر رفضهم لها بأوضح صوره عند تحليلهم لمنظومات الافكار في المجتمع

تعطى تحليل بنية الافكار مكانا واسعا في سلسلة أعمال السوسيولوجيين الاميركيين وخاصة بارسون وميرتون (٣٦) وهم يميزون علـى أساس الوظائف الملازمه لها منظومات أفكار معينة كالنظرة الى العالم والدين والعلم وغيرها ويزعمون ان هذه المنظومات مستقلة عن الانظمة الاجتماعية المعاصره كالنظام الاقتصادي والسياسي مثل هذا التناول لبنية الوعي الاجتماعي يريد السوسيولوجيون البرجوازيون بيعه لنا بوصفه انجـــازا علميا رفيعا

ان فكره التنـــاول الوظيفي ـ البنيوي من الوعـــي الاجتماعي ليست ملكيه خاصه فكريه للسوسيولوجيا البرجوازيه المعاصره وعلى سبيـــل المثال فقد طرح **بوجدانوف** مسالة الدور الوظيفي للايديولوجيا (٣٧) وكتب.

> **« عند بحث شكل ايديولوجي ما يجب أن نطرح سؤالا أساسيـــا حول العناصر الاجتماعية التي تنظمه وبأية صيغة فقط عندما يوضح المرء هذه المسأله ، يمكن له أن يفهم نشوء وتطور وتشكل الشكل الايديولوجي ويتنبأ علميا بمصيره » (٣٨)**

ان فكره التناول الوظيفي ـ البنيوي للوعي الاجتماعي بحد ذاتهـــا لا يمكن أن تثير أي اعتراض الذي يثير الاعتراض هو اعطاء هذا المنهج صفة مطلقة وجعله معارضا مع التنـــاول المعرفي للوعـــي ان الوعي الاجتماعي هو انعكاس للواقع وهو يتحدد في تطوره بالعلاقات الاجتماعية المادية فقط هذا المفهوم للوعي الاجتماعي يمكننا من فهم دور هذا النوع او ذاك في الحياة الاجتماعية ومن المعروف ان بوجدانوف قد ماثل ما بين الوعي الاجتماعي والوجـــود الاجتماعي ومسخ في دراستـــه لانـــواع الايديولوجيا الفوارق القائمة فيما بينها الى مستوى فوارق في دورهـــا الوظيفي فحسب وأنكر المنظور المعرفي لتحليل الوعي الاجتماعي وبنيته.

وهذا ما يدفعنا الى القول ان دراسته البنيوية ـ الوظيفية متهافتة علميا ، لانها مفصولة عن المنظور المعرفي

يذهب السوسيولوجيون البرجوازيون المعاصرون ، من أمثال **بارسون وميرتون** ، عند اعطاء التناول البنيوي ـ الوظيفي للوعي الاجتماعي صفة مطلقة ، الى أبعد مما ذهب بوجدانوف فقد حاول هذا ، لدى تقسيمه لتطور الايديولوجيا الاجتماعية الى عصور مختلفة (عصر الثقافات البدائية ، عصر الثقافات السلطوية عصر الثقافات الفردية وعصر الثقافات الجماعية) أن يربط تطور الاشكال الايديولوجية بدرجة معينة مع تطور العلاقات الاجتماعية وأن يلاحق تبعية نشوء وتطور هذه الافكار أو تلك لعلاقات الانتاج أما **بارسون وميرتون** فهما ينكران مثل هذه التبعية في مفهومهما تنمسخ النزعة الوظيفية الىمجرد تأثير متبادلتبدو فيه أطراف هذا التأثير ذات قيمة واحدة وهكذا فهما لا ينكران من حيث المبدأ التأثير المتبادل للنظام الاقتصادي والمنظومات الفكرية بل يعترضان على حقيقة ان الدور المعين في هذه العلاقة المتبادلة هو للاقتصاد أي انهما ينكران وجود تفاوت في قيمة طرفي التأثير المتبادل. بكلمات أخرى ان السوسيولوجيين البرجوازيين يفهمون الارتباطية الاجتماعية لبنية الوعي الاجتماعي بصورة احادية الجانب الى أبعد حد ، وبالتالي فانهم يفهمونها بصورة مغلوطة وهم يمسخونها الى ارتباطية تخص هذه أو تلك من المنظومات الفكرية (بوصفها تكوينات فكرية للثقافة الروحية بالوظيفة الاجتماعية التي تحققها

بعكس السوسيولوجيا البرجوازية فان المادية التاريخية لا تقصر بحث الاشتراطية الاجتماعية للوعي الاجتماعي وبنيته على صعيد واحد ، بل تعالج هذه المسألة من وجوهها المختلفة وهي ترى ارتباط الوعي بالمجتمع في ان الوعي هو قبل كل شيء ، نتاج للانتاج الفكري ، يصنعه وينتجه بشر لهم روابط معينة ببعضهم

لقد تجاوزت الماركسية الطابع التوفيقي للمادية القديمة ويعبر هذا عن نفسه في ان الفلسفة الماركسية كشفت **الدور الفعال للبشر في انتاج الوعي الاجتماعي** فالبشر في سياق ممارستهم ينتجون قيما مادية وفكرية ويتفرع الانتاج بدوره الى انتاج مادي وفكري ويخلق النوع الثاني من الانتاج التصورات والمفاهيم والنظريات ... الخ ، ويرتبط مباشرة بالروابط الايديولوجية بين البشر

ولا يغدو الانتاج الفكري ممكنا الا على أساس الانتاج المادي وارتباطه به وكما اكد **ماركس** و **انجلز** فان الشكل الرئيسي لنشاط البشر هو **« الشكل المادي الذي ترتبط به كل الاشكال الاخرى ، فكرية كانت أم سياسية أم دينية »** (٣٩) وتحدد علاقات الانتاج المادي أيضا العلاقات الايديولوجية التي يقيمها البشر خلال عملية الانتاج الفكري التي ليست سوى اشكال أو أنواع خاصة له (٤٠) في ارتباطه مع الانتاج المادي وعلاقاته

وتتجلى تبعية الانتاج الفكري للانتاج المادي قبل كل شيء في محتوى الوعي الاجتماعي الذي تحدده العلاقات المادية البشر كتب ماركس وانجلز

« ان انتاج الافكار والتصورات والوعي تندمج بادىء ذي بدء اندماجا مباشرا مع النشاط المادي والاتصال المادي للبشر ، وهما لغة الحياة الواقعيه ان التصور والتفكير والاتصال الفكري للبشر تبدو هنا كنتيجة مباشرة لسلوكهم المادي . ويصح نفس الشيء بالنسبة للانتاج الفكري كما يتمثل في لغة السياسة ، والقوانين ، والاخلاق ، والدين ، والميتافيزيق لشعب من الشعوب » (٤١) .

تاريخيا كان انفصال العمل الفكري عن العمل الجسدي هو الشرط المباشر لنشوء الانتاج الفكري ومع الانفصال عن العمل الجسدي وجد العمل الفكري في الانتاج الفكري الشكل المشخص لوجوده الفعلي حدث هذا في ظروف المجتمع الطبقي في المجتمع البدائي كان الجانبان المادي والفكري لانتاج واعادة انتاج الحياة الاجتماعية وظائف لا تنفصل للمجتمع بأسره اما في المجتمع الطبقي فقد غدا الانتاج المادي والفكري وظائف لفئات اجتماعية ، تجندت في غالب الاحوال من الطبقات المستغلة وانصرفت كل واحدة منها الى ممارسة نشاط فكري ذي طبيعة خاصة بها (٤٢) على كاهل هذه الفئات وقعت مهمة وضع تصورات وآراء سياسية وحقوقية ودينية وفلسفية وغيرها من الافكار والنظريات اي وضع وعي للطبقة السائدة

في تحليل **للانتاج غير المادي** لاحظ **ماركس** ان هذا يتجسد من جهة في سلع وقيم استعمالية تملك **شكلا مستقلا مختلفا عن المنتج والمستهلك** « كالكتب واللوحات ، أو باختصار ، كل المنتجات الفنية المختلفة عن الانجاز الفني للفنان المنفذ » (٤٣) . أما الشكل الآخر للانتاج الفكري فهو ذلك

الذي لا يكتسب ناتج الفعالية فيه حياة مستقلة يمكن فصلها عن المنتج نفسه ان الانتاج ليس قابلا للفصل عن فعل الانتاج ، كما هو الحال لدى سائر الفنانين التنفيذيين كالخطباء والممثلين والمعلمين والاطباء والكهنة الخ (٤٤)

ان الارتباط بين الانتاج المادي والفكري الموزع في المجتمع الطبقي على فئات اجتماعية مختلفة يتم من خلال الروابط بين الطبقات ان الطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادي تسيطر في نفس الوقت على وسائل الانتاج الفكري ، بحيث تخضع لها في نفس الوقت ، وسطيا ، افكار اولئك الذين نزعت منهم وسائل الانتاج الفكري (٤٥) هكذا يدلل الارتباط المتحقق بين الانتاج المادي والفكري ـ تبعية الثاني للاول ـ على الاشتراطية الاجتماعية للوعي الاجتماعي كتب **ماركس** :

> **« من الشكل المحدد للانتاج المادي ينتج ترتيب محدد للمجتمع ، أولا ، وعلاقة محددة للبشر مع الطبيعة ثانيا ان دولة البشر ونظرتهم الفكرية يتحددان بهذين العاملين ، وبالتالي تتحدد ايضا طريقة انتاجهم الفكري » (٤٦) .**

بالاستناد الى هذه المقولة يمكننا بحث مسألة التناول المشخص لتحليل الاشتراطية الاجتماعية لبنية الوعي الاجتماعي

في اصل تمايز الوعي الاجتماعي كان انقسام العمل الى مادي وفكري ان تقسيم العمل هو ذلك العنصر الاجتماعي البالغ الاهمية الذي يمكننا تحليله من الوصول الى فهم صحيح لبنية الوعي الاجتماعي وتاريخيا برزت أنواع ومجالات للوعي الاجتماعي بقدر ما نشأت حاجات اجتماعية محددة ، وبقدر ما ظهرت فروع خاصة للانتاج الفكري انشغلت مجموعات بشرية معينة بها قال **انجلز** :

> **« ان المجتمع ينتج وظائف مشتركة معينة لا يستطيع الاستغناء عنها والناس الذين يعينون لهذه الوظائف يشكلون فرعا جديدا لتقسيم العمل داخل المجتمع » (٤٧)**

وهو يجسد هذه الفكرة بمثال الحقوق

> **« فما أن يصبح تقسيم العمل الجديد ضروريا ، ويخلق رجال القانون المحترفين ، حتى تفتتح منطقة مستقلة جديدة ... » (٤٨) .**

ان النشاط في مجال الحقوق ـ شأنه في ذلك شأن المجالات الدينية والفنية والعلمية الخ ـ كوّن الاساس لنشوء تكوينات بنيوية مناسبة للوعي الاجتماعي لذا يجب على المرء أن يفتش عن أسباب بروز تكوينات فكرية محـــددة ، قبل كل شيء في الحاجات الاجتماعية للبشر وفي أنواع النشاط المناسبة الموجهة الى ارضاء هذه الحاجات هكـــذا نشأ الوعي الحقوقي كنوع خاص من الوعي الاجتماعي عبر حاجة اجتماعيـــة للمجتمع الطبقي وعبر ضروره تنظيم العـــلاقات الاجتماعية قانونيا دون هذه الحاجة لما نشأت الحقوق ولا الوعي الحقـــوقي الذي ارتبط بنشوء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وتقسيم المجتمع الى طبقات ويكمن جوهر الحقوق في ان الطبقة السائدة أرادت تثبيت سلطتها السياسيـــة والاقتصادية الفعلية قانونيا وفرض ارادتها كشيء ملزم لسائر عضـــاء المجتمع فأخذت هذه صورة معايير قانونية تضعها الدولة وتحافظ عليها بقوة سلطتها وتوضع المعايير القانونية بالتطابق مع الوعي الحقوقي للطبقة السائدة لذا فان الحاجة للمعايير هي في نفس الوقت حاجه الى وعـــي قانوني تتمثل فيه جملة النظرات والافكار والتصورات حول القانـــون وتقييمه والوعي القانوني يعبر عن نفسه في فكر المعيار القانوني وفي القانون نفسه وهو يؤثر على تطبيق القانون أي على تفسيره وعـــلى تحديد العقوبة

من المهم جدا أخذ تاثير تقسيم العمل على الوعي الاجتماعي بعيـــن الاعتبار ولكن ذلك لوحده لا يكفي وعندما نقصر أنفسنا على الانـــواع المختلفة للنشاط الفكري فاننا نكوّن تصورا عن بنية الوعي الاجتماعي من وجهة نظر انتاجه فقط أي بالقياس الى نتاجات أنواع معينة من النشاط الفكري وذلك سينتج بنية ثابتة للوعي الاجتماعي بيد ان الوعي ينتج من أجل ان ينتشر بين الجماهير ويتحقق في الروابط الواقعية بين البشر . في سياق عملية امتلاكه من قبل الجمـــاهير وتحققه في العـــلاقات الواقعية فان الوعي الاجتماعي يتبدل تبدلا كبيرا في محتواه وبنيته وليست كل الافكار المتطورة قادرة على التجسد فـــي روابط واقعيـــة فضلا عن ان الافكار تؤثر ببعضها وتتداخل في سياق اندماجها الفعـــال بالحياة الاجتماعية وتتجلى نتيجة ذلك في بنية بالغة الديناميكية للوعي تتميز عن البنى الثابتة في نواح كثيرة من هنا فان التصور الاكثر شمولا لبنية الوعي الاجتماعي لا يمكن انشاؤه الا عبر تحليل ضاف لبنية العلاقات الاجتماعية (٤٩) .

يتموضع الوعي الاجتماعي في علاقات اجتماعية والمثال المشخص على ذلك هي العلاقات الايديولوجية يمكن للمرء أن يستنتج من العلاقات السياسية والاخلاقية وسواها من العلاقات الايديولوجية الافكار والنظرات التي تتحقق بها بكلمات أخرى يمكن الى حد معين ، استنتاج بنية الوعي الاجتماعي من بنية العلاقات الاجتماعية

هذا المبدأ في تناول تحليل بنية الوعيالاجتماعي يمكننا من فهم مكان تكوينات مثل الوعي الطبقي والقومي والفئوي داخل بنية الوعي هذه التكوينات الفكرية هي أشكال تعبير وتحقق الروابط الطبقية والقومية والفئوية ويمكن للمرء أن يستنتج من طبيعة وغنى العلاقات الواقعية محتوى وبنية وعي فئات اجتماعية ومجموعات بشرية محددة

وتعبر تبعية بنية الوعي الاحتماعي للعلاقات الاجتماعية عن نفسها في مصالح البشر ، اذ ان الروابط بين البشر تظهر كروابط بين مصالح (٥٠) وتتكون مصالح طبقة ما على أساس وضعها الموضوعيداخل المجتمع ومستوى حاجاتها المستقلة فيوجودها عن وعي أعضاء وممثلي هذه الطبقة ، أي المتحققة موضوعيا .ان منطق تطور طبقة ما يحتم وعي اعضائها لمصالحهم عاجلا أم آجلا بصورة صحيحة أو غير صحيحة وصيرورة الوعي هذه تنشأ في سياق النشاط الفعلي للطبقة ، وفيسياق علاقاتها الواقعية مع غيرها من الطبقات وتغدو المصالح التي تم وعيها، وتجسدت في أفكار ومفاهيم محددة قوى دفع فكري لنشاط أعضاء الطبقة وروابطهم الواقعية

ليس فقط الروابط الاقتصادية ، بل سائر الروابط الاجتماعية تبدو كعلاقات مصالح ان تحليل العلاقات الاجتماعية هو في نفس الوقت تحليل لعلاقات المصالح المتبادلة بين الطبقاتوسواها من الفئاتالاجتماعية، وبين المجتمع والفرد الخ ، وهي أيضا تحليل لمحتواها الموضوعي ولوعيها في رؤوس البشر

وبما ان نظام الفعالية الناشىء في المجتمع والعلاقات الاجتماعية هما الاساس الواقعي لوجود التكوينات الفكرية ، فان بوسع المرء ان يعتبر تفسير بنية الوعي ، بالارتباط مع تحليل أنواع الفعالية البشرية وعلاقاتها الاجتماعية ، مبدأ منهجيا هاما للفلسفة الماركسية .

مراجع الفصل الاول

١ ـ كارل ماركس « حول نقد الاقتصاد السياسي » في الاعمال الكاملة لماركس وانجلز . الجزء ١٣ ، برلين ١٩٦١ ، صفحة ٩

٢ ـ ف. فونت أسس علم النفس الفيزيولوجي الجزء الثالث ، لايبزيغ ١٨٧٤

٣ ـ كارل مانهايم الايديولوجيا واليوتوبيا الطبعة الرابعة ، فرانكفورت على الماين ١٩٦٥ صفحة ٢٢٧

٤ ـ ماكس شيلر الاعمال الكاملة ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية برن ـ ميونيخ ١٩٦٠ ، صفحة ١٧

٥ ـ ر. ميرتون النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية جلينكو ١٩٥٧ ، صفحة ٤٦٠ وما يليها

٦ ـ شيلر نفس المصدر

٧ ـ لدى شيلر ، ينمو الطموح نحو المعرفة من « دافع فطري » ليس حصرا بالانسان فقط ، بل تملكه أيضا سائر الفقاريات ، وخاصة القردة نفس المصدر

٨ ـ شيلتيبخ نظرية المعرفة لدى ماركس فيبر توبينجن ١٩٣٤ ، صفحة ٨٦

٩ ـ ج. ماكيه سوسيولوجيا المعرفة بوسطن ١٩٥١

١٠ ـ مانهايم ، المصدر السابق ، صفحة ٢٧ وما يليها

١١ ـ ميرتون ، المصدر السابق ، صفحة ٤٦٢

١٢ ـ سوروكين الديناميكية الاجتماعية والثقافية أربعة أجزاء ، ١٩٣٧ ـ ١٩٤١

١٣ ـ ج. كاك المادية التاريخية موسكو ١٩٦٠ ، صفحة ٥٩ وما يليها

١٤ ـ ل. اكسلرود قضايا الفلسفة ، الجزء الرابع ، موسكو ـ لينينغراد ١٩٢٥ صفحة ١٦٤

١٥ ـ كارل ماركس ـ فريدريك انجلز الايديولوجيا الالمانية الاعمال الكاملة الجزء الثالث ، برلين ١٩٥٨ ، صفحة ٢٦

١٦ ـ نفس المرجع

١٧ ـ اكسلرود ، نفس المرجع

١٨ ـ توجارينوف مجلة الفلسفة ، ١٩٥٨ ، العدد الاول ، صفحة ٢٥

١٩ ـ توجارينوف : نفس المرجع

٢٠ ـ ماركس ـ انجلز الايديولوجيا الالمانية صفحة ٢٦ و ٣١ و ٤٤

٢١ ـ كيله ـ كوخالسون : الفلسفة الماركسية موسكو ١٩٦٢ ، صفحة ٥٣٠

٢٢ ـ بوبوف القضايا الاجتماعية صوفيا ١٩٦٤ ، صفحة ١٠٩ وما يليها

٢٣ ـ لينين الماركسية والمذهب النقدي التجريبي ملاحظات نقدية حول فلسفة رجعية . الاعمال ، الجزء ١٤ ، برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٣٢٨ وما يليها .

٢٤ ـ قضايا الفلسفة . ١٩٥٨ ، العدد ١ ، صفحة ٢١

٢٥ ـ ج. كالك علم الادراك الاجتماعي . موسكو ١٩٦٠، صفحة ٥٩
٢٦ ـ يقدم بوبوف شروحا هامة حول مسالة الترابط بين الوجود والوعي . يكتب انه يوجد في العلاقة بين الوجود والوعي الاجتماعيين « نوعان من الروابط السببية » « للاولى منهما طبيعة معرفية اذ تملك اشكال الوعي الاجتماعي دلالة معرفية بقدر ما هي انعكاس ذاتي للوجود الاجتماعي الموضوعي . بهذا المعنى يمكن القول ان محتواها ، الذي هو انعكاس للجوانب المختلفة للوجود الاجتماعي ، يتعين بهذه الجوانب الرابطة السببية الثانية تصف الاشتراطية الاجتماعية للوعي الاجتماعي من خلال الوعي الاجتماعي هذا يفسر لماذا تفسر الطبقات المختلفة الاحداث نفسها تفسيرا مختلفا هنا تنشا علاقة سببية ، لان الجوانب المعينة للوجود الاجتماعي تقرر طريقة مطابقة لها في الفهم . وهنا أيضا يوجد انعكاس ، ولكنه لا يملك طبيعة معرفية » (بوبوف صفحة ١٤٠ ـ المرجع السابق)
٢٧ ـ كارل ماركس نظريات حول القيمة الزائدة في ماركس وانجلز ـ المؤلفات ـ الجزء ٢٦ ، برلين ١٩٦٥ ، صفحة ٢٥٦
٢٨ ـ بليخانوف حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ ، برلين ١٩٥٦ ، صفحة ٢٠٦
٢٩ ـ نفس المصدر ، ص ٢١٥
٣٠ ـ كارل ماركس : « بؤس الفلسفة » فريدريك انجلز : « الاعمال » ـ الجزء الرابع ـ برلين ١٩٥٩ ، صفحة ١١٥
٣١ ـ لينين : المادية ونقد المذهب التجريبي صفحة ٣٢٨
٣٢ ـ المقولات تعبر قبل كل شيء عن هذه أو تلك من أوضاع التنظيم الجماعي . وهي ترتبط بتركيب الجماعات ونمط تنظيمهم ، باشكال وجودها ومؤسساتها « تتكون الافكار حول الزمان ، المكان ، النوع ، والسبب من عناصر اجتماعية » اميل دوركهايم : السوسيولوجيا ونظرية المعرفة ، صفحة ٣٧ ـ ٤٢ وما يليها
٣٩ ـ فيرنر سومبارت : البرجوازي ، حول التاريخ الفكري للانسان الاقتصادي المعاصر ميونيخ ـ لايبزيغ ١٩٢٠.
٣٤ ـ يزعم السوسيولوجيون الاميركيون ان دراسة ماركس « للروابط بين منظومات الافكار في المجتمع وعلاقات الانتاج الاجتماعي » ليست واضحة. تابع السوسيولوجيا، مشاكل وآفاق ، صفحة ٢٣٧
٣٥ ـ ت. بارسون : مسائل نظرية عامة للسوسيولوجيا نيويورك ١٩٦٥
٣٦ ـ يركز بارسون وميرتون اهتمامهما على « التحليل السوسيولوجي » لنظم الافكار في المجتمع ، وهما يحاولان التدليل ، نظريا وتجريبيا ، على ان نظم الافكار ، بما فيها العلم ، هي مكونات مستقلة وظيفيا للمجتمع ، ومستقلة عن سواها من العناصر الوظيفية كالبنى الاقتصادية والسياسية
٣٧ ـ الايديولوجيا هي « اداة تنظيمية » للمجتمع ، للانتاج ، للطبقات ، ولسائر القوى والعناصر الاجتماعية . انها اداة يستحيل تنظيم المجتمع بدونها (بوجدانوف)
٣٨ ـ نفس المصدر .
٣٩ ـ كارل ماركس ـ فريدريك انجلز الايديولوجيا الالمانية . صفحة ٧١ .

٤٠ ـ الحقوق ، الاخلاق ، الدين والفن ليست بالنسبة لماركس سوى « طرز خاصة فقط للانتاج ، وهي تخضع لقانونه العام » ماركس ، المسودات الاقتصادية الفلسفية ماركس ـ انجلز ، الاعمال ، جزء مكمل ، القسم الاول ، برلين ١٩٦٨ ، صفحة ٥٣٧
٤١ ـ ماركس ـ انجلز : الايديولوجيا الالمانية صفحة ٢٦
٤٢ ـ أول هذه الفئات هي حسب ماركس الكهنة نفس المصدر ، الهامش ، صفحة ١
٤٣ ـ ماركس نظريات حول فائض القيمة ص ٣٨٥
٤٤ ـ نفس المرجع ، صفحة ٣٨٦
٤٥ ـ ماركس ـ انجلز الايديولوجيا الالمانية صفحة ٤٦
٤٦ ـ ماركس : نظريات حول فائض القيمة صفحة ٢٥٧
٤٧ ـ انجلز رسالة الى كونراد شميدت ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠. في الاعمال ، الجزء ٣٧ ، برلين ١٩٦٧ ، صفحة ٤٩٠.
٤٨ ـ نفس المرجع ، صفحة ٤٩١
٤٩ ـ أشار كل من لابريولا وبليخانوف الى تبعية بنية الوعي الاجتماعي لبنية المجتمع وللعلاقات الاجتماعية كتب بليخانوف « عند تفسير سيكولوجية مجتمع او طبقة ما تتوجه المادية الى البنية الاجتماعية التي خلقها التطور الاقتصادي »
٥٠ ـ كتب انجلز « تتجلى العلاقات الاقتصادية لمجتمع ما في البداية كمصالح » انجلز حول مسألة المساكن في ماركس ـ انجلز الاعمال ، الجزء ١٨ ، برلين ١٩٦٢ صفحة ٢٧٤

الفصل الثاني

انواع الوعي الاجتماعي

١ ـ مفاهيم « شكل » و « نوع » الوعي الاجتماعي

يرتبط تصور بنية الوعي الاجتماعي عـــادة بأشكاله وينطلق معظم المؤلفين الذين يدرسون الحياة الفكرية للمجتمع مـن ان الوعي الاجتماعي يتحقق ، ويعبر عن نفسه ، في أشكال مختلفة وهم يعتبرون ذلك بدهية لا مجال للنقاش حولها ولا يسألون عما يعنيه مفهـــوم أشكال الوعي الاجتماعي أصلا. وقد اعتاد قراء الادبيات الفلسفية على استخدام مصطلح شكل الوعي ، الى درجة بدا معها السؤال حول معنى هـــذا المصطلح ترهة لا معنى لها ومع ذلك فان الاجابة على مثل هذا السؤال هي فـــي الحقيقة صعبة جدا بسبب انفلاش المفهوم نفسه

في الاصل عبّرت مقولة شكل الوعي الاجتماعي فقط عن حقيقة ان للوعي الاجتماعي بنية خاصة به. ومثل هذا الاستخدام في « الايديولوجيا الالمانية » من قبل ماركس وانجلز كان محقا تماما. فيما بعد استخدمت هذه المقولة ، وبالدرجة التي بلغها اكتشاف بنية الوعـــي الاجتماعي ، لوصف محتوى التكوينات الفكرية المشخصة من جهة ، وطرق انعكاس الواقـــع الخاصة وتموضع ما هو فكري في أعمال ثقافية من جهة اخرى ففقدت تحددها وبدأ بتجنب مسألة أين يكمن محتواها

غير أن تمة حاجة لتحديد معنى المفاهيم التي تعبر عن بنية الوعـــي الاجتماعي هذا أمر يتطلبه تطور العلم نفسه ، وواقع البحث الاجتماعي المشخص حول الحياة الفكرية للمجتمع وفي السنـــوات الاخيرة تمت محاولات لتحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي وبالتالي للتغلب على الانفلاش القائم

وحدث تحديد المفهوم قبل كل شيء من خـــلال تضييق حجمه فانتقد التفسير المطاط لمقولة شكـــل الوعي التي تضم الى جـانب التكوينات الفكرية علاقات البشر أيضا ان مثل هذا التفسير كان منتشرا في عشرينات وثلاثينات هذا القرن (١) وفي العقـــود اللاحقة بدأ المرء

يبتعد عن مثل هذا التفسير المطاط للمفهوم ، وان كان لا يزال يستخدم بهذه الصيغة حتى اليوم ، وخاصة عند تحليل الاخلاق والفن (٢) ان **تشيسنوكوف** على حق حين يستخدم مثل هذا المفهوم الواسع لاشكال الوعي وقد أشار في معرض تحليله للسياسة والحق والاخلاق وغيرها من الظواهر الاجتماعية الى انها تحتوي على علاقات ايديولوجية الى جانب التطلعات والافكار والنظريات التي تصنع شكل الوعي بالمعنى الاصلي للكلمة وهو يكتب عند تحليله للاخلاق :

« ان الاخلاق كنظام اجتماعي للضوابط السلوكية التي يتقيد البشر بها في اعمالهم ، هي علاقة اجتماعية محددة لا يمكن اعادتها الى آراء ونظريات تؤكد هذه الضوابط أو ترفضها » .

وعلى أساس تحليله يستنتج **تشيسنوكوف**

« ... على المرء ان يميز بين الاشكال الايديولوجية ذات العلاقة مع آراء ونظريات البشر ، وبين تنوع الظواهر والروابط والقيم الايديولوجية التي تتجسد بها الاراء والنظريات » (٣) .

الى جانب التفسير المطاط لمفهوم شكل الوعي الاجتماعي هناك في الادبيات السوسيولوجية النقيض فظواهر علم النفس الاجتماعي التي ترتبط مثلا بالاخلاق أو الفن لا تدخل في هذا المفهوم ، مما يفقر محتواه وتفهم أشكال الوعي الاجتماعي ، حسب جوهرها ، كشيء مماثل لاشكال الايديولوجيا ، ويتم وصفها أيضا كأشكال ايديولوجية فقط.

ان ممثلي وجهة النظر التي تخرج التكوينات النفسية ـ الاجتماعية من اشكال الوعي يتناقصون باستمرار والابحاث التي أجريت في السنوات الاخيرة حول التكوينات الفكرية تدل بصورة حاسمة ان محتوى أشكال الوعي يتكون من عناصر ايديولوجية ونفسية ـ اجتماعية ، أي ليس فقط من أفكار ، وعواطف ، وتعبيرات ارادية وتؤدي مماثلة أشكال الوعي الاجتماعي مع أشكال الايديولوجيا ليس فقط الى اخراج التكوينات النفسية الاجتماعية ، بل الى تضييق تنوع أشكال الوعي فلا ينظر غالبا الى ظاهرة فكرية كالعلم بصفتها شكلا خاصا للوعي الاجتماعي هذا التضييق لتنوع اشكال الوعي يثير الاعتراض ، ويطرح مسألة العلاقة المتبادلة بين أشكال الوعي الاجتماعي واشكال الايديولوجيا والاعتراض في محله تماما ، لان الوعي الاجتماعي لا يمكن مسخه الى ايديولوجيا فقط . فأشكال الوعي

الاجتماعي هي اكثر تنوعـا من أشكـال الايديولوجيا وهـي ليست متماثلة معها

تشرح الاعمال التي تدرس مسألة الوعي الاجتماعي ما يعنيـه مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي يقول كتاب أصـدرته كلية الآداب التابعـة لجامعة موسكو

« يصف مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي » محتـوى فكريا معينا يتحدد بموضوع الانعكاس (الفارق بين الفكرة السياسية والحقوقيـة مثلا) وبطريقة انعكاس معينة (الفارق بين الفلسفة كانعكاس بالمفاهيم والفن كانعكاس بالصور) » (٤)

هنا يصاغ جواب على ما يقصـد بـ أشكال الوعي الاجتماعي وكما هو واضح فان الحديث يدور حول محتوى هذه أو تلك مـن الافكار والآراء وحول الفارق في طريقة الانعكاس هذا التحديد للمفاهيم يمكننا من الاجابة على السؤال حول تطابق المفهوم مع ما يصفه وهو لا يتطابق معه ، لان المرء لا يصف بالمفهوم فوارق في الشكل فقط بل فوارق فـي المحتوى الفكري قبل كل شيء ومن غير المنطقـي تسمية أفكـار ومفاهيم تتمايز في محتواها (في نوعيتها أشكالا للوعي يجب أن تشير التسميـة الى فروق المحتوى القائمـة بين الافكار والنظـرات والتصورات وعندما يتحدث المرء عن تطابق مفهوم شكل الوعي مع ما يوصف به ، فان ذلك لا ينطبق الا على طريقة الانعكاس فقط فـي هذه الحالة فحسب يكون استخدام المفهوم محقا ان محتوى الظـواهر الفكرية ، شأنه في ذلك شأن محتوى الظواهر الماديـة يملك شكلا وهذان يتمايزان فعلا في طريقة الانعكاس غير ان مفهوم الشكل يصف ، في استخدامه العام ، محتوى الوعي وهذا يثير الاعتراض

لا يوافق كاك على المفهوم الشائع لاشكال الوعي الاجتماعـي ويحاول أن يحدده بدقة اكبر في العادة ، يمسخ تحليل الصفة النوعية لاشكال الوعي الاجتماعي المختلفة الى تفسير لخصوصية هذا الموضوع أو ذاك من موضوعات المجـال الايديولوجي كالنظريـة السياسية والحقوقيـة والفلسفية » (٥) بينما « يجب على الدراسة المادية ـ التاريخية لاشكال الوعي أن تدل على ان الاشكال المختلفة للوعي الاجتمـاعي تعكس **البنيـة الاقتصادية** وجوانبها المختلفة » (٨) اذا كنا نريد مثلا كشف الصفـة

النوعية للاخلاق كشكل للوعي ، فان علينا عندئذ ان ننظر اليها كانعكاس للبنية الاقتصادية ، وان نظهر كيف تعكسها

يرى كاك ان الصفة النوعية لاشكال الوعي الاجتماعي ، تكمن في طريقة الانعكاس وموضوعه وهو يؤكد اننا لا نستطيع ، عند تحديد نوعية الاشكال المختلفة للوعي ان « نقصر الامر على الصفة النوعية لموضوع (سياسي ، او فلسفي الخ) لنظرية ما » ، بل يجب « قبل كل شيء الانطلاق من اخذ الجانب الخاص للتطور الاقتصادي بعين الاعتبار ، لانه هو الذي ينتج الشكل المعني للوعي الاجتماعي ويحافظ عليه » (٦)

تدل الآراء التي استشهدنا بها على ان كاك يحاول ان يضع لمفهوم « شكل الوعي الاجتماعي » معنى متطابقا معه ولكن هل نستطيع اعتبار الوعي السياسي ، والوعي الحقوقي ، والاخلاق ، والدين ، والفن والفلسفة كما يصفها كاك في كتابه ، أشكالا للوعي الاجتماعي ؟ أعتقد ان المرء لا يستطيع ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أن يقبلها كأشكال للوعي الاجتماعي ، للسبب التالي : وضع كاك عند دراسته لاشكال الوعي موضوع الانعكاس في الذروة ، واشار مثلا الى ان الوعي السياسي هو انعكاس العلاقات الاقتصادية الاكثر مباشرة ، بينما يعكس الوعي الاخلاقي البنية الاقتصادية في المحصلة النهائية فقط ويملك الوعي السياسي والحقوقي وجودا فعليا ، ما دامت للعلاقات الاقتصادية بنية طبقية ، في حين لا يرتبط الوعي الخلقي بالضرورة ببنية طبقية محددة هذه الافكار جوهرية لفهم الحياة الفكرية ، غير ان الذي يهمنا هنا هو اشكال » الوعي ، اي بنية نتاجات الوجود الذي تم وعيه ، وكاك يدرس الامر من زاوية موضوع وصفات الانعكاس ان الاشكال التي يحللها كتاب كاك ليست أشكال الوعي ، بل هي أشكال المعرفة

ولا يدرس كاك ايضا الفروق بين الوعي والمعرفة ، بل انه يعارض هذا التمييز أصلا ان أشكال المعرفة هي بالنسبة له اشكال الوعي ايضا (٧) ونحن وان كنا لا نريد دراسة العلاقة بين الوعي والمعرفة ، نؤكد ضرورة النظر الى الوعي كعملية لصيرورة الوعي (للمعرفة) ونتائجها. واستخدام مفهوم « المعرفة لوصف هذه العملية ، هو في رأينا ، امر مشروع ، حتى وان كان لم يحدد بعد بصورة كافية (٨)

ان ما هو نفسي ، وشكله الاعلى ، اي الوعي ، هو نتاج لعملية الانعكاس ولنشاط الذات . وهو في رابطته مع موضوع الانعكاس شيء

ذهني يقول روبنشتاين ان وصف ما هو نفسي كشيء ذهني ينسحب قبل كل شيء على نتاج أو نتيجة النشاط النفسي على الصورة او الفكرة في علاقتها مع الموضوع او الشيء ولا يوضع النشاط النفسي. بوصفه نشاطا فكريا في مواجهة ما هو مادي الا بقدر ما يكون مشبعا بمحتوى ذهني تمّ اكتسابه خلال عملية معرفة منظمة اجتماعيا (٩) عندما تكون عملية الوصول الى الحقيقة هي المعرفة فان نتيجة المعرفة أو ما يسميه روبنشتاين المحتوى الذهني للمعرفة المكتسبة تكون هي الوعي وهذا استنتاج يتطابق مع مفهوم الكلاسيكيين الماركسيين حول الوعي بوصفه وجودا تم وعيه (١٠)

لقد قادت محاولة تحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي كاك الى وصف الاشكال الاجتماعية للمعرفة حتى وان استمر في تسميتها واعتبارها اشكالا للوعي

ثمة محاولة أخرى لتحديد مفهوم شكل الوعي الاجتماعي قام بها سيلينوف وسيليفانوف فقد درس هذان العلاقة بين شكل ومحتوى الوعي الاجتماعي وتوصلا الى ان الرابطة بين الوعي الاجتماعي وأنواعه المختلفة (السياسي الاخلاقي الفلسفي الخ ليست رابطة شكل بمحتوى ، لان الشكل هو التعبير عن المحتوى وطراز وجوده في حينلا يمثل أي من الانواع المذكورة طراز وجود الوعي الاجتماعي يقول العالمان

> « على المرء ان يعتبر الافكار السياسيه والنظرات الجماليه والمعتقدات الاخلاقية الخ جزءا من الوعي الاجتماعي ، حين يعتبرها عناصر للوعي الاجتماعي ، أو وعيا سياسيا وجماليا واخلاقيا وعلى هذا الاساس فليس من المبرد تعريفها كاشكال للوعي الاجتماعي » (١١)

ماذا يجدر بنا أن نفهم تحت اشكال الوعي الاجتماعي حسب راي الكاتبين تعتبر اشكال الوعي الاجتماعي منتجات للتجسد المادي لتموضع تعبير المكونات المختلفة للوعي في وسائط مادية انه وعي اجتماعي مموضع (متجسد في موضوعات) (١٢)

وهما يعللان هذه النتيجة بأطروحة تقول اننا لا يجوز ان نعتبر من الوعي الاجتماعي ما ليس ماديا والافكار والنظرات والمعتقدات والايمان وسواها من التكوينات الفكرية لا تملك وجودا فعليا موضوعيا الا عندما تكتسب شكلا ماديا ، مع ان الشكل المادي ليس جزءا من الوعيالاجتماعي.

ويؤكد الكاتبان خطأ اعتبار الاعمال الفنيــة وسلوك البشر جزءا من الوعي الاجتماعي بالعلاقة مع الوعي الجمالي تبدو الاعمال الفنيـــة كأشكال وجود متحقق للوعي الجمالي وبخصوص الوعي الاخلاقي يعتبر الســلوك والعادات...الخ أشكال الوجود المتحقق للوعي الاخلاقي...الخ » (١٣)

عندما نركز انظارنا على عملية المعرفــة ونتائجها ، اي عــلى الوعي كوجود تم وعيه ، فانه من الطبيعي ان التكوينات المادية فقط تستطيع ان تبرز كتجسيد لما هو فكري ولكن هل يستطيع المرء تسمية هذه التكوينات المادية « أشكالا للوجود الاجتماعي ؟ هـــذا السؤال يطرح نفسه بالحاح على قارىء كتاب سيلينوف وسيليفانوف

تمثل الاعمال الفنيـــة وسلوك البشر والطقوس الخ في الواقع وحدة من الموضوعي والذاتي ، يرتبط فيها المحتوى الفكري بالشكل المادي. اذا كنا لن نعتبر من الوعي الاجتماعي الا ما هو مادي فقط ـ كمـا يكتب المؤلفان ـ فلماذا يعتبران الاعمال الفنية وسلوك البشر والطقوس الخ ، اشكال للوعي ، مع ان بها محتوى فكريا ؟ ان اقوالهما متناقضة بصــورة واضحة وهما يميزان النظرات الجماليـــة والاعمال الفنية ، المعتقدات الاخلاقية والسلوك، الايمـــان الديني والطقوس حسب طريقة وجودها ، ويستنتجان ان بوسع المرء وصف « أشكال الوعي الاجتماعي » معزولة عن الوعي الاجتماعي نحن لا نستطيع ان نوافق على هذه الآراء ، لانها تفقد الاشكال » محتواها

ويغدو المفهوم المقترح لاشكال الوعي الاجتماعي اصعب قبولا ، حين يعود المؤلفان الى وجهة النظر التي تم تجاوزها في نقـــاط كثيرة ، والتي تفهم اشكال الوعي الاجتماعي بمعنـــى جد فضفاض ، بأن تدخـــل فيها التنظيمات والمؤسسات والانظمــة الماديـــة التي تسمح بموضعــة الافكار والنظرات وعلى كل حال فان السؤال حول التكوينات التي تشتمل على الافكار والنظرات وتجسدها في منتجات محددة له معنى واقعي تماما ويبدو لنا انه لا يجوز طرحه والاجابة عليه على صعيد وصف « اشكـــال الوعي الاجتماعي » ، بل على صعيد الثقافة ومجالاتها. ويتحدث سيلينوف وسيليفانوف عمليا عن مجالات الثقافة (الفن ، الاخلاق...الخ) ، ولكنهما يسميانها اشكالا للوعي

ان ظاهرة وتجسد الوعي الاجتماعي لن يفهما الا عبر تحليل للثقافة والثقافة هي ذلك المجال من الحياة الاجتماعية الـــذي يحدث فيه تأثير

متبادل بين الوجود والوعي   وعلى اساس التأثير المتبادل لما هو موضوعي وذاتي يحدث الاكتمال النوعي للوجود والوعي ، الذي يعتبر نموا للثقافة ويتموضع في المنتجات الثقافية النشاط المادي والفكري للبشر ووعيهم كما يجد الوعي الاجتماعي تعبيره في المجالات المختلفة للثقافة (١٤)

ينتج مما قلناه ان محاولات تحديد مفهوم « شكل الوعي الاجتماعي قد ادت في الحالة الاولى الى وصف أشكال المعرفة ، وفي الثانية الى وصف أشكال الثقافة   وبوسعنا الاعتقاد بأن صعوبة تعريف مفهوم شكل الوعي الاجتماعي   لا يمكن تفاديها   فهو يعكس فقط حقيقة ان للوعي الاجتماعي بنيته الخاصة   وحين يبدأ المرء باستخدامه لوصف تكوينات فكرية مختلفة ، باختلاف المنظور الذي تحلل على اساسه بنية الوعي الاجتماعي   فان انفلاشه يبدو واضحا للعيان

ان دراسة بنية الوعي الاجتماعي على الصعيد المعرفي فحسب تؤدي حتما الى الزعم بأن أشكال الوعي ليست سوى طرق مختلفة لمعرفة الواقع، تتميز عن بعضها حسب موضوع وطريقة الانعكاس   أما في المؤلفات حول المادية التاريخية التي تحلل بنية الوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي ، فانه يفهم تحت أشكال الوعي التصورات والنظرات السياسية والحقوقية والاخلاقية   الخ المحددة التي تتميز عن بعضها أساسا بحسب محتواها   هنا لا يبرز الجانب الشكلي (طريقة وموضوع الانعكاس) ، بل المحتوى   ولقد ادت المحاولات التي بذلت لدراسة بنية الوعي الاجتماعي على صعيد تاريخي ــ مشخص الى ضم التنظيمات والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية الى مفهوم   شكل الوعي » ، لان الظهور المشخص للوعي في الحياة الاجتماعية يرتبط بها   وباختصار   فان الدراسات المختلفة لبنية الوعي لم تسمح باعطاء معنى محدد لمفهوم   شكل الوعي الاجتماعي   وهذا ما زاد من انفلاش المصطلح

يجب علينا أن نحدد بدقة أكبر منظورات التحليل ، اذا كنا نريد حقا اجراء تحليل موضوعي لبنية الوعي الاجتماعي   وقد قادنا طموحنا لاعطاء احد هذه المنظورات صفة مطلقة ، الى تركيب صيغ جامدة تصعّب فهم بنية ظاهرة معقدة كظاهرة الوعي الاجتماعي   وعلى المرء ان يحدد بدقة أيضا استخدام مفهوم   شكل الوعي الاجتماعي   ، اذا اراد بحق اجراء

تحليل موضوعي له   لقد فقد هذا المفهوم المعنى الـذي كان له بالاصل ، وليس بين المعاني التي تلصق الآن به سوى معنى واحد صحيـح ، يتجلى في الاشارة الى الفارق بين طرق انعكاس الواقع   وقـد أكدنا سابقا ان هذه الفروق لا تكتشف الا عند تحليل بنيـة الوعي الاجتماعي من منظور معرفي   والواقع ان مفهوم « شكل الوعي   يمكن أن يستبدل هنا بمفهوم شكلالمعرفة » الاكثر دقة وصحة. ولكن ، بما ان « الوعي   و   المعرفة » يستخدمان عادة لتأدية نفس المعنى ، وبما ان قضية التمييز بينهما لا تزال موضع خلاف ، فان بالامكان استعمال مفهـوم   شكل الوعي » كرديف لـ   شكل المعرفة   أما بخصوص تحليل بنيـة الوعي على الصعيـد السوسيولوجي   فان بالامكان استعمال مفهومي   نوع الوعي » و « المجال الثقافي » في دراستها

ان أشكال المعرفـة هي اشكال لنشاط الانعكاس   يصف عمليـة الانعكاس من جانبها الذي يظهر كيف ، وبأية طريقـة ، واي سبيـل تم التعرف على الواقع. أما في المجالاتالثقافية فيتموضع الوعيالاجتماعي.. وهذه تمثل وحدة بين ما هو فكـري ومادي ، ذاتي وموضوعي   وهـي تسمح   ليس فقط بوصف الوعي   بل ايضا بوصف مجالات كاملة للحياة الاجتماعية (السياسة والاخلاق والفن   الخ)   هذا في حيـن نصف بمفهوم   نوع الوعي   تكوينات الوعي الاجتماعي بالمعنى الاصلي للكلمة وفي العادة تدرس أنواع الوعي بالارتباط مع أشكال المعرفة   لانها نتـاج لها ، كما تدرس بالارتباط مع المجالات الثقافية   لانها تتموضع فيها

ان   الوعي الاجتماعي   هو مفهـوم جنس ، يضم أكثـر الافكار والنظرات والتصورات والآراء   الخ تمايزا في محتواها   هذه العناصر المتفرقة ، المتمايزة بمحتوياتها ، ليست ، بالنظر الى جنسها ، سوىمفاهيم نوعية   ويمثل الوعي السياسي ، والحقوقي ، والخلقي   الخ ، أنواعا مختلفة من الوعي الاجتماعي ، تتمايز بصورة رئيسية ، وبالدرجة الاولى حسب محتوى الافكار والنظرات والتصورات المكونة لها ، وبالدور الـذي تلعبه في حياة المجتمع

٢ ـ العلاقات الاجتماعية وانـواع الوعي

ترتبط انواع الوعي الاجتماعي ، في الحيـــاة الواقعية ، بالعلاقات الاجتماعية ارتباطا مباشرا وتسمح بنية هذه العلاقات وخاصة عـلى صعيد البنية الفوقية ، بالوصول الى نتائج ايجابية حول الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي

حتى الآن ، لم تعالج الادبيات السوسيولوجية مسألة بنية العلاقات الاجتماعية بصورة تتناسب مع اهميتهـــا ، وان كان الاهتمام بهـا يزداد باضطراد ولقد حـددت المؤلفات التي وضعهـــا كلاسيكيو الماركسية ـ اللينينية الاسس الرئيسية التي تبرر التناول المادي ـ التاريخي لتحليـل نظام العلاقات الاجتماعية وتقسم العلاقات الاجتماعية في هذه المؤلفات الى نمطين علاقات البشر بالطبيعة ، وعلاقاتهم ببعضهم وتكمن فكرتها الرئيسية ، بخصوص بنية العلاقات الاجتماعية ، فيما يلي تنقسم العلاقات الاجتماعية الى علاقات مادية وايديولوجية وتشكل الثانيـة بنية فوقية فقط للاولى ، التي تتكون مستقلة عـن ارادة ووعي البشر بوصفها شكلا (نتيجة) لنشاط الانسان المنصبة على تدبير حياته » (١٦) وتمر العلاقات الايديولوجية بعكس العلاقات المادية التي تتكون مستقلة عن ارادة ووعي البشر ، قبل تكونها في هـــذا الوعي (١٧) هنا تكمـن الصفة المميزة لعلاقات البنية الفوقية حين يدرسها المرء من منظـــور نشوئهـــا

ثمة آراء متناقضة حول مفهوم العلاقات الايديولوجية فهي تعتبر من جهة ، جزءا من مجال الوعي (ما دامت علاقات ايديولوجية) ، وينكر من جهة اخرى ، وجودها الواقعي خارج الوعي ذلك يبدو مثـــلا عند عند تحديد احدى مقولاتالمادية التاريخية كمقولة البنية الفوقية للمجتمع، فلا تذكر العلاقات الايديولوجية بين عناصر البنية الفوقية (١٨) ويعـاد ايضا محتوى البنية الفوقية الى الافكار السياسية والاخلاقية وسواها والى المؤسسات الموافقة لها كما تحتسب من جانب آخر ، انواعمعينة للعلاقات الايديولوجية من مقـولة الوجود الاجتماعي وينطبق ذلك بشكل رئيسي على السياسة ، فيقال انها من مجالات الحياة العملية التي تملك تأثيرا مباشرا في الاخلاق والفلسفة وأشكال الوعي الاخرى ، ثـم تحتسب ، لهذا السبب ، كجزء من الوجود الاجتماعي (١٩) .

لم ينتشر المفهوم الذي يهـــول بالسياسة كأحد مجـــالات الوجود الاجتماعي ولا تزال منتشرة نسبيا وجهـــة النظر التي تدعو الى تذويب العلاقات الايديولوجية في الوعي الاجتماعي وهذا يدل على الصعوبـات التي تعترض فهم علاقات من هذا النوع

تتطلب مسألة العلاقات الايديولوجية طبيعتها وظاهرتها الواقعيـة في الحياة مناقشة خاصة تسمح بالاحاطة بها بصورة شاملة ولا تدعي الملاحظات التالية انها تقدم أي حل كامل لها

تمثل العلاقات الايديولوجية تعبيرا عن العلاقات المادية (٢٠) وهي علاقات واقعية تملك وجودا فعليا خـــارج الوعي ويبرهن عمل وسلوك البشر على واقعيتها فالعمل الفعلي في مجـــالات السياسة والاخـلاق وسواها من مجالات الحياه هو جانب موضوعي من العلاقات الايديولوجية. وكما ذكرنا فان العلاقات الايديولوجية تمر عند تكونها عبر الوعي البشري وتتحكم الافكار والنظرات بتشكل علاقات مطابقـــة لها بهذا المعنى يستطيع المرء التحدث عن الطبيعة الذهنية لهذه العلافات على الصعيـد المعرفي تواجه العلاقات الايديولوجية العـــلاقات المادية بل هي مثلهـا علاقات موضوعية لها وجود فعلي خارج وعي البشر وعلى سبيـل المثال **فان الافكار والنظرات السياسية هي أسباب دافعة لتكوّن العلاقات بيـن الطبقات ، التي تنصب على مسألة الدولة ولكـــن العلاقات السياسية المتكونة لا تستنفذ نفسها في الدوافع الباعثة لها ، بل هي تمثل صراعـا طبقيا فعليا . وفي المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة يعتبر صراع الطبقات حول السلطة ظاهرة موضوعية تماما بهذا المنظور لا تتميز العلاقـــات الايديولوجية ـ السياسية عن العلاقات المادية ـ الاقتصادية (٢١) .**

ان تحليل العلاقات الاجتماعية على صعيد الانعكاس فقط يؤدي حتما الى اعتبار العلاقات الايديولوجية (حتى عندما لا تذوب في الوعي ، بـل يعترف بها كعلاقات واقعية كلحظة ، كجانب أو كشكل لعلاقات أخرى ولكن حين تكون العلاقات الايديولوجية جانبا أو شكلا فقط لعلاقاتأخرى، وتكون هذه العلاقات الاخرى بدورها علاقات مادية فحسب ، فان كل تنوع الحياة الاجتماعية يتقلص الى علاقات مادية فقط ومن الصعب ان يكون مفهوما كهذا صحيح

ينظر غالبا الى العلاقات الايديولوجية على انها تابعة تماما للافكـار

والنظرات فيكتب دروسدوف وباتينين حول تبعية العلاقات الايديولوجية للوعـــي

« وتعبر تبعية العلاقات الايديولوجية للوعي عن نفسها اولا في انهـا لا تستطيع أن تتكون بصورة عفوية . انهـا تنشأ فقط عندما يعي البشر ، وتحت نفوذ الحاجات المادية ، ضرورة خلقهـــا . وثانيا يقيم البشر هذه العلاقات بالتطابق مع افكار محددة ، ويحدث ذلك بقدر ما هي نتيجـــة للتحقق الفعلي لهذه الافكار » (٢٧) .

ان الزعم بأن تكون العلاقات الايديولوجية يحدث عن وعي ، هو زعم تعسفي ، يستند الى الاطروحة القائلة ان العلاقات الايديولوجية تمر بوعي البشر عند تكونها ، مع ان ذلك ليس حتميا بالضرورة ، لان تكوّن العلاقات الايديولوجية يرتبط فعلا بالوعي ، ولكن هذه لا تنشأ من الوعي بل من العلاقات المادية **والعلاقات الايديولوجية ليست سوى نتاج وتعبير عن علاقـــات ماديـــة** ، شأنها في ذلك شأن الوعي بمجمله وتتكوّن علاقات البنية الفوقية في كل عصر جديد بصورة عفوية غالبا ولكن اعادة انتاجها تحدث (بعد أن تكون قد سبق وتكونت) بصورة واعية عند هذه النقطة تنشأ الحاجة الاجتماعية الى الافكار والآراء والنظريات نظرا لحاجـــة المجتمع الى تنظيم وتنسيق وضبط علاقاته وعلى سبيل المثال فقد نشأ صراع الطبقة العاملة ضد البرجوازية مع صعود الرأسمالية ، وشمل مجال السياسة أيضا ، وان كان قد حمل ، عند نشـــوئه ، طابعا عفويا ولا يستطيع المرء أن يقول ان العمال لم يهتـــدوا بالوعي عندما دخلوا حلبـــة الصراع السياسي ، فقد استندوا الى الوعي ، ولكنه كان وعيا تريدينونيا ، أي برجوازيا ، لم يعبر عن المصالح الاساسية لطبقتهم، ولم يتوجه الصراع بفضله الى هـــدف محدد بصورة واضحـــة ، كالاستيلاء على السلطـــة السياسية وتم تجاوز عفوية الصراع السياسي (العلاقات الايديولوجية) من خلال نقل الافكار الاشتراكية الى وعي الطبقة العاملة وكان توحيـــد الاشتراكية مع حركة العمال بدايـــة للنضال السياسي الواعي للطبقـــة العاملة وبالنتيجة لا يشترط التشكل الواعي لعلاقات ايديولوجية ببساطة وجود وعي يدخل البشر به علاقاتهم مع بعضهم ، بل يشترط وعيا يبرز من حالتهم الموضوعية في نظام العلاقات المادية ، ويعبر عن مصالحهـــم الاساسيـــة

ان الحياة الاجتماعية هي الفعالية المتعـــددة الجوانب للبشر ، وهي قبل كل شيء فعالية لانتاج السلع المادية (٢٢) . وفي سياق فعاليتهـــم

يدخل البشر في علاقات متنوعة مع بعضهم ومع الطبيعة ، تبرز بدورها ـ وبخاصة منها علاقات البنية الفوقية ـ الحاجة الى أفكار وآراء ، لا تتحدد العلاقات بواسطتها ، بل تبعثها فعالية البشر وعلاقاتهم الى الحياة ، لتصبح قادرة على العمل بصورة طبيعية. وتحقق الافكار والآراء التي تخدم الفعالية والعلاقات البشرية وظائف جد مختلفه : كالمعرفة ، وتمثيل المصالح ، ووظائف تربوية وسواها وتتحدد الصفة النوعية للافكار والآراء وبنيتها من خلال العلاقات الاجتماعية وبنيتها

ما هي البنية التي تملكها العلاقات الايديولوجية الاجتماعية وماذا ينجم عنها بالنسبة لانواع الوعي الاجتماعي ؟ ان علاقات البنية الفوقية (الايديولوجية) تنقسم الى مجموعتين

(١) علاقات بين البشر

(٢) علاقات البشر بظواهر الطبيعة والمجتمع .

في المجموعة الاولى توجد العلاقات المشتقة من العلاقات الاقتصادية العلاقات الاخلاقية والسياسية والحقوقية ويقابلها في الوعي الاجتماعي التصورات والنظرات الاخلاقية والسياسية والحقوقية وتكوّن المجموعة الثانية العلاقات الدينية والجمالية المنبثقة عن العلاقات المادية (بين البشر ومع الطبيعة) وتتطابق معها تصورات ونظرات دينية وجمالية (فنية)

ان تصور بنية الوعي التي تتضمن ترتيب الافكار والنظرات في علاقات بنية فوقية اجتماعية ، ليس كاملا بعد اذ تَخرج منه التكوينات الفكرية التي ترتبط ارتباطا مباشرا مع العلاقات الاجتماعية المادية ومع ان تنوع الوعي الاجتماعي يبرز في المحصلة النهائية من العلاقات المادية التي يرتبط بها، فان الروابط القائمة هنا ذات طبيعة **مركبة** ان تصريحات **انجلز** معروفة حوت البعد المتفاوت للسياسة والحقوق والفن الخ عن الاساس الاقتصادي المادي **وقد اعتبر انجلز الفلسفة والدين من الايديولوجيات الاكثر بعدا عن هذا الاساس الاقتصادي المادي** (٢٣) وعاد مرارا الى تأكيد ان روابط التكوينات الفكرية مع الوجود الاجتماعي مختلفة في طبيعتها وبعدها عنه وشرح في رسالة الى كونراد شميدت في ٢٧ تشرين الاول ١٨٩٠ بخصوص تأثير الاقتصاد على الفلسفة

« ان الاقتصاد لا يخلق هنا جديدا ، بل يحدد نوع تغير واستمرار تشكل مادة الافكار التي يجدها ، وهذا يحدث غالبا بصورة غير مباشرة ،

عبر التأملات السياسية والحقوقية والاخلاقية التي تمارس اكبر قدر ممكن من التأثير على الفلسفة » (٢٤) .

ان سائر التكوينات الفكرية ، البعيدة بهذا القدر أو ذاك عن الاساس الاقتصادي المادي ، ترتبط مع علاقات بنية فوقية محددة ، وتمثل جانبها الذاتي ، بيد انه توجد أيضا تكوينات فكرية لا تعكس فقط العلاقات المادية، بل ترتبط أيضا معها بصورة مباشرة والمثال على ذلك هي النظرات الاقتصادية التي تؤثر على علاقات الانتاج

ويسمح مفهوم بنية الوعي الاجتماعي ، كنتيجة لدراسة نظام العلاقات الاجتماعية ، بتحديد مكان مفاهيم الطبيعة في بنية الوعي أيضا ان علاقات البشر مع الطبيعة متعددة الوجوه ولم تعط أنواعها حتى الآن طابعا منظما ، وان كانت هناك محاولات لذلك

يأتي العمل في المرتبة الاولى بين علاقات البشر مع الطبيعة وهو الذي يعيد تشكيل أشياءها وظواهرها لارضاء الحاجات المادية للبشر وتتكون الى جانب العلاقة النفعية العملية مع الطبيعة ، وعلى اساسها علاقات من نوع آخر تنصب على ارضاء الحاجات الفكرية للبشر وكمثال على ذلك تصلح العلاقات الجمالية

وان كل نوع من العلاقات مع الطبيعة يستدعي تكوينات فكرية محددة. هكذا أنتجت العلاقة العملية للبشر مع الطبيعة **علوم الطبيعة** التي كانت تتألف في العصور القديمة من ملاحظات متفرقة حول ظواهر العالم ومعطيات أولية حول تجارب تطبيقية ، وغدت في عصرنا الحاضر نظاما متشعبا من العلوم الطبيعية النظرية والتطبيقية

اننا سنلقي نظرة على الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي بحسب بنية العلاقات الاجتماعية ونحن لا ننوي تقديم دراسة مفصلة للوعي الاخلاقي والجمالي والفلسفي والديني وسواها من أنواع الوعي نظرا لوجود دراسات مستفيضة حولها فضلا عن ان الوصف التفصيلي لانواع الوعي ليس مهمتنا ، فنحن نهتم فقط بتعليل الاهمية التي يملكها المبدأ المنهجي القائل **ان دراسة بنية الوعي الاجتماعي ليست ممكنة الا بتبعيته لموضوع الانعكاس ، ولبنية العمل البشري وعلاقاته الاجتماعية .**

الوعي الاخلاقي

« ان البشر يستمدون نظراتهم الخلقيــــة في السياق الاخير من العلاقات الفعلية التي تكمن فيهـــا حالتهم الطبقية ـ من العلاقات الاقتصادية التي فيها ينتجـون ويتبادلون »

انجلز

منذ نشوء المجتمع البشري تعبر العلاقات الاقتصادية عن نفسها قبل كل شيء في روابط أخلاقية تعين بدورها الصفة النوعية للوعي الاخلاقي. ماذا نفهم تحت مصطلح علاقات أخلاقية ، كيف تطورت ، وما هو شكـل وجودها الفعلي ؟

تتجلى لدى تحليل العلاقات الاجتماعية صعــوبة الاحاطة بعلاقات البنية الفوقية بوصفها نمطا خاصا للعلاقات الاجتماعية وغالبا ما تخلو الادبيات التي تدرس الخُلق كشكل للوعي الاجتماعي من أية مقولة حـول العلاقات الاخلاقية وفي بعض الحالاتتحبس هذه فيمفهوم «السلوكية» وتحسب على مجال الوعي ، بدل أن تحسب من الروابط الواقعيـــة بين البشر وعلى كل حال فان قضية العلاقات الاخلاقيــة تطرح نفسها فــي الآونة الاخيرة بالحاح متـــزايد وهي وان كانت لا تطرح دومــا بصورة مباشرة ، الا انه من الواضح ان الباحثين يجهدون لكي يميزوا ، في مجال السلوك ، بين العلاقات والنظرات هكذا يميز ايفانوف وريباكوفا بيــن مفهومي السلوك و الاخلاق ويكمن الفارق بينهما في ان المفهوم الاول يندرج على الروابط الاخلاقية ، بينما ينــدرج الثاني على الوعـي الخلقي (٢٥) اننا لن نقف عند مسألة الاستخدام الصحيح للمفهومين في معانيهما المختلفة ، فهذه مسألة خاصة لعلم نظرية الاخلاق التي يجب على اخصائييها أن يدلوا برأيهم حولها يهمنـــا هنا فقط التمييز الواضــح للروابط الاخلاقية الواقعية عن الوعي الخلقي

يكتب ايفانوف وريباكوفا ان السلوكية هي ممارسة السلوك، ممارسة الروابط بين البشر اما الاخلاق فهي المتطلبات الاخلاقية المصاغة

في مبادىء ومعايير لهذا السلوك ، في حين ان نظرية الاخلاق هي معرفة وشرح وتعليل المعايير والمبادىء الاخلاقية (٢٦)

لا يقدم الكاتبان أي وصف كامل للروابط الاخلاقية غير ان تأكيدهم على ان « السلوك المعين تاريخيا يسبق وعيه كشيء أخلاقي (٢٧) هو من الاهمية بمكان ، لانه يفسر الترابط بين الروابط الاخلاقية والوعي الخلقي المطابق لها ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نقر سائر آرائهما فهما مثلا لا يعتبران العلاقات الاخلاقية جزءا من البنية الفوقية ، بل من الوجود الاجتماعي والحال ان العلاقات الاخلاقية تفقد لديهما طبيعتها كجزء من البنية الفوقية بسبب التفسير المطوط لمفهوم الوجود الاجتماعي اكثر مما تفقده بسبب عدم فهم طبيعة هذا النوع من العلاقات ومع ذلك فانهما لا يميزان بما يكفي من الوضوح العلاقات الاخلاقية داخل مجمل العلاقات الاجتماعية وتمثل العلاقات الاخلاقية بالنسبة لهما أحد وجوه النشاط البشري وسواه من الروابط الاجتماعية كالعلاقات الانتاجية والسياسية والحقوقية الخ اكثر مما تمثل نوعا قائما بذاته من هذه العلاقات

لا ترى العالمة التشيكية **بوبيلوفا** في الروابط الاخلاقية وجها لعلاقات اجتماعية أخرى فقط ، بل مكونا رئيسيا العلاقات الاجتماعية (٢٨) وقد كان عملها أول محاولة لتعريف العلاقات الخلقية تقول **بوبيلوفا**

« **تتضمن العلاقات الخلقية**

١) عملا وسلوكا وعادات خلقية لاشخاص منفردين أو لجماعات ولمؤسسات وانظمة ، واجراءات اجتماعية تحقق فعليا العلاقات الخلقية لمجتمع ما هذا هو الجانب الموضوعي للعلاقات الخلقية

٢) وعي ومشاعر وقناعات وطموحات وطباع خلقية وهذا هو الجانب الذاتي ، النفسي للعلاقات الخلقية .

٣) أهداف وأفكار وسلالم قيم ومعايير أخلاقية وهذا هو الجانب الذهني ، النظري للعلاقات الخلقية » (٢٩) .

في هذا التعريف يستحق الحديث عن الجانب الموضوعي للعلاقات الخلقية اهتمامنا فهو يسمح لنا بأن ننظر اليها أولا كنوع قائم بذاته من الروابط التي تتكون في سياق التطور التاريخي وتكتسب خلاله صفاتها النوعية المميزة تماما كما تنشأ وتتكون في هذا التطور علاقات اقتصادية وأسرية وحقوقية وسواها (٣٠) هذا النوع من

العلاقات يملك ثانيا جانبه الفكري (النفسي والنظري) الذي يمكننا من معرفة طبيعته بوصفه جزءا من البنية الفوقية عندما يدخل البشر في روابط من هذا النوع فانهم ينساقون وراء مشاعر وتصورات وافكار وقناعات معينة ، تتموضع في تصرفاتهم وتندمج بذلك في علاقاتهم الاخلاقيــة

ربما كان من غير الصحيح اضفاء مفهوم واسع كهذا على الجانب الموضوعي من العلاقات الاخلاقية ومن الطبيعي ان العلاقات من هـذا النوع ترتبط بـ المؤسسات و الاجراءات ، غير ان هذه تمثل شروطا ووسائط للتطور الذاتي للعلاقات أكثر مما تمثل العلاقات نفسها ويبدو لنا تقسيم الجانب الفكري للعلاقات الى جانب نفسي وآخر ذهني مصطنعا بعض الشيء وينقصه المقياس الموضوعي

يتزايد الاعتراف بالوجود الفعلي للعلاقات الاخلاقية في الادبيات التي تدرس نظرية الاخلاق وان كانت استقلاليتها لا تزال موضع انكار ان العلاقات الاخلاقية تبدو فقط كجانب للروابط الاجتماعية بين البشر وليس كمجال خاص لحياتهم

من المسلّم به ان الروابط الاخلاقية تتغلغل في سائر مجالات الحياة الاجتماعية وهي تنشأ في كل مكان يقيم فيه البشر روابط فيما بينهم فلماذا تنكر عليها استقلاليتها وتعتبر وجها لروابط اخرى تملك استقلالية خاصة بها ؟ بالمعنى الدقيق لا يمثل أي نوع من روابط البنية الفوقية مجالا خاصا في حياة البشر ولا يستطيع المرء أن يرى مثل هذه المجالات الا في أنواع النشاط المختلفة للبشر التي تلازمها بدورها روابط ذات أنواع مختلفة بهذا المعنى لا تملك العلاقات الاخلاقية بقدر ما ترتبط بسلوك البشر استقلالية أقل أو اكثر مما تملكه علاقات البنية الفوقية الاخرى

تتشكل العلاقات الاخلاقية شأنها في ذلك شأن الانواع الاخرى من العلاقات الاجتماعية تاريخيا فقد استدعت روابط البشر في عملية انتاج السلع المادية التي تمثل النوع الرئيسي لنشاط البشر في كل مجتمع الضرورة العملية لتنسيق عمل الفرد مع عمل الجماعات الاولى في شروط المجتمع البدائي وتتابع المؤلفات العلمية التي تدرس نشوء المجتمع البشري ووعيه كيف أدت الحاجات الانتاجية للفخذ أولا ثم للعشيرة فيما بعد الى تكوّن الروابط الاخلاقية والمعايير السلوكية .

ان علاقات الانتاج التي تشكلت خلال العمل المشترك للبشر في ظروف نظام المجتمع البدائي قد عبرت عن نفسها في علاقات أخلاقية أي في مراعاة مصالح الجماعة التي تمثلت في الحيلولة دون ارضاء الحاجات الفردية الا عبر ارضاء حاجات الجماعة ان مراعاة المصالح العامة قد غدا معيارا سلوكيا وترسخ على الزمن في عادات وتقاليد وأعراف

وتعتبر معايير السلوك البشري جزءا من العلاقات الاخلاقية. وتعامل المعايير في العادة كأوامر ونواه يضعها المجتمع وتنسحب على مجال الوعي وهذا صحيح بمعنى ان المعايير تعبر عن نفسها فعلا ، وبصورة واعية ، في مقولات مثل الواجب والخير والعدالة الخ انها توجد في روابط ضمن الواقع ، بيد ان هذا المعنى الاصلي قد ضاع ، وكان هذا هو السبب وراء اعتبار الاخلاق مجرد مجال للوعي فقط ومن الجلي انه يجب اعادة احياء المعنى الاصلي الذي يجعلنا نرى في المعايير العلاقات الواقعية

وتمثل المعايير بالنسبة للفرد الذي يدخل في علاقة ما مع الآخرين أوامر ونواه يجب عليه أن يوافق ويطابق سلوكه معها في حين تمثل المعايير بالنسبة للمجتمع علاقات يكمن جوهرها في مراعاة مصالحه وتعبر مقولات نظرية الاخلاق عن النوعية المميزة لهذه العلاقات ، وتعني أهم هذه المقولات ، وهي مقولة الخير» فالمرء ملزم من خلال نشاطه بدعم الوصول الى الصلاح العام وبخلق ما هو خير

في سياق حياته ، يدخل كل انسان في مختلف الفئات والمجموعات البشرية ، ويجد نفسه في عملية تواصل مستمر مع أمثاله من البشر ويمس سلوك وتصرف الانسان بالضرورة ، مصالح الفئات أو المجموعات التي هو عضو فيها وهكذا يقيم البشر وعلى أساس ماهيتهم الاجتماعية ، روابط أخلاقية

ولا تعني شمولية الروابط الاخلاقية التي تتشكل ابان عملية تواصل البشر ، ان هذه الروابط لا تمثل سوى وجه للعلاقات الاجتماعية، أي انها تفسير للعلاقات الانتاجية والسياسية وسواها من العلاقات من منظور مقولات نظرية الاخلاق ان المرء ستطيع قطعا تفسير علاقات السيطرة والاضطهاد كعلاقات لا أخلاقية ولكن جوهر القضية يكمن في

العلاقات يملك ثانيا جانبه الفكري (النفسي والنظري) الذي يمكننا من معرفة طبيعته بوصفه جزءا من البنية الفوقية عندما يدخل البشر في روابط من هذا النوع فانهم ينساقون وراء مشاعر وتصورات وافكار وقناعات معينة ، تتموضع في تصرفاتهم وتندمج بذلك في علاقاتهم الاخلاقية

ربما كان من غير الصحيح اضفاء مفهوم واسع كهذا على الجانب الموضوعي من العلاقات الاخلاقية ومن الطبيعي ان العلاقات من هذا النوع ترتبط بـ المؤسسات و الاجراءات ، غير ان هذه تمثل شروطا ووسائط للتطور الذاتي للعلاقات أكثر مما تمثل العلاقات نفسها ويبدو لنا تقسيم الجانب الفكري للعلاقات الى جانب نفسي وآخر ذهني مصطنعا بعض الشيء وينقصه المقياس الموضوعي

يتزايد الاعتراف بالوجود الفعلي للعلاقات الاخلاقية في الادبياتالتي تدرس نظرية الاخلاق وان كانت استقلاليتها لا تزال موضع انكار ان العلاقات الاخلاقية تبدو فقط كجانب للروابط الاجتماعية بين البشر وليس كمجال خاص لحياتهم

من المسلّم به ان الروابط الاخلاقية تتغلغل في سائر مجالات الحياة الاجتماعية وهي تنشأ في كل مكان يقيم فيه البشر روابط فيما بينهم فلماذا تنكر عليها استقلاليتها وتعتبر وجها لروابط اخرى تملك استقلالية خاصة بها ؟ بالمعنى الدقيق لا يمثل أي نوع من روابط البنية الفوقية مجالا خاصا في حياة البشر ولا يستطيع المرء أن يرى مثل هذه المجالات الا في أنواع النشاط المختلفة للبشر التي تلازمها بدورها روابط ذات أنواع مختلفة بهذا المعنى لا تملك العلاقات الاخلاقية بقدر ما ترتبط بسلوك البشر استقلالية أقل أو اكثر مما تملكه علاقات البنية الفوقية الاخرى

تتشكل العلاقات الاخلاقية شأنها في ذلك شأن الانواع الاخرى من العلاقات الاجتماعية تاريخيا فقد استدعت روابط البشر في عملية انتاج السلع المادية التي تمثل النوع الرئيسي لنشاط البشر في كل مجتمع الضرورة العملية لتنسيق عمل الفرد مع عمل الجماعات الاولى في شروط المجتمع البدائي وتتابع المؤلفات العلمية التي تدرس نشوء المجتمع البشري ووعيه كيف أدت الحاجاتالانتاجية للفخذ أولا ثم للعشيرة فيما بعد الى تكوّن الروابط الاخلاقية والمعايير السلوكية .

ان علاقات الانتاج التي تشكلت خلال العمل المشترك للبشر في ظروف نظام المجتمع البدائي قد عبرت عن نفسها في علاقات أخلاقية أي في مراعاة مصالح الجماعة التي تمثلت في الحيلولة دون ارضاء الحاجات الفردية الا عبر ارضاء حاجات الجماعة ان مراعاة المصالح العامة قد غدا معيارا سلوكيا وترسخ على الزمن في عادات وتقاليد واعراف

وتعتبر معايير السلوك البشري جزءا من العلاقات الاخلاقية. وتعامل المعايير في العادة كأوامر ونواه يضعها المجتمع وتنسحب على مجال الوعي وهذا صحيح بمعنى ان المعايير تعبر عن نفسها فعلا ، وبصورة واعية ، في مقولات مثل الواجب والخير والعدالة الخ انها توجد في روابط ضمن الواقع ، بيد ان هذا المعنى الاصلي قد ضاع ، وكان هذا هو السبب وراء اعتبار الاخلاق مجرد مجال للوعي فقط ومن الجلي انه يجب اعادة احياء المعنى الاصلي الذي يجعلنا نرى في المعايير العلاقات الواقعية

وتمثل المعايير بالنسبة للفرد الذي يدخل في علاقة ما مع الآخرين أوامر ونواه يجب عليه أن يوافق ويطابق سلوكه معها في حين تمثل المعايير بالنسبة للمجتمع علاقات يكمن جوهرها في مراعاة مصالحه وتعبر مقولات نظرية الاخلاق عن النوعية المميزة لهذه العلاقات ، وتعني أهم هذه المقولات ، وهي مقولة الخير» فالمرء ملزم من خلال نشاطه بدعم الوصول الى الصلاح العام وبخلق ما هو خير

في سياق حياته ، يدخل كل انسان في مختلف الفئات والمجموعات البشرية ، ويجد نفسه في عملية تواصل مستمر مع أمثاله من البشر ويمس سلوك وتصرف الانسان بالضرورة ، مصالح الفئات أو المجموعات التي هو عضو فيها وهكذا يقيم البشر وعلى أساس ماهيتهم الاجتماعية ، روابط أخلاقية

ولا تعني شمولية الروابط الاخلاقية التي تتشكل ابان عملية تواصل البشر ، ان هذه الروابط لا تمثل سوى وجه للعلاقات الاجتماعية، أي انها تفسير للعلاقات الانتاجية والسياسية وسواها من العلاقات من منظور مقولات نظرية الاخلاق ان المرء ستطيع قطعا تفسير علاقات السيطرة والاضطهاد كعلاقات لا أخلاقية ولكن جوهر القضية يكمن في

ان للروابط الاخلاقية صفة نوعية مميزة نتمكن بواسطتها من تحليل (الروابط) الى جانب سواها من علاقات البنية الفوقية ان علاقات الانتاج للمجتمع البرجوازي بوصفها علاقات سيطرة واضطهاد تنتج مصفوفة كاملة من علاقات البنية الفوقية بما في ذلك العلاقات الاخلاقية تبرز وتتحقق من خلالها ماهية علاقات الانتاج وتشكل الروابط الاخلاقية داخل الطبقات وفيما بينها مجالا موحدا للحياة الاجتماعية

ويجب على المرء مراعاة خصائص تشكل روابط البنية الفوقية لدى دراسة مسألة العلاقات الاخلاقية ان سائر علاقات البنية الفوقية تمر أبان تشكلها عبر وعي البشر وهي تتشكل بالتوافق مع تصورات ورؤى معينة تهيمن في المجتمع مبدئيا تتشكل العلاقات الاخلاقية أيضا وفق هذا النسق

بيد انه سيكون من الخطأ اضفاء صفة اطلاقية على خاصية تشكل روابط البنية الفوقية هذه في المجتمع البدائي ومراحل تطور التشكيلات الاجتماعية الاخرى نشأت روابط أخلاقية جديدة بالضرورة من علاقات اقتصادية معينة غير ان الامر تطلب دوما انقضاء وقت معين قبل أن يعي البشر معايير سلوكهم ويقننوها في أفكار ومبادىء وضوابط حين ينشأ الوعي الخلقي فان العلاقات الاخلاقية تتشكل حقا بالتطابق مع تصورات البشر حول الخير والشر الشرف والضمير والعدالة الخ فالوعي الخلقي هو جانب ضروري للروابط الاخلاقية

ما الذي يعين الآن الصفة النوعية المميزة للوعي الخلقي ؟ اننا نجد الاجابة على هذا السؤال لدى انجلز الذي يعين الصفة النوعية للوعي الخلقي هو

« ان البشر ، عن وعي أو غير وعي ، يستمدون نظراتهم الخلقية ، في السياق الاخير ، من العلاقات الفعلية التي تكمن فيها حالتهم الطبقية ـ من العلاقات الاقتصادية التي فيها ينتجون ويتبادلون » (٣١) .

وقد توصل انجلز الى هذا الاستنتاج على أساس تحليل الحياة الاخلاقية للمجتمع البرجوازي حيث تملك كل من الطبقات الثلاث ـ الارستقراطية الاقطاعية والبرجوازية والبروليتاريا ـ أخلاقها الخاصة. في المجتمع البرجوازي تهيمن العلاقات الرأسمالية ، وتتبقى العلاقات ما قبل الرأسمالية كمخلفات للتشكيلات الاجتماعية المندثرة . ولكن بذور

العلاقات القادمة تنضج في المجتمع البرجوازي وتتشكل فيه شروط الانتقال نحو الاشتراكية التي تناضل البروليتاريا بالتحالف مع الكادحين ، من أجل تحقيقها ان التزامن القائم في مجتمع ما بين الماضي والحاضر والمستقبل يقدم لنا بحسب كلمات انجلز ثلاث مجموعات كبيرة لنظريات أخلاقية قائمة في نفس الوقت والى جانب بعضها (٣٢)

تحدد العلاقات الاقتصادية في السياق النهائي سائر تصورات ونظرات المجتمع وفيها يكمن المنبع الاكثر عمقا لمجمل تنوع الحياة الفكرية للبشر ويشير انجلز الى ذلك حين يبرر التناول المادي لتحليل الوعي الخلقي ومع ذلك فان الاشارة الى العلاقات الاقتصادية لا تفسر بعد الصفة النوعية المميزة لهذه أو تلك من التصورات والنظرات المنتشره في مجتمع ما بل يجب على المرء أن يراعي العلاقات أو الحلقات الوسيطة الموجودة فيما بين الاقتصاد ووعي البشر

ان العلاقات الاقتصادية تعين حالة البشر والطبقات وسواها في المجتمع وحاجاتهم الاجتماعية التي تحمل طابعا موضوعيا في كل مجتمع . وتعبر عن نفسها عبر المصالح وهذه تمثل ظواهر في حياة البشر تسمح بفهم سوء علاقات البنية الفوقية والصفة النوعية المميزة لانواع الوعي المختلفة ان ارضاء الحاجات الناشئة الذي يحدث بواسطة نشاط البشر هو الذي ينتج علاقات البنية الفوقية مختلفة النوع وفي نفس الوقت يشترط تحقق المصالح وعيها الذي يتحول الى باعث ذهني محرض لعمل البشر ويمثل جانبا من العلاقات الاجتماعية

وتتمايز المصالح بحسب المتطلبات الاجتماعية التي تكون أساسها وتتمايز أيضا بحسب حاملها كمصالح فردية (شخصية أو جماعية (عامة) أو اجتماعية وتتعين الصفة النوعية المميزة للعلاقات الاخلاقية والوعي الخلقي عبر خصائص المصالح التي تتمايز عن بعضها بحسب حملتها

ان الانسان هو كماهية اجتماعية، نتاج للتطور التاريخي وماهيته هي جماع الروابط الاجتماعية ولكنه يوجد كفرد له مصالحه الخاصة التي لا تتطابق دوما مع مصالح الجماعة التي ينتمي اليها ان تناقضات كثيرة تنشأ بين مصالح الفرد والجماعة وكما أكد **ماركس** و **انجلز** ، فانه مع تقسيم العمل يولد في نفس الوقت التناقض بين مصالح الفرد

الواحد ، أو العائلة الواحدة ، والمصلحة العامة لسائر الاعضاء الذين يملكون علاقات مع بعضهم بعضا (٣٣) وقد أنتجت تناقضية الوجود الاجتماعي للمجتمع ولاعضائه الحاجة الى ربط مصـــالح المجتمع والفرد (الفـرد والجماعات المشخصة كالعائلة والفخذ والقبيلة والطبقة والامـة الخ الذي ينتمي اليه بكلمات أخرى لقد نشأت الحاجة الى **أخلاق** مهمتها تنظيم الروابط بين المصالح الفردية والاجتماعية

وتشمل الاخلاق كظاهره الروابط الاخلاقية قبـل كل شيء ففيها تترابط المصالح الشخصية والعامة وهذا الترابط يحفظ مصالح المجتمع والفرد ، وان كانت مصالح المجتمع تملك هنا الافضلية بوصفه الجانب الاكثر فعالية في هذه الرابطة وهذا يتضح من ان المجتمع يخلق منظومة متماسكة من الضوابط والوصايا الاخـــلاقية التي تحكم سـلوك الافراد ويملك الفرد أيضا مصلحة في وحدة مصلحته مع مصلحة المجتمع، لانه لا سبيل الى ارضاء المصالح الشخصية الا بتأمين المصـــالح العامة ويتحدد اهتمام الفرد والمجتمع بتطابق مصالحهما من خـــلال عدم توافق هذه المصالح فلو تطابقت مصالح الفرد والمجتمع تمام التطابق لما كانت ثمة حاجة لربطها ببعضها ولما كـــان الروابط الاخلاقية قد تكوّنت بدورهـــا

وتتضمن الاخلاق الى جانب الروابط الوعي أيضا وخصوصية هذا الوعي المميزة تكمن في انه يمثل التعبير الذهني عـــن ضرورة ربط المصالح الشخصية والجماعية من جانبيهـــا الفردي والاجتماعي وتعبر النوعية المميزة للوعي الخلقي عن نفسها في سلسلة مـــن الخصائص التي تسمح بتمييزه عن سواه من أنواع الوعي الاجتماعي وتشكل المحتـوى الرئيسي للوعي الخلقي تلك التصورات والنظرات حول السلوك المطـلوب والمستحسن ، والمبادىء والنواظم التي تحكم مثل هذا السلوك وهـذا المحتوى هو تعبير عن المتطلبـــات الموضوعية لربط المصالح الشخصيـــة والجماعيـــة

تعبر سائر ظواهر الوعي الخلقي عن روابط مع أفعال البشر ومع وقائع وأحداث الحياة ويؤكد شكل تقييم الاحكام الاخلاقية الخاصيـــة المذكورة لمحتوى الوعي الخلقي وبما ان هذا الوعي يفصح عن رابطـة مع أنماط السلوك ، فانه يوجه الفرد نحو أفضل نماذج هـذا السلوك . ان

الوعي الخلقي ينصب على المستقبل ويوجه اليه وهـذه بدورها واحدة من خصائص هذا النوع من الوعي

لا تستنفذ الخصائص المذكورة بالطبع الصفات النوعية المميزة للوعي الخلقي وان كانت تسمح الـى حد ما بتمييزه عـن سواه ليس فقط بحسب طريقة الانعكاس ونمطه بل أيضا بحسب محتواه

لا نريد هنا مناقشة التعاريف الشائعـة للاخلاق كشكل للوعـي الاجتماعي ، والتي تكمن صفاتها المميزة في فهمها للحياة الاجتماعية عبـر مقولات الخير والشر العدالة والواجب الشرف والضمير وتتركز على معايير السلوك المستندة الى الرأي الاجتماعي فمثل هـذه التعاريف معروفة في الادبيات التي تدرس الوعي الخلقي وعلى كل حال فأن هذه التعيينـات للاخلاق كشكل للوعي الاجتماعي تتصف غالبا بعدم دقتها بقدر ما تضيف الى النظرات والتصورات الروابط الاخلاقية الواقعيـة بوصفها مجالا للوعي الخلقي

من المهم لدى تحليل محتوى الوعي الخلقي مراعاة خصائص انعكاس الحياة الاجتماعية ومن المعلوم ان هذا المحتوى قد تغير خلال التطـور الاجتماعي التاريخي وقيمت نفس الروابط بين البشر تقييمـا متفاوتا من مرحلة تاريخية لاخرى والسبب في ذلك يعود الى ان الوعي الخلقي ليس سوى شكل ذي توسط اجتماعي لانعكاس ظواهر الواقع ويتحـدد محتـوى الانعكاس بموضوعه (الروابط المتبادلـة بين مصالح البشر وبالشروط الاجتماعية المشخصة التي يتم في ظلها

لقد لعب الانقسام الطبقي للمجتمع دورا كبيرا بشكل خاص فـي تحديد محتوى الوعي الخلقي وتجلى تأثيره في تجريد المبادىء والوصايا الاخلاقية من قيمها ويفسر ذلك بضيق مجال الاخلاق ، مع زيادة التحكم بالمصالح الطبقية بواسطة أدوات السياسة والقانون يضاف الى ذلك ان أخلاق الطبقات المستغِلة ، التي تحاول فرض نظراتها على المجتمع بأسره تتسم بالنفاق اذ تصاغ على الصعيد النظري وتعمم مبادىء أخلاقيـة معينة ، وتتقلب وتمارس في الواقع ممارسات ومبادىء أخرى ويرتبط فقدان المعايير الاخلاقية لقيمها بواقع ان المستـوى الخلقي المطلوب يتم الحفاظ عليه بوسائط الاكراه في النظرية يتم تقريب الاخلاق من القانون، وفي الممارسة تستخدم سلطة الراي الاجتماعي بصـورة مفضلة ، لادانة السلوك غير الاخلاقي .

ومن اجل تعيين صحيح لمحتوى الوعي الخلقي يجب ايضا مراعاة ان هذا النوع من الوعي هو شكل لانعكاس ذي توسط اجتماعي وفي نفس الوقت لا يمكن تفسير خصائص الاخــلاق دون الانطلاق مــن خصائص محتواها حين لا نراعي الصفة النوعية لمحتوى الوعي الخلقي ، فانــه لن يكون بوسعنا تبرير اتخاذ الوعي الاخلاقي شكل أوامر ونواه ذات طبيعــة ملزمــــة

ان محتوى الوعي الخلقي بالــع التنوع ففيــه مشــاعر أخلاقية (كالوطنية وروح المواطنة وسواها ونظرات حــول السلوك الخلقي وغير الخلقي ، مبادىء ووصايا السلوك قيم أخلاقيه أهداف ومثل وغيرها من العناصر في الادبيات التي تنصب على نظرية الاخلاق يعالج محتوى الوعي الخلقي بصورة تفصيلية وافية الذي يهمنا هنــا هو بحث مسألة ما اذا كانت نظرية الاخلاق نفسها تعتبر جزءا من الوعي الخلقي

اننا نطرح هذا السؤال لان نظرية الاخلاق كثيرا ما تسمــى مــن الوعي الخلقي. من الطبيعي ان نظرية الاخلاق تتمركز على موضوع الروابط الواقعية بين البشر وعلى التصورات والنظرات الاخلاقية بهــذا المعنى ستطيع المرء اعتبارها وعيا خلقيا ذاتيا ولكنه لن يكون صحيحا اخراجها من الوعي الخلقي لان الوعي الذاتي هو شكل تعبير للوعي لذا يشتمل في رأينا ، مفهوم الوعي الخلقي على النظريات الاخلاقية أيضا التي تعلل ضرورة السلوك الحسن وتكشف محتوى مقولات نظرية الاخلاق وتصوغ أهدافا ومثلا أخلاقية الخ

لقد اتضح من تحليلنا الموجز للاخلاق ان تشكل الوعي الخلقي كنوع مميز لبنية الوعي الاجتماعي لا يغدو ممكنا. الا عندما توجد روابط أخلاقية عملية بين البشر يبرز الوعي الخلقي كجــانب لها لذا تملك الروابط الاخلاقية جانبا موضوعيا (الافعال العملية للبشر سلوكهم وجانبــا ذاتيا (الوعي الخلقي الذي يؤثر بوصفه محصلة للسلوك)

الوعي السياسي :

« السياسة اكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد » .

لينين

مع انقسام المجتمع الى طبقات نشأت السياسة كمجال خاص للحياة الاجتماعية والسياسة هي مجال العلاقات المتبادلة بين الطبقات وهي تابعة مباشرة للاقتصاد وحسب تعريف لينين المشهور تعتبر السياسة « **اكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد** » (٣٤) وفي السياسة تدور الامور قبل كل شيء حول مسائل الوضـــع الاقتصادي للطبقات ، وحول تأمين مصالحها الرئيسية والدفاع عنها أما النقطة المركزية في هذا المجال من الحياة الاجتماعية ، التي تمنحها صفتها النوعية وتجعلهـــا اكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد فهي الدولة ان الطبقات السائـدة التي تتصرف بوسائل الانتاج لا تلجأ لحماية مصالحها الى الاكراه الاقتصادي بل الـى الاكراه غير الاقتصادي ومن أجل ذلك تحتاج الى سلطة الدولة. وتناضل الطبقات المضطهدة الطامحة لتحررها الاقتصادي مـــن جانبها في سبيل الحريات والحقوق الديمقراطية ويشمل نضالها حتما حياة الدولة ، اذ لا مجال لارضاء مصالحها الرئيسية الا باقامة ديكتاتوريتها الخاصة

وتنصب العلاقات المتبادلة للطبقات بهـــذا الشكل أو ذاك على مسألة الدولة وبنائها وقيادتهـــا ، ومسائل الاشتراك في الحفاظ عـلى سلطتها القائمة أو احلال نظام دولة أخرى محلها وهذه العلاقات تظهر كعلاقات سياسية ومجالها واسع جدا يشمل من العلاقات بين الطبقات في دولة معينة ، الى العلاقات بين الدول والامم

لا تتقلص العلاقات السياسية الى علاقاتاقتصادية ، ويمثلالاقتصاد الاساس الموضوعي فقط للعلاقات السياسية ، وسبب نشوئهـا ، وشرط وجودها الفعلي وتحدد الحالة الاقتصادية لطبقة ما مصالحها الموضوعية. فتبدأ الطبقة بوعي مصالحها وتخوض بالتطابق مع وعيها هذا نضالهـا الفعلي لتحقيق هذه المصالح وهذا لا يعني طبعا ان بوسع طبقـة ما أن

تحدد لنفسها الاهداف التي تحلو لها كتب **كارل ماركس** لقد أخفقت «الفكرة » دوما بقدر ما كانت مختلفـــة عن «المصلحة» (٣٥) ومحك الاختبار لصحة وواقعية الافكار السياسية هو الصراع الطبقي الفعلي الذي يخاض وفقها هنا تبدأ العلاقات الاقتصادية فعلها ، فاما أن تضع حدودا أمام تحقيق الافكار ضمن الشروط المادية القائمة ، أو أن تفتح لها الطريق.

تكمن جذور العلاقات السياسية في الاقتصاد الاجتماعي وتتشكل هذه وفق آراء محددة للبشر تكوّن بدورهـــا وعيا سياسيـــا محددا وسلوك طبقة ما حيال غيرها من الطبقات يتشكل بصورة واعية وبقدر ما ينتشر الصراع الطبقي وخاصة فـــي زمن الثورات الاجتماعية ، بقدر ما تنمو الحاجة لدى الطبقات المتصارعة الى الوعي السياسي

ما هي الصفات النوعية المميزة للوعي السياسي ؟! انهم يرون هـــذه الصفات عادة في ان الوعي يعكس الاقتصاد بصورة مباشرة ويعكس ايضا المصالح الرئيسية للطبقات وتعبر الافـــكار السياسية عن نفسها في النظريات السياسية المختلفة وبرامج الاحزاب السياسية ، والبيانات ، وسواها من الوثائق ويلعب الوعي السياسي أكثر الادوار نشاطا فـــي المجتمع لانه يمثل صلة الوصل بين الاقتصـــــاد ومختلف أنواع الوعي الاجتماعي ويمتاز الوعي السياسي بكونه موجها ومنصبّا على هدف ما أي انه يعكس الوجود الاجتماعي في أهداف ومهمات تتقيد بها الطبقـــات ابان نضالها لتحقيق مصالحها غير ان الصفات النوعية للوعي السياسي لا تنسحب على محتواه بل على الشكل الـــذي يظهر به كنوع مستقل للوعي الاجتماعي

أما الصفة المميزه لمحتوى الـــوعي السياسي فهي تتجلى في وعي الطبقات لمصالحها السياسية ، وعلاقاتهـــا الاجتماعية ، ولتغير المجتمـــع أو تطوره

ومن المعلوم ان الروابط السياسية تتحقق في هـــذه او تلك مـــن التصورات والآراء ، وان الوعي السياسي يعبر عن هذه الروابط السياسية. فهل يعني ذلك ان الوعي السياسي ينفصل عن الاقتصاد ، لينتج نفســـه ذاتيا ؟ ان صواب المبدأ القائل بتعين الوعي بسائر أجزائـــه ، بالوجود الاجتماعي يبقـــى مستمرا اذا ما فهم المرء مـــن تلك الاطروحـــة ان الوجـــود يعين محتـــوى الـــوعي فـــي المحصـــلة النهائيـــة فحسب وبطريقة غير مباشرة . هذا المبدأ يصح بالنسبة للوعي السياسي ايضا .

وينطبق التحديد اللينيني للسياسة كأكثر التعابير تركيزا عن الاقتصاد ، على السياسة بوصفها مجال العلاقات الطبقية ، بيد انـــه ليس صحيحا اشتقاق محتوى الوعي السياسي من الاقتصاد اشتقاقا **مباشرا** ، اذ يوجد بين الاقتصاد والوعي السياسي مجال الحياة السياسية بكامله ، وهذا هو الذي يعين الصفات النوعية للوعي السياسي ومحتواه ولا يمكن ، على كل حال ، فهم محتوى التعاليم السياسية المختلفة ، والانفعالات والعواطف السياسية الملازمة للصراع الطبقي ، دون تحليل العلاقات السياسية المتبادلة للطبقات في **تعقيدها وتناقضاتها**

يشار في الادبيات الماركسية الى ارتباط محتـوى الوعي السياسي الطبقي مع صراع الطبقات ذلك يسمح لنا بالحكم على الطريقة التي تعبّر بها هذه أو تلك من النظريات والآراء والاتجاهات السياسية الفكرية عـن علاقة الطبقات المتصارعة مع النظام السياسي ـ الاجتماعي والسلطة وبناء وقيادة الدولة ، أو باختصار ، كيف تعي الطبقات الحياة السياسية فـي مراحل محددة من تطور المجتمع (٣٦)

وعلى سبيل المثال فان بوسع المرء أن يتصور محتوى الآراء السياسية لطبقــة ملاك العبيد من توجيهات بتاح حتب ، أحد ممثـلي النبلاء في مصر القديمة ، ومن القوانين الشهيرة للملك البابلـي حمورابي وقوانين المانو الهندية القديمة ، ونظريات الفيلسوفين اليونانيين القديمين افلاطون وارسطو حول الدولة المثلى ، وغيرها مـن المصادر ان الآراء السياسية المعروضة في هذه المصادر تختلف عن بعضها من منظورات كثيرة وخاصة في مسائل تنظيم ادارة الدولة ، لنشوئها في مراحل مختلفــة من تطور مجتمع ملاك العبيـد ، والعلاقات المختلفــة للقوى الطبقية ، والفعاليـة السياسية المختلفة للطبقات الخ بيد ان الآراء السياسية لطبقــة ملاك العبيد تلتقي على الاخذ بالعبوديـة وبالتفاوت الاجتماعي للبشر وبتعزيز سلطة الدولة ، بوصفها اكثر ادوات السيطرة اهمية وتبريرها.

وتتميز الآراء السياسية للبرجوازية الى درجة كبيرة عـن المفاهيم المماثلة لملاك العبيــد أو للاقطاعيين في واقع الحـــال يقوم المجتمـع البرجوازي شأنه في ذلك شأن المجتمعات التناحرية السابقة له ، على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وتعارض مصـــالح الطبقات الاساسية والصراع الحاد بينها والدولة في هذا المجتمع ليست أيضا سوى أداة للاضطهاد في ايدي الطبقة المسيطرة اقتصاديا ومـــع ذلك فان العصر

التاريخي المختلف والطبيعة الاخرى للصراع السياسي يفرضان الطابع النوعي الخاص لوجهات نظر البرجوازية السياسية فقد ألحّت أعمال الايديولوجيين البرجوازيين الاول مثل بودين وميكيافيلي على فكرة الدولة المركزية المتحررة من نفوذ الكنيسة ووجهتها ضد التعاليم السياسية للمجتمع الاقطاعي. وبرز ايديولوجيو الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر بشعار الحرية ، والمساواة ، والاخاء وكانت آراء البرجوازية تعكس في ذلك العصر ، ادعاءها قيادة الحياة السياسية للمجتمع

ولا تبقى المفاهيم السياسية للبرجوازية ثابتة لا تتغير خلال المجرى العام لتاريخ المجتمع البرجوازي فقد تبدلت المفاهيم السياسية تبدلا جذريا تبعا لتحولها من طبقة تقدمية لعصر تكوّن الرأسمالية والسيطرة على السلطة السياسية وترسيخها الى تطور تناقضات المجتمع الرأسمالي الرئيسية وتحول البرجوازية الى طبقة محافظة وأخيرا الى دخول الرأسمالية في مرحلتها الاخيرة الامبريالية ، حيث صارت البرجوازية طبقة رجعية ولاتذكر المذاهب السياسية البرجوازية الراهنة بأي حال باعلان حقوق الانسان والمواطن من عصر الثورات البرجوازية وبدلا من أن يتبنى ايديولوجيو البرجوازية الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، ويناضلوا ضد الاضطهاد الاجتماعي فانهم يفعلون العكس تماما

ويبدو نفوذ الايديولوجية السياسية البرجوازية في البلدان الرأسمالية في قدرتها على اخضاع وعي قسم من الكادحين لها وتحقق ذلك على الاغلب بمساعدة آلة الدعاية الهائلة التي تمارس ضغطا ايديولوجيا مستمرا على الجماهير وهي تسعى لاستغلال المصاعب والتناقضات الموضوعية التي تعيق نمو الوعي الذاتي للجماهير فتنشأ بهذه الطريقة لدى الجماعات والفئات الاجتماعية (الجماعات القومية والوظيفية والدينية والعائلية الخ) مصالح منفصلة يمكن أن تتعارض مع مصالح الكيانات الاكبر التي تنتسب لها وعندما لا تكون درجة تنظيم وتماسك الطبقة العاملة ومستوى اشتراكها في النضال السياسي كافيين فانه يمكن اعطاء المصلحة الفئوية قيمة أعلى في الوعي من المصلحة الطبقية وعلى سبيل المثال فان الحرب العدوانية للولايات المتحدة ضد شعب فيتنام قد رفعت موقتا مستوى تشغيل عمال صناعة التسلح وهذه الواقعة قد تتحول الى أرض خصبة لنشر وعي خاص بعمال التسليح يدعم الحرب ويتعارض مع المصالح الحقيقية للطبقة العاملة الاميركية بيد ان أفكار

البرجوازية وآرائها التي تسرب باستمرار الى الامة بأسرها ، تواجه بصورة متزايدة معارضة متنامية تعبر عن نفسها في ادراك الشعوب والامم لمصالحها الفعلية ، وفي نضال الكادحين من أجل السلام والديمقراطية وتتنامى بشكل خاص مقاومة الطبقة العاملة التي يزداد وعيها السياسي باضطراد

يتغير محتوى الوعي السياسي للطبقه العاملة وغيرها من الطبقات بتغير حالتها في المجتمع ، ومع تغير العلاقات السياسية الواقعية التي تدخلها مع غيرها من الطبقات ان المسألة المركزية لوعي الطبقة العاملة في ظروف المجتمع البرجوازي هي مسألة السيطرة على السلطة السياسية وبعد انتصار الثورة الاشتراكية تغدو المسألة الاكثر أهمية بالنسبة لها هي الاشتراك في قيادة الدولة وتعزيز السلطة الثورية

ولا ينتهي الصراع الطبقي بانتصار ديكتاتورية البروليتاريا بل هو يكتسب في فترات متفرقة أشكالا جد حادة وتتطلب قيادة الصراع الطبقي في ظروف جديدة رفعا لمستوى الوعي السياسي الطبقي لدى البروليتاريا ولتصميمها الثوري وتماسكها في النضال بهذا فقط تستطيع الطبقة العاملة الدفاع عن مكتسباتها وحل المهمات الاساسية في الثورة الاشتراكية وقد فضح لينين أعداء ديكتاتورية البروليتاريا الذين أطلقوا الصرخات ضد الاكراه الذي استخدمته السلطة السوفياتية حيال البرجوازية ، حين قال

> **« ان الجمل الطنانة حول الاكثرية والاقلية ، الديمقراطية والحرية، لا تحل شيئا المهم هنا هو الوعي الطبقي لدى الطبقة العاملة وتماسكها فاذا كانت الطبقة العاملة مستعدة للتضحية ، وبرهنت انها قادرة على تجميع سائر طاقاتها ، فان ذلك يحسم الامور ... لنسخر كل شيء من أجل التغلب على هذه المهمة ! ان تماسك الطبقة العاملة ، وارادتها التي لا تنحني ، وشعار « الموت أفضل من الاستسلام » ، ليست فقط عوامل تاريخية ، بل هي ستأتينا أيضا بالحسم وبالنصر » (٣٧) .**

وتتحدد ضرورة رفع الوعي السياسي للطبقة العاملة بعد اقامة ديكتاتورية البروليتاريا بالمهمة الاساسية التي تطرح نفسها على الثورة الاشتراكية ، ألا وهي خلق الاقتصاد الاشتراكي ان علاقات الانتاج الاشتراكية ، بعكس العلاقات السابقة لها لا تتشكل بصورة عفوية في حضن المجتمع القديم واذا كانت الرأسمالية تخلق فقط المقدمات ، فان

مهمة بناء الاقتصاد الاشتراكي بعد الثورة البروليتارية تبقى أكثر المهمات الحاحا واذا كان دور الجماهير الكادحة في الثورة البرجوازية قد اقتصر على تحطيم الملكية والعصور الوسطى فان دور الجماهير العاملة بعد الثورة الاشتراكية لن يقف عند تحطيم السلطة البرجوازية القديمة ، والقضاء على علاقات الانتاج الراسمالية ، بل هو يشمل بناء الانتاج الاشتراكي بعد الاستيلاء على السلطة ان الجماهير الكادحة تلعب هنا لاول مرة في التاريخ دور منظم العمل الاجتماعي ، وتستولي على الوظيفة التي كانت تمارسها قبل ذلك الطبقات المسيطرة وهذا يتطلب نهوضا لم يعرف من قبل لدرجة تنظيم الجماهير وللوعي ، لان العمال والفلاحين صاروا لاول مرة في التاريخ يعملون لانفسهم ولمجتمعهم وبدون فهم دقيق لضرورة خلق نظام جديد للعمل ورفع لانتاجيته ، من أجل ترسيخ سلطتها والحيلولة دون عودة الاقطاعيين والراسماليين ، أي دون النمو المتواصل للوعي السياسي الطبقي للكادحين ، لما كان بوسع الطبقة العاملة أن تنصرف لخلق الاقتصاد الاشتراكي

ان القوة المنظّمة للمجتمع الراسمالي هي السوق المتكونة بصورة عفوية اما في المجتمع الاشتراكي فان هذه القوة هي الدولة التي تخطط الانتاج وتوزيعه ان التطور الاجتماعي يصبح هنا قضية من قضايا الابداع الواعي والخلاق للجماهير

تجد السياسة تعبيرها المشخص في العلاقات بين مجموعات وفئات مجتمع ما وقد توجب على البروليتاريا الروسية ، ومن أجل بناء الاشتراكية ، أن تقضي على مقاومة الطبقات المستغِلة المطاح بها وان تشد الجماهير غير البروليتارية الى البناء الاشتراكي عن طريق توحيد كادحي الامم التي كانت في السابق مضطهدة وقد تجسدت سياسة الطبقة العاملة داخل صراع الطبقات في علاقاتها مع الفلاحين كحلفاء ، وفي توطيد الصداقة بين شعوب الامم المختلفة

ان ضرورة نمو الوعي السياسي للطبقة العاملة بعد انتصار ديكتاتورية البروليتاريا يتحدد اذن بالاشكال الجديدة التي يأخذها الصراع الطبقي وبأن على الجماهير الكادحة أن تحلّ مهمات جديدة تماما يتطلب التصدي لها أعلى درجات الوعي ، وبالدولة كأداة رئيسية لبناء الاشتراكية التي يعتبر وعي الجماهير مصدر قوتها الفعلي وهذه العوامل تتطلب بدورها التنمية المضطردة لوعي المجتمع

مع انتصار الاشتراكية لم تتضاءل الحاجة الى الوعي السياسي وتطويره وما دامت الطبقات والدولة مستمرة وبالتالي ما دامت العلاقات السياسية قائمة ، فان الوعي السياسي يبقى أكثر أنواع الوعي الاجتماعي اهمية وتتحدد الصفات النوعية لهذا النوع من الوعي (تغيره وتطوره ودوره في المجتمع) من خلال العلاقات السياسية

الوعي الحقوقي :

« ان الحق هو ارادة الطبقة المسيطرة المرفوعة الى قانون » .

لينين

الحقوق كالسياسة ، نتاج للتقسيم الطبقي للمجتمع ويتصل الوعي الحقوقي ، وهو اكثر عناصر البنية الحقوقية الفوقية أهمية ، اتصالا مباشرا بالوعي السياسي وهو لا نفصل أحيانا عن الوعي السياسي ويشترط الحل الصحيح لمسألة المكان الذي يحتله الوعي الحقوقي في بنية الوعي الاجتماعي ايضاح صفاته الخاصة بتحليل تلك العلاقات بين البشر ، التي يبدو كوجه لها

هل يملك الوعي الحقوقي طبيعة خاصة تميزه عن الوعي السياسي وسواه من أنواع الوعي ؟ تسمح لنا الابحاث بالاجابة ب نعم » على هذا السؤال فالوعي الحقوقي هو جملة الآراء التي تعكس علاقة البشر بالحق القائم ، والتصورات التي يملكها البشر حول حقوقهم وواجباتهم ، وحول شرعية أو عدم شرعية هذا السلوك أو ذاك واذا كانت الصفة النوعية للوعي السياسي تتجلى في التعبير عن علاقة معينة بالتنظيم السياسي للمجتمع ، فان الصفة النوعية للوعي الحقوقي تبدو قبل كل شيء في التعبير عن علاقة مع النظم القانونية ، أو مع التنظيم القانوني للمجتمع ومن المعروف ان الحق هو ارادة الطبقة المسيطرة المرفوعة الى قانون ، والقوانين تصدرها الدولة يعتبر القانون اذن اجراء سياسيا ، ويعتبر سياسة » (٣٨) ويجسد الحق ويصوغ ، كما قال ماركس ، بصورة عامة ، بصورة تملك قوة اكراه اجتماعي عامة (٣٩) تلك المطالب السياسية التي تطمح طبقة ما لفرضها ورغم ذلك ، فان الحق هو أداة لتحقيق سياسة الدولة دون أن يذوب فيها

وتعبر هذه الاستقلالية المعينة التي يملكها الحق عن نفسها في الوظائف التي يؤديها . فقد نشأت في المجتمع الطبقي ضرورة توزيع السلع

المادية والفكرية ، بالتناسب مع النمط المعين للملكية وسائل الانتاج من اجل الاستخدام الفردي ، الامر الذي ما كان تنفيذه ممكنا لولا مساعدة القوانين ، هكذا نمت في المجتمع المنقسم طبقيا الحاجة الاجتماعية الى الانضباط ، والى استمرارية العلاقات الاقتصادية وسواها من العلاقات الاجتماعية وهذه الحاجة لا يمكن ارضاؤها بدورها الا بمساعدة القانون. وكما نعلم فان الشيء الرئيسي في الوعي الحقوقي هو العلاقة بالقانون

بيد ان الامر لا يتعلق فقط بالعلاقة مع القانون يقول **فاربر**

« اذا كان الوعي الحقوقي لا يعني سوى علاقة المواطنين بقوانين الدولة ومتطلباتها الحقوقية ، فانه سيكون من المستحيل تمييزه عن الوعي السياسي ... غير ان الوعي الحقوقي هو معرفة تنصب على مجال خاص من الحياة الاجتماعية . انها معرفة لسائر الظواهر الحقوقية وبشكل رئيسي لتصورات حقوق وواجبات المواطنين ، وهذه لا يمكن ان تحصر في حقوق وواجبات سياسية فقط » (٤٠) .

والعلاقات الحقوقية المتشكلة وفق حقوق وواجبات أعضاء المجتمع (وهي حقوق وواجبات تحددها الدولة) تمثل جزءا من الظواهر الحقوقية. وفهم العلاقات الحقوقية ودورها في الحياة الاجتماعية يمكننا من القاء الاضواء على الصفة النوعية للوعي الحقوقي

في علم الحقوق توجد مناقشات حول العلاقات الحقوقية ويهم السوسيولوجيون في هذه المناقشة جانبها المنهجي ، دون جانبها الحقوقي هل العلاقات الحقوقية علاقات بنية فوقية ، واذا كانت كذلك ، فأين تكمن صفاتها النوعية ؟ ثمة وجهتا نظر تعترف احداهما بأن للعلاقات الحقوقية طابعا يدخلها في البنية الفوقية ، وتنظر اليها كشكل خاص للعلاقات الايديولوجية التي تنشأ خلال تأثير الضوابط الحقوقية على سلوك البشر بينما ترى وجهة النظر الاخرى في العلاقات الحقوقية مجرد علاقات اجتماعية تنظمها ضوابط قانونية يقول جوفه وشارجورودسكي في الاجابة على سؤال « ما هي العلاقة الحقوقية ــ هل هي نتاج للتنظيم القانوني للعلاقات الاجتماعية الواقعية ، أم هي وسيلة تخلقها الحقوق لتنظيم العلاقات الاجتماعية ؟ .. العلاقة الحقوقية هي نتاج للتنظيم الحقوقي لعلاقة واقعية ، ولهذا فهي تتحدد كعلاقة اجتماعية تنظمها الضوابط الحقوقية » (٤١)

يؤدي فهم العلاقة الحقوقية كعلاقة اجتماعية تنظمها ضوابط حقوقية الى مسح الحدود بين العلاقات الايديولوجية والمادية والى الاستغناء عن مفهوم العلاقات الحقوقية كعلاقات بنية فوقية

وهذا الجانب الاخير يرتبط مع حل خاطىء للمسائل المنهجية المتعلقة بالانعكاس في مجال العلاقات الاجتماعية وبدور علاقات البنية الفوقية في الحياة الاجتماعية ان جوفه وشارجورودسكي لا يميزان بين موضوع الانعكاس (العلاقات المادية) ومحتوى علاقات البنية الفوقية وهذه العلاقات ليست بالنسبة لهما ، بالمعنى الاصلي للكلمة سوى شكل خارجي ينقصه المحتوى الموضوعي ولكن حين تتلقى علاقات البنية الفوقية « محتوى ماديا » ، فانها تنقطع عن أن تكون ظواهر بنية فوقية ان علاقات البنية الفوقية وبخاصة الحقوقية منها لا تملك أي محتوى موضوعي اذا لم تحتو على عناصر لعلاقات مادية واذا كانت لا تملك محتوى موضوعيا فانها لا تكون علاقات اجتماعية واقعية

تمثل علاقات البنية الفوقية تعبيرا عن علاقات مادية ويتكون محتواها من انعكاس العلاقات المادية في صورة معينة وعيانية وليس ثمة واد يفصل **ما ينعكس** عن عملية الانعكاس نفسها ، وان كانت هناك فروق بينهما فالاول هو الاساس والثاني نتاجه وتكون علاقات البنية الفوقية مستقلة نسبيا ، وتلعب دورا في حياة المجتمع ، لان لها محتوى موضوعيا

حين يفهم المرء العلاقة الحقوقية كنتاج للتنظيم الحقوقي لعلاقة واقعية ما ، فان السؤال عن دور العلاقة الحقوقية في تنظيم نشاط البشر يسقط تلقائيا غير ان العلاقات الحقوقية تنشأ في الواقع من الحاجة الى التأثير في سلوك البشر ، فتدافع الدولة عن العلاقات السياسية والاقتصادية وتعززها بواسطة الحقوق ، وتحمي بها العلاقات الاجتماعية التي تقوم سلطتها برمتها عليها وهذا يضطر أولئك الذين يدخلون في علاقة حقوقية ما ، الى مطابقة سلوكهم مع التعليمات والارشادات القانونية، اي مع ارادة الطبقة المسيطرة المرفوعة الى قانون ان التأثير العكسي للقانون على القاعدة الاجتماعية ، يتحقق في المجتمع الطبقي بواسطة العلاقات الحقوقية

وللعلاقات الحقوقية صفة نوعية مميزة بوصفها تمثل نوعا خاصا

من علاقات البنية الفوقية وتكمن هذه في امتلاك من يدخلون علاقة حقوقية ما لحقوق ذاتية وواجبات قانونية مطابقة لها في نفس الوقت وتفرض الحقوق الذاتية ، أو امكانية انتهاج سلوك معين الى المواطنين او المنظمات عبر الضوابط الحقوقية وتفرض ، فيNفس الوقت ، الضوابط الحقوقية على المنظمات الاجتماعية والدولتية ، وعلى البشر التزامات تتجلى في ضرورة انتهاج سلوك معين لا محيد عنه والعلاقة بين الذين يملكون الحق من جهة ، ويخضعون للواجب من جهة اخرى ، هي العلاقة الحقوقية وتكون حقوق وواجبات الداخلين في علاقة حقوقية محتوى هذه العلاقة ، وهذا يعكس علاقات اقتصادية واجتماعية مستقلة عنه ، ويملك بالتالي وجودا واقعيا بهذا الصدد ، يستطيع المرء أن يتحدث عن علاقة بين البشر ، وليس بين أشياء وأعمال ومن المعلوم ان العلاقة بين البشر هي موضوع العلاقة الحقوقية وليست العلاقة نفسها

ويتجلى الجانب الارادي للعلاقة الحقوقية في الاجراءات التي تتخذ لحماية الدولة ، ولتحديد السلوك المتبادل لمن يقيمونها. وتكمن اكثر صفات العلاقة الحقوقية اهمية في انها تعبر دوما عن الارتباط بين بشر عيانيين. وفي هذا تتميز العلاقات الحقوقية عن العلاقات السياسية ، حيث تكون الطبقات هي الاطراف التي تمارس التأثير على بعضها بعضا ان السياسة هي العلاقات المتبادلة بين مجموعات بشرية كبيرة وكما قال **لينين** ، فان ما تدور السياسة حوله ليس بشرا متفردين ، ولا هم آلاف الناس ، بل الملايين (٤٢)

تتشكل العلاقات الحقوقية على ارضية المعايير الحقوقية وهذه تؤثر في سلوك البشر بطريقة تكون نتيجتها نشوء العلاقات الحقوقية وتوصف العلاقات الحقوقية غالبا وكأنها معايير حقوقية متحققة ويتم نفي اية امكانية لنشوء العلاقات الحقوقية قبل تحديد معاييرها بواسطة الدولة

في مجتمع تكوّن فيه نظام حقوقي ، يعتبر نشوء العلاقات الحقوقية مرتبطا في الواقع بالضوابط الحقوقية بيد ان الحكم القطعي حول استحالة تأسيس علاقاتحقوقية بدون الضوابط المطابقة لها ، يصلح بالكاد بالنسبة لمجتمع يمر في مرحلة تأسيس نظام جديد ويقول كتاب اصدره **كيتشيكيان** ان الحق يظهر تاريخيا كنظام علاقات حقوقية ، وانه فيالمراحل التي تنشأ فيها حقوق من نوع جديد تسبق العلاقات الحقوقية في حالات

غير قليلة الضوابط الحقوقية (٤٣) ولا تشكل الحقوق الاشتراكية استثناء لذلك فقد نشأت علاقات حقوقية متفرقة كقوانين السكن والتملك . . .الخ دون أن تكون هناك ضوابط حقوقية مطابقة لها (٤٤) وقد عززت الضوابط الحقوقية التي حددتها الدولة فيما بعد العلاقات الفعلية المماثلة عند تكرارها

ان الحالات التي تنشأ فيها العلاقات الحقوقية قبل تحديد الضوابط الحقوقية المطابقة لها لا تلغي الصفة الخاصة المميزة للعلاقات الحقوقية بل هي تبرز أهمية الانصراف الى تحليل الظواهر الاجتماعية تحليلا تاريخيا وهي تؤكد ثانيا ان علاقات البنية الفوقية الفعلية يمكن أن توجد قبل تشكل نوع الوعي المطابق لها وتتكون علاقات البنية الفوقية فعلا قبل نشوء التصورات والافكار الاخلاقية والسياسية والحقوقية وسواها وتحدد الصفات النوعية لانواع الوعي الاجتماعي، ليست الافكار والتصورات ، التي تتكون هذه أو تلك من علاقات البنية الفوقية بالتطابق معها ، هي التي تحدد خصوصية العلاقات ، بل بالعكس تعطي علاقات البنية الفوقية للافكار والتصورات خصوصيتها ولكن مصدر علاقات البنية الفوقية ، وتصورات البشر هي العلاقات المادية التي تحدد محتوى علاقات البنية الفوقية

ويتم الارتباط بين الوعي الحقوقي والعلاقات الحقوقية عبر الضوابط الحقوقية وتبدو الضوابط كمؤسسات للبنية الحقوقية الفوقية للمجتمع التي تدعم تحقق الافكار والتصورات في العلاقات الواقعية للبشر

يرتبط تحديد ضوابط الوعي بالنظرات الحقوقية كما يرتبط تكوّن العلاقة الحقوقية بالضوابط الحقوقية ولكنه يوجد بينها أيضا ارتباط معاكس وتترسخ العلاقات الفعلية في القوانين ويؤدي وعي القوانين وتعليلها والدفاع عنها الى خلق النظريات الحقوقية ، والى وضع ايديولوجية حقوقية ان الطابع الارادي للعلاقات الحقوقية الذي يتركز على التعبير عن ارادة الطبقة المسيطرة ، يمنح ايضا للوعي الحقوقي خصوصيته أما النظرات الحقوقية فهي عنصر يتضمن تصور ما هو مرغوب في مجال الحقوق ويرتبط محتوى الوعي الحقوقي من نواح كثيرة بالعلاقات الحقوقية ، ولكن تعليله النهائي يقع في العلاقات الاقتصادية التي تعين العلاقات والضوابط والوعي الحقوقي .

يمكننا محتوى الوعي الحقوقي من استنتاج خصوصية هذا النوع من الوعي الاجتماعي ويتقسم محتوى الوعي الحقوقي قبل كل شيء الى تصورات حول علاقة البشر بالحقوق المعمول بها ونظرات حول حقوقهم وواجباتهم ، وشرعية أو لا شرعية سلوك معين ويحتوي الوعي الحقوقي ايضا على المطالب الحقوقية الجديدة حول قبول قوانين جديدة أو تعديل القوانين القديمة

ويستكمل الوعي الحقوقي بوصفه مجموعة الآراء والتصورات في بعض الاحيان بالمشاعر حيال ما هو قانوني ولاقانوني ، عادل وظالم وبهذه المناسبة فان محاولة فهم المشاعر القانونية كمقولة خاصة للوعي الحقوقي لا تستند الى أي أساس لماذا يمثل الشعور بالعدل حيال قانون ما ظاهرة حقوقية وليس ظاهرة أخلاقية ؟ ان الاخلاق تعكس علاقات المصالح بين البشر من منظور فائدتها أو ضررها عدالتها أو ظلمها وعلى سبيل المثال فان الشعور الاخلاقي بالعدل أو الظلم يعبر عن العلاقة مع النظام الاجتماعي والسياسي القائم ومع القوانين وفعالية هذه أو تلك من المؤسسات والتنظيمات وسلوك البشر ومن الضروري السؤال عما اذا كان من المجدي عزل الشعور بالعدالة في علاقته مع قانون ما والنظر اليه كعنصر من عناصر الوعي الحقوقي اذا كان لا يتميز عن الشعور بالعدالة الذي يعبر عن نفسه حيال النظام الاجتماعي القائم بمجمله ، أو حيال سلوك الانسان الفرد ان مثل هذا التمييز ليس مجد ، ولا توجد مقاييس له ومن الطبيعي ان الاسباب التي تستثير مثل هذه المشاعر متنوعة يمكن أن تتمايز في زخم بروزها واستمرارها ، وتبقى دوما شعورا بالعدالة والعواطف التي يعتبرها **فاربر** حقوقية ، هي في الواقع اخلاقية ترتبط بالتقييم الاخلاقي للقوانين وتطبيقاتها أما السؤال عن العناصر النفسية ـ الاجتماعية في الوعي الحقوقي فانه مبرر تماما فالى جانب الايديولوجيا الحقوقية التي تمثل تعميمات نظرية للظواهر الحقوقية ، تشكل جزءا من الوعي الحقوقي تلك النظرات التي تعتبر عادة وعيا حقوقيا بالمعنى الاصلي للكلمة

يمكن الوصول أيضا الى خصوصية الوعي الحقوقي عبر الدور الذي تلعبه في حياة المجتمع وعند دراسة هذه المسألة يتم التأكيد غالبا على ان الوعي الاخلاقي يقدم لنا فكرة القانون ، وان تطبيقه يحدث بفضل شرح معناه من جهة ، وتحديد العقوبات من جهة ثانية . اضافة الى ذلك ، يعكس

الوعي الحقوقي ، بسبب حركيته ، أكثر من سواه من عناصر البنية الفوقية التناقضات بين شروط الحياة المتغيرة والقوانين القائمة وفي الظروف الاشتراكية لا يستند تطبيق القوانين على السلطة القهرية للدولة ، بقدر ما يستند الى الوعي الحقوقي للشعب وهذا يظهر الاهمية الرفيعة لهذا النوع من الوعي في المجتمع الجديد

هذه العناصر التي قدمناها تغطي نسبيا أهمية الوعي الحقوقي في الحياة الاجتماعية ، ولكنها لا تستنفدها بأي حال والواقع ان دور الوعي الحقوقي لا يتضح الا اذا ارتبط بنشاط الوعي الاجتماعي عموما الذي تجلى فيأوضاع الوعي المحددة هكذا لا يفسر تقيد المواطنين الطوعي فيالمجتمع الاشتراكي بوعيهم الحقــوقي فقط بل بمجمــوع وعيهم الاجتماعــي الاشتراكي وثانيا لا يمكن فهم دور الوعي الحقوقي الا بربطه مــع تأثير البنية الفوقية الحقوقية بمجملها ، التي تضم الوعيالحقوقي والمؤسسات (مجموع الضوابط الحقوقية والعلاقات الحقوقية ان الوعي الحقوقي لا يملك وظائف خاصة بالمقارنة مع الجــوانب الاخرى للبنية الفوقيــة الحقوقية ، ولهذا ينسب الدور الذي يلصق بالوعي الحقوقي الى مجموعة البنية الفوقية الحقوقية ويخدم الوعي الحقوقي ، بالارتباط معالضوابط الاخلاقية العلاقات الاخلاقية ويشكل جانبا منها ومن هذا الدور يمكن الوصول الى الخصوصية التي يملكها الوعي الحقوقي

الوعي الديني :

« لقد انتصر المسيح لان سبارتاكوس
قد هزم »

انشلان

حسب تعريف لانجلز يعتبر الدين انعكاسا خياليا ووهميا في رؤوس البشر لتلك القوى الخارجية (الاجتماعية والطبيعية) التي تهيمن عليهم في حياتهم اليومية انها انعكاس خيالي تأخذ فيه القوى الارضية وضع قوى فوق أرضية (٤٥) ليس كل خيال دينا فالدين هو الخيال الذي ينصب على ما هو فوق أرضي ويقود بعيدا عن الواقع العملي وقد قال لينين ان الدين هو خيال مريض

بحسب جذوره تعود الدين الى اعماق العصور القديمة ولا يمكن فهم عملية نشوئه الا بتحليل العلاقات المتبادلة بين المجتمع والطبيعة في وقت كان المجتمع نفسه ينشأ فيه من المعروف ان العمل كان العنصر المعيّن لصيرورة الانسان الفرد والمجتمع ككل وفي سياق العمل تكونت علاقات معينة بين البشر والطبيعة بيد ان العلاقة مع الطبيعة بما هي طبيعة ، والطبيعة نفسها لم يكونا قد أنتجا بعد الوعي الديني ان **ظهور الدين قد** نشأ من الصفة النوعية لعلاقة البشر مع الطبيعة التي لم يكن جانبها الرئيسي سيطرة الانسان على الطبيعة بل بالعكس سيطرة الطبيعة على الانسان

ثمة جانبان للفعالية البشرية وعلاقتها بالطبيعة او كما قال **دونيني** باحث الاديان الايطالي

> **« ان العلاقات التي نشات قبل عصور سحيقة بين الانسان والطبيعة كانت تملك دوما طبيعة مزدوجة . فمن جهة كانت هناك سيطرة الطبيعة الكلية القدرة على الانسان الذي لا حول له ولا قوة ، وكان هناك من جهة ثانية التاثير الذي طمح الانسان لاحداثه في الطبيعة ، وان باشكال محدودة وناقصة ، من خلال استخدام أدوات عمله ، وقوى انتاجه ، وقدراته الخاصة » (٤٦) .**

بهذا الجانب الاول للعلاقة المتبادلة بين الطبيعة والمجتمع التي عبرت عن ضعف الممارسة الانسانية ومنحت العلاقة بين الطبيعة والمجتمع عموما سمتها الخاصة يرتبط أيضا ظهور الوعي الديني

يسمح التفسير المادي لجذور الوعي الديني بمتابعة نشوء التصورات الدينية عبر دراسة محدودية الممارسة البشرية ، وضعف الانسان أمام قوى الطبيعة العفوية فقد أدت سيطرة الطبيعة على الانسان الى لجوء البشر لوسائل تأثير في الطبيعة لا وجود لها الا في خيالهم وأوهامهم فكانوا يقلدون فعاليات انتاجية كثيرة كالقنص والصيد هكذا كان السكان الاصليون لاوستراليا يرسمون على الرمل حيوان كونغرو ويطعنونه بالرماح قبل انطلاقهم الى الصيد على أمل ان الصيد سيكون بعد هذا الطقس ناجحا الى جانب هذه الاعمال الواقعية تكونت أيضا أعمال رمزية وهو ما أدى الى ازدواجية في الوعي أيضا لقد نشأ نظام كامل من الطقوس ، أساسه الايمان بامكانية التأثير بقدرة قوى ما فوق الطبيعة على الظواهر والاشياء المحيطة بالانسان وهذا النظام سمي سحرا فيما بعد

انتج الضعف الفعلي للانسان حيال قوى الطبيعة وحاجته التي لم يتم ارضاؤها للتأثير على الطبيعة وعيا مغلوطا لديه وساعدت عفوية التطور الاجتماعي في ظروف المجتمع الاول على نشوء الوعي الديني. وفيما بعد ، وفي المجتمع الطبقي تحول هذا الى السبب الرئيسي للوجود الفعلي للوعي المغلوط

وتفسر الصفة النوعية للوعي الديني بالاسباب التي ادت الى ظهور هذا النوع من الوعي وتكمن في الايمان بما هو فوق ارضي الذي خلقته القدرة البشرية على التخيل ان الايمان بكائن فوق الطبيعة يشكل جوهر الوعي الديني هو علاقة خاصة مع موضوعات موهومة تتصف حسب أوجرينوفيتش بثلاث صفات

أولا بالايمان بواقعية وجود كائنات ، أو صفات ، أو علاقات ما فوق الطبيعة

ثانيا بالمعاناة الشخصية لعلاقة ما مع قوى ما فوق الطبيعة

ثالثا : العلاقة « الوهمية ـ الفعلية » للبشر المتدينين مع قوى ما فوق الطبيعة » (٤٧)

ويعتقد الانسان الديني ان توجهه الى قوى ما فوق الطبيعة يستثير

نفوذها الخيّر على حياته ولان الارتباط بقوى ما فوق الطبيعة يحمل طابعا متصورا ، فاننا نقول انه « فعلي ــ وهمي »

تطبع هذه الصفة الخاصة بطابعها محتوى الوعي الديني ، أي اتجاهات الايمان ، وتصوراته ، وعقائده الخ ، التي تشكل الوعي الديني العادي والايديولوجية الدينية (اللاهوت)

ويشترط التحليل السوسيولوجي للوعي الديني ، شأنه في ذلك شأن غيره من انواع الوعي الاجتماعي الاخرى ، تفسير تبعيته الاجتماعية والصفات الخاصة به ، والعلاقات التي يرتبط بها في الحياة الواقعية اي التي يشكل هو جانبها هذه العلاقات لها وجود فعلي ، وهي تشكل مع الوعي الديني محتوى الظواهر الدينية المعقدة ، محتوى البنية الدينية الفوقية من هذه العلاقات تلك التي ترتبط بأفعال العبادة ، أي بالافعال البشرية التي يحاول الناس بمساعدتها احراز نفوذ ما على الموضوعات فوق الطبيعية للدين ، والتي ترتبط بالعلاقات بين المؤمنين الذين هم أعضاء تنظيمات معينة

ما هو الارتباط بين الوعي الديني وافعال العبادة ؟ يشير العالم الاتنوجرافي السوفياتي الشهير **توكاريف** الى ارتباط الوعي الديني بأعمال العبادة في سياق تكوّن السحر وهو يميز سلسلة من مراحل هذا السياق

ا) العمل الانساني المباشر ، العفوي ، ولكن الذي يتضمن هدفا (الممارسة المادية) .

ب) نفس العمل ، يفهم كفعل لقوة سحرية ، فيرتبط بفكرة قوى ما فوق الطبيعة .

ج) يبدأ التصور الناشىء حول القوة السحرية بالتأثير في اعمال البشر ، فيتحول الفكر العقلاني الى طقس سحري » (٤٨) .

ويؤكد توكاريف لدى تفسير تتابع مراحل عملية تشكل السحر وترابط الافعال السحرية ان السحر ينتج مع الزمن تصورات خاصة به تصبح بفكرة قوى ما فوق الطبيعة » (٤٩)

يظهر توكاريف بوضوح ان الاعمال اليومية تشكل مادة لتكوّن الطقوس السحرية ، وان « الممارسة السحرية تستطيع أن تخلق بدورها « نظرية سحرية » . وهذه النتيجة تدعمها كمية هائلة من البراهين .

لا ينشأ اي نظام للافكار والتصورات مرة واحـــدة ، لان الفعاليــة الانسانية والعلاقات الاجتماعية تشترك في تحديده داخـــل مجال البنية الفوقية وفي الواقع تسبق نشوء الآراء الاخلاقية والسياسية والحقوقية غالبا العلاقات المطابقة لها ، بحيث تكون هذه الآراء نتاج وعي هذه العلاقات. ولا تشكل الآراء الدينية استثناء من ذلك ويمكن أن نقـول ان « السحر ينتج تصورات تتصف باصطباغها بصبغة قوى ما فوق الطبيعة ولكن حين تكون الافكار والآراء قد نشأت ، فانه يحدث عندئذ اعادة انتاج أعمال وعلاقات معينة في مجال البنية الفوقية بالتطابق مع هذه الافكار والآراء

يكمن الارتباط بين التصورات الدينية والاعمـــال الطقوسية في ان الاولى لا توجد بما هي تصورات دينية ، اذا لم تعبر عن نفسها في أعمال طقوسية اما الثانية فلا تكون سحرية ، ان لم ترتبط بتصورات دينيــة معينة ان التصورات الدينية وطقـوس العبادة يشترطان بعضهما بعضا ويبدوان كجانبين للحياة الدينية اي من هذين الوجهين هو المحـدد ، الوعي أم الطقوس ؟ من الواضح اننا لا نستطيع ان نقدم اجابة قاطعة عـلى هذا السؤال فكلا الوجهين لهما منبع مشترك يحدد التصورات الدينيــة كما يحدد الطقوس هو هيمنة قوى خارجية على الانسان ان للتصورات الدينية وطقوس العبادة أساسا واحدا وفي اطار الـدين لا تحدد الآراء لوحدها تكوّن الطقوس السحرية ، بل تمارس هـذه الاخيرة أيضا نفوذا كبيرا على تطور الوعي الديني وكمجال للحياة الدينية اليومية والعمليــة تحدد العبادة (أو تعيد انتاج) الوعي الديني بالضرورة ، وخاصة عــلى صعيد الوعي اليومي

الى جانب العلاقات الوهميـــة مع قوى ما فوق الطبيعة توجد في الدين علاقات من نوع آخر انها العـلاقات الواقعية تمـاما بين البشر المؤمنين الذين يلتقون لممارسة العبـــادة وحسب طبيعتها تمثل هـذه علاقات بنية فوقية ، لانها تتعين بالشروط الاجتماعية للحياة الاجتماعية

تكوّنت العلاقات بين المؤمنين ، بهدف ممارسة العبادة ، تاريخيا بالاساس كان جميع أفراد الجماعة يشتركون فـي طقوس العبادة وكان دورهم من طينة واحدة ومع التطور اللاحق بدأ بعض الافراد بالبروز في اطار المجتمع الاول ، واخذ هؤلاء يمارسون دورا هاما في الطقوس ثم مع توزع المجتمع الى طبقات ظهرت تنظيمات دينية وظيفية لخدم العبادة ،

كانت أشكالها وانماطها مرتبطة بالطينة التاريخية للظروف الاجتماعية في مرحلة تاريخية ما ، فعكست البنية الاجتماعية للمجتمع (٥٠) وشرع المحتوى الرئيسي للعلاقات بين البشر المشتركين في العبادة الدينية يصبح علاقة متبادلة بين « الرعية » و « رجال الدين » ، بين « التجمع الديني » و « قادة » طقوس العبادة

ترتبط العلاقات بين المؤمنين والتنظيمات الدينية نفسها ارتباطا وثيقا بالوعي الديني ويبدو ذلك في ان العلاقة بين البشر وتنظيماتهم كانت تتحدد وفقا لتصوراتهم الدينية ولكن بعد تكوّن العلاقة أخذت تلعب دور الاساس الذي ينتج بصورة مستمرة التصورات الدينية

ان ارتباط الوعي الديني مع طقوس العبادة ، ومع العلاقات بين المؤمنين ابان ممارسة الطقوس ، ومع التنظيمات الدينية يمكننا من القاء الضوء على الدور الذي يلعبه الوعي الديني في حياة المجتمع وبصورة عامة يمكن القول ان هذا الدور يستنفذ نفسه في خدمة الممارسة الدينية ، اذ تتحول طقوس العبادة والعلاقات بين المؤمنين وفعالية التنظيمات الدينية ، نتيجة للتصورات والافكار المنصبّة على قوى ما فوق الطبيعة ، الى وعي ديني وتسم الممارسة الدينية ومكانها في المجتمع ، الوعي الديني أيضا

في الدراسات التي تحلل الدين على مستوى سوسيولوجي ، يلقى الضوء على دور الوعي الديني من خلال الممارسة الدينية ويظهر **ليفادا** ، باستخراجه العلاقات الدينية من الظروف المعطية لحياة المجتمع الواقعية الدور الناشط لهذه الصيغ ان ليفادا ينطلق من وجود نمطين من الفعالية في المجتمع اعادة انتاج الادوات الضرورية للوجود واعادة انتاج اشكال الاتصال التي تشكل بجملتها نظام تحكم تطوره وتستخدمه العضوية الاجتماعية

« ان الاهمية التاريخية والمصادر التاريخية للدين ، كمؤسسة اجتماعية ، ترتبط بتطور نظام تحكم المجتمع البشري » (٥١)

ويلعب الدين دور شكل اتصال (صيغة اتصال) داخل التنظيمات الاجتماعية التي تكون بنيتها الاجتماعية واشكال النقل والتحويل الثقافي فيها ، بحاجة الى « تكملة » دينية وتعتبر « بحاجة الى الدين » و « منجبة له » تلك الثقافات الاجتماعية وأشكال الاتصال التي تحافظ

على طرز « متسقة » للنقل الثقافي ، أو بكلمات أخرى ، مختلف اشكال الاتصال ، ما دامت تفعل فعلها بداخلها طرز متسقة للوعي والتحكم الاجتماعيين

وتكمن أكثر وظائف الدين عمومية في انه يتم بداخله ، وفي شكل خيالي تجاوز و ازاحة » التناقضات الواقعية الهامة للحياة والتفكير البشرين فيبدو المستحيل ممكنا والاستثنائي عاديا والعرضي ضروريا ، وغير الشخصي شخصيا ، والفاني خالدا وتظهر وتهيمن أثناء ذلك ظروف مختلفة لانماط مختلفة لمثل هذه التناقضات (٥٢)

ويتضح الدور الايجابي للدين في المجتمع من خلال تحقق هذه الوظائف استبدال التجاوز الواقعي لتناقضات الحياة الاجتماعية بتجاوز وهمي وخيالي والاطروحات المعروفة لكلاسيكيي الماركسية حول دور الدين الاجتماعي تعطي هذا الدور طابعا سلبيا بصورة أساسية

ثمة براهين تاريخية كثيرة على الدور السلبي للدين كمثال على ذلك نستطيع أن نسوق المسيحية التي نشأت في القرن الاول من تقويمنا ، في عصر انحلال الامبراطورية الرومانية ، في مجتمع ملاك عبيد تجاوزهم التطور السياسي والاقتصادي والفكري ويشهد عدد كبير من انتفاضات العبيد والفلاحين الاحرار وفقراء المدن في العالم القديم على الاحتجاج النشط ضد الاضطهاد والظلم الاجتماعيين غير ان الانتفاضات ضد الارستقراطية التي كانت تجسد العالم القديم ، قد أخمدت بوحشية تحت هذه الظروف نشأت المسيحية كنظرة الى العالم تعبر عن فقدان الايمان بتحطيم العالم القديم والتحرر من النير الاجتماعي وقد قال باحث التاريخ الديني الفرنسي أنشلان

« لقد انتصر المسيح ، لان سبارتاكوس قد هزم » .

ويمكن تمييز مرحلتين في تطور المسيحية داخل الامبراطورية الرومانية فقد شعر المسيحيون الاوائل بالكره حيال ملاك العبيد وكانوا يؤمنون بأن النظام الظالم سيندثر ، وستقام في مكانه مملكة للعدالة على الارض وكانوا يأملون أن يحققوا توقعاتهم الاجتماعية بمساعدة السماء ومن المعروف ان في أساس نظرية الايمان المسيحية الايمان بيسوع وهمي ، ابن الرب » الذي نزل من السماء الى الارض «ليخلص» البشرية بعد موته ، يقول هؤلاء المؤمنون ، أسرى المسيح الى السماء ،

ويجب على المسيحيين انتظار عودته وقد انتظروا عودته فعلا ، وهم يتحملون الاذى ، ويقاسون الظلم ، لان ذلك بحسب تصوراتهم يعجل في عودته

بالاصل كانت المسيحية « ديمقراطية ـ ثورية في روحها ، أي بقدر ما أدخلت الجماهير المضطهدة طرحها العفوي نحو الثورة الاجتماعية اليها هذا الوضع الخاص يمكن فهمه من خلال التركيب الطبقي للجماعات المسيحية الاولى التي كانت تتألف بصورة رئيسية من عبيد وفقراء **في تلك المرحلة مثلت المسيحية ايديولوجية للعبيد وللاحرار الذين حل بهم الفقر** هذه الصفة النوعية التي تميز المسيحية الاولى تفسر طبيعتها المتناقضة بيد ان المسيحية قد أبعدت ، برغم روحها الديمقراطية ـ الثورية ، العبيد وفقراء الاحرار عن النضال الحقيقي ضد الاستغلال والاضطهاد وكان منطلقها الرئيسي هو « **انتظار المنقذ السماوي والتمسك بامل عودته** » هذا الايمان ، والتخلي عن النضال الفعلي ، لعبا منذ البداية دورا سلبيا من الناحية الموضوعية

اختفت الطبيعة المزدوجة للمسيحية بصورة مضطردة مع ترسخ العلاقات الاقطاعية في المجتمع فتحولت المسيحية في جوهرها وشكل التعبير عن آرائها الى **ايديولوجية لنظام المستغِلين** فحثّ مبشروها في القرنين الثاني والثالث من تقويمنا المضطهدين والمسلوبي الحقوق ، المذلين والمهانين ، على تحمل الفقر والعذاب بصبر من أجل أمل أكثر بعدا من امل عودة « المخلص » ، وهو أمل الحياة الافضل ، ليس فوق الارض ، بل في السماء وشرعت المسيحية تطلب الطاعة حيال الحكام ان أفكار الخضوع والاستسلام حيال البشر قد وجدت تعبيرها في كتب تلامذة المسيح وسواها من الادبيات المسيحية المبكرة لقد طالبت المسيحية العبيد بأن يتحولوا من عبيد بالاكراه الى عبيد بالقناعة هنا تبرز المهمة الاجتماعية للدين ، في المجتمع الطبقي ، بصورة واضحة

وتعزز الدور السلبي موضوعيا للمسيحية بمقدار تنامي نفوذ **الطبقات السائدة** ضمن الجماعات المسيحية مع تنظيم الكنيسة وبينما كانت الجماعات الاولى تتشكل من عبيد وفقراء فقط ، دخلها خلال تطورها اللاحق أغنياء كانوا في نفس الوقت على رأس العبادات الدينية ثم بعد مائتين وخمسين سنة من نشوئها تمّ الاعتراف بالمسيحية كدين للدولة .

ونشأ تحالف بين الدولة كأداة اضطهاد في يد الطبقات المسيطرة اقتصاديا وبين الكنيسة ، تمكنت الطبقات المستغلة بواسطته من استخدام الكنيسة كأداة هامة في عملية نشر روح الخنوع والعبودية بين الجماهير

ان الدور السلبي للدين ـ مهما كان الشكل الـذي يظهر به ـ يكمن في انه يحـــول بين الانسان والنضال ضد المساوىء الاجتماعية ، وفي سبيل اعادة صياغة الطبيعة وفق مصالحه

الوعي الجمالي

« ان الابداع وفق قوانين الجمال يعني الانتاج وفق مقياس كل نوع ... »

ماركس

نشأ الوعي الجمالي على أرضية علاقة الانسان بالواقع شأنه في ذلك شأن الوعي الديني، لكن العلاقة التي حتمت نشوء الوعي الجمالي تمتاز بطابع مختلف ، ولهذا يمتاز هذا النوع من الوعي عن الوعي الديني.

يرتبط الوعي الجمالي بالنشاط وبالروابط الجماليين للانسان مع الواقع ويعبر نشاط الانسان الجمالي عن نفسه في عمل الانسان وطريقة حياته وفنه ويكمن جوهره في تغيير واعادة انتاج الموضوعات وظواهر الواقع حسب قوانين الجمال ونحن نفهم الجمال بوصفه تمامية موضوعات وظواهر الواقع كتب **ماركس**

« ان الابداع ، وفق قوانين الجمال ، يعني الانتاج وفق مقياس كل نوع ... ووضع المقياس اللصيق بالموضوع في كل شيء » (٥٣) .

و « مقياس » الموضوعات والظواهر هو تعبير عن صفاتها الجوهرية ، عن نوعيتها اما وضع المقياس الخاص ، فيعني الى أي حد تجسد ظواهر وموضوعات مشخصة معينة صفاتها الجوهرية ، النوعية ، في تعبيرها الخارجي ؟ أو بكلمات أخرى الى اي حد تسمح هذه الظواهر والموضوعات بالتغلغل الجمالي في الواقع ، من أجل كشف صفاته الجمالية ، والابداع بما يتوافق معها ؟ والانسان ، كما قال غوركي فنان بحسب طبيعته ، لانه يطمح لادخال الجمال بهذه الطريقة أو تلك الى كل شيء

ان الاحاطة الجمالية بالواقع ، وبذل النشاط وفق قوانين الجمال ، هما نتاج للتطور التاريخي للمجتمع ، ويتحددان بالفعالية المادية للانسان

أين يكمن جوهر الروابط الجمالية وخصوصية الوعي الذي يتعين

بها ، وما هي العلاقة الجمالية ؟ سنعتمد في الاجابة على هذه الاسئلة على اعمال قامت بتحليل العلاقات الجماليـــة بالنسبة لعلم الجمـال توجد روابط جمالية في « الوجود الاصلي وهذه هي المرحلة الاولى ، المقولة الاولى التي بدأت التطور المنطقي اللاحق للمقولات الجماليـــة وهي أكثر الروابط تعميما ، فاذا تجاوزناها ، اختفى ما هو جمالي كمقولة محددة وهي ايضا اول علاقة نصادفها ، حين نبدأ تعارفنا العاطفي والتجريبي مع عالم الاشياء الجمالية (٥٤) هذا ما كتبــه **كروكوفسكي** في مقــولات علم الجمال ثمة امساك بالانواع الرئيسية للرابطـــة الجمالية بين الانسان والواقع ، وهذه هي « موضوع الفن باختصار ، ان علماء الجمـــال يضعون النوع الذي ذكرناه على راس تأملاتهم ، لذا يجب على المرء أن يعود الى اعمالهم ، اذا ما أراد أن يجيب على المسائل المطروحة

يشرح **ستولوفيتش** الصفة النوعية للروابط الجمالية بمقارنتها مـــع الروابط النفعية ــ العملية والمعرفية ــ العلمية ، حيث تتميـــز الروابط الجمالية قبل كل شيء بموضوعها فبينما تعتبر نوعيات وصفات الاشياء ، التي قد تستخدم في ارضاء حاجات البشر الماديـــة ، موضوعا لروابطهم النفعية مع الطبيعة ، وتعتبر الروابط المعرفية ــ العلمية قوانين العـــالم الموضوعي موضوعا لها ، نجد ان « موضوع الرابطة الجماليـــة هو الصفات الجمالية للواقع (٥٥) وتمتاز العلاقـــة الجمالية فضلا عن ذلك في ان « الفكرة والشعور يذوبان فيها ويشكلان وحدة » (٥٦) ثمة رابطة بين الفكرة والشعور في سائر العلاقات ، ولكن في المعايشة الجماليـــة يتشبع الشعور بالفكرة ، وتغدو الفكرة موضوعا للشعور ، بحيث يعنـــي فصل أحدهما عن الآخر تحطيم عمليـــة المعاناة الجمالية » (٥٧) وفـــي الختام تتميز العلاقة الجمالية أيضا بوظيفتها الاجتماعية ، ومعناها الفعلي. « الرابطة الجمالية لا تقصد هـــدفا ماديا ، كما هو الحال في الرابطـــة النفعية ــ العملية ، بل هي غير نفعية

هذه الشروح لستولوفيتش حول العلاقات الجمالية لا توضح بمـــا فيه الكفاية الصفة النوعية لهذا النوع من العلاقات ، لان الموضوع ، الذي تتشكل هذه العلاقات بالارتباط معه ، لا يملك حسب ستولوفيتش صفات نوعية جمالية ونعتقد ان ستولوفيتش لا يستطيع ادراك الصفة النوعية المذكورة ، لانه يماثل ما بين العلاقات و « الحس الجمالي » ، أو « المعرفه الجمالية » ، وينسب صفاتها الخاصة الى العلاقات . غير ان الاحاطـــة

بالعالم بواسطة الصور لا يستنفذ بأي حال الروابط الجمالية فالرابطة توجد ، حيث يوجد تقييم وتثمين والرابطة الجمالية (العلاقة الجمالية هي نوع من الروابط التقييمية التي تتكون بالتوافق مع المعرفة

ولا يمكن تفسير خصوصية الروابط الجمالية اذا اقتصرنا على دراسة ظهورها في مجال الوعي فالروابط الجمالية تتجاوز مجال الوعي وتتحقق في الفعالية الجمالية وعلى سبيل المثال تتموضع الرابطةالجمالية للانسان مع العمل في مشاريع نشاطه ، وجمالية الاشياء والموضوعاتالتي يخلقها بل ان الفعالية الجمالية للانسان نفسه يمكن فهمها كعلاقة جمالية

وأخيرا يجب على المرء عند شرح خصوصية العلاقات الجمالية مراعاة طبيعتها المزدوجة فهي من جهة علاقات بين موضوع وذات ، حيث الموضوع هو الواقع والذات هي الانسان ومن جهة هي روابط بين البشر ، تتكون على أساس رابطتهم مع الواقع هذه الطبيعة المزدوجة للروابط الجمالية حاولت مجموعة من الاعمال الاحاطة بها ، وان كانت لم تنجح فيذلك بصورة كافية. فيقول **جولدنتريشت** عند دراسة الروابط الثقافية كموضوع للفن ان هذه الروابط ليست سوى ارتباط الفرد بالمجتمع ولدى التدقيق في طبيعة هذا الارتباط لا يلبث أن يقلصه الى رابطة الانسان بظروف حياته الموضوعية أو بصورة أدق ، الى شروط فعالية للمواهب الخلاقة للانسان وتحققها الموضوعي ، والى التمتع بثمار هذه الفعالية (٥٨) حسب الشكل يعالج جولدنتريشت الروابط الجمالية كروابط بين الفرد والمجتمع أي بين ذاتين ، بينما هي روابط ذات بموضوع

يشير **يجوروف** الى وجود العلاقات الجمالية كروابط موضوعية وهو يوضح ان « العلاقات الجمالية للبشر تنشأ على أرضية علاقاتالانتاج المتطورة » ، وانها تحمل طابع بنية فوقية وتوجد خارج وعي البشر (٥٩) ان صيغة يجوروف حول العلاقات الجمالية كروابط موضوعية تستحق الاهتمام ، ولكن المرء لا يستطيع الموافقة على اطروحات هذا العالم فهو يكتب مثلا ان المؤسسات الفنية تحمل طابع بنية فوقية ، أما الروابط البشرية بداخلها فهي ذات بنية ايديولوجية ، ولان هدف هذه المؤسسات هو التأثير الفكري ـ الجمالي بالمجتمع ، فاننا أمام علاقات ايديولوجية ذات طبيعة جمالية تنمو على أرضية الاساس الاقتصادي القائم (٦٠)

من المعروف انه يوجد بين العاملـــين في المؤسسات الفنية روابط اجتماعية مختلفة كالروابط الاخلاقية والحقوقية وغيرها وليس مـــن المعقول تحويلها جميعا الى روابط جمالية لمجرد ان هدف هذهالمؤسسات هو التأثير الفكري ـ الجمالي بالمجتمع وليس مـن المعقول تصنيف العلاقات بين الفنانين كعلاقات جمالية ، لمجرد انها تقوم بين فنانين وفي نفس الوقت يشرح يجوروف العلاقات المتبادلة بين الفنانيـن ومستهلكي الفن ـ وهي علاقات يمكن اعتبارها فعلا علاقات جمالية ـ قائلا بيـن القارىء والكاتب وبين الجمهور والفنانين تتشكـــل في كل مجتمـع روابط ذات طبيعة جمالية ، ترتبط دوما بصورة وثيقة مع العلاقات السياسية والاخلاقية وغيرها من الروابط الايديولوجية (٦١)

الملاحظات السابقة حول العلاقات الجمالية تمكننا من الاستنتاج بأن لهذه العلاقات وجودا واقعيا ، وان كان ايضاح طبيعتها وطابع شكلظهورها لا يزالان بحاجة لدراسات اكثر علمية وعلى كل حال فان أساس ظهــور العلاقات الجمالية ونشوء الفعالية الجمالية يتمثل فيما هو جميل فيالواقع نفسه وليست الروابط الجمالية سوى تقييم لظواهر العالم منمنظورات نوعيتها الجمالية

نشأت العلاقات الجمالية كروابط للانسان مع الواقع ومع تكوّن الفن كفرع خاص للانتاج الفكري بدأت هي تظهر أيضا كروابط بين البشر في هذه الحالة غدا موضوعها هو الخلق الفني اعادة انتاج ما هو جميل في الفن وتعزز الطابع الاجتماعي لرابطة الانسان الجمالية مع الواقع من خلال العلاقات المتبادلة للبشر المنصبّة عـلى الفن ومنذ المجتمـع القديم تمثل العلاقات الجمالية واحدا مـــن الانواع الاساسية لعلاقات البنيـــة الفوقيـــة

يرتبط الوعي الجمالي ارتباطا مباشرا بالعلاقاتالجمالية وترابطهما مزدوج فمن جهة تتكون على أساس الاحاطة الجمالية بالواقـع الروابط المطابقة معه ، ومنجهة ثانية تكوّن الروابط الجمالية نفسها أساسا لتعيين وعي البشر

لا يمكن الكشف عن خصوصية ومحتوى الوعي الجمالي الا بالارتباط مع الصفات الخاصة للعلاقات الجمالية وهذا أمر مفهوم ، فالوعي يتحقق في علاقات ويظهر بواسطتها هكذا تترتب عـــلى الاحساس الجمالي ،

بالضرورة ، معاناة تعبر عن تقييم جمـــالي لموضوع الاحساس .والمعاناة الجمالية هي التعبير المباشر عن الرابطة الجمالية للانسان مع الواقع وهي التي تمنح الوعي الجمالي صفاته النوعية المميزة

ويترتب على المعاناة الجمالية ، كرابطة للانسان مع الواقع ادراكها ادراكا متناسبا معها فالرابطة النفعية ـ العملية ترتبط مع ادراك لعالم الانسان ، ينصبّ على تفسير جدواها العملية في عملية الادراك هـذه يفرز البشر تلك القسمات والصفات التي تلازم الاشيـــاء والموضوعات والجوهرية من منظور فائدتها العملية ومن البدهي ان هذا الفرز تلازمه عواطف معينــة

وتنصبّ الرابطة الجمالية على ادراك الواقع في مستوى آخر مـن مستوياته ، مع العلم بأنها نشأت تاريخيا وتكونت بالارتباط مـع الروابط النفعية ـ العملية وعلى أساسها في الرابطة الجماليـة لا تحرك الفائدة العملية البشر ، بل تحركهم الحاجة لالتقاط الصفـــات النوعية الجمالية لظواهر الواقع ويترتب على الصفات النوعية الجماليـة المكتشفة سلم خاص من أنواع المعاناة ، بما فيها السعادة بالامكانات الخلاقة للانسان ، حين يقيّم البشر الاشياء والموضوعات التي خلقوها

يتميز الوعي الجمالي قبل كل شيء بطبيعته الشعورية والعاطفية « وتكمن صفته الخاصة الاساسية في ان موضوعه يدرك بصورة عاطفية ، في وحدة لا تنفصم لما هو جـــوهري وظاهري ، داخلي وخارجي ، كمّي ونوعي فيه » (٦٢) ويمكن الوصول الى هوية العلاقات الجمالية ، والوعي الجمالي ، من خلال الذوق الجمالي للبشر ، أي مـن خلال قدرتهم عـلى تمييز الجميل من القبيح ، والسامي من السوقي ، والمأساوي من الملهاوي، وقدرتهم على التفريق بين ما يعجبهم وما لا يعجبهـــم ، وما يثير تعاطفهم أو نفورهم الخ ان الذوق يتشكل ، شأنـــه شأن الـوعي الجمالي عموما ، تحت نفوذ التجربة الحياتيـــة للبشر ، وللفن الهادف الـى تربية الذوق السليم لديهم

وتحتل مثل البشر العليا مكانا هاما في الوعي الجمالي وهذا امر مفهوم ، اذ ان تصوراتهم حول ما هو كامل وملائم مـــن الناحية الجمالية تنشأ بالضرورة مع تطور المعاناة والذوق الجماليين ويجسد المثل الاعلى الجمالي ما هو كامل وملائم في شكل مشخص ـ شعـوري ، ويكون اهم

مقياس عند تقييم البشر الجمالي للواقع ويمثل المثل الاعلى فضلا عن ذلك مقياسا للخلق الجمالي بقدر ما يعبر عن بواعث وأهداف الفعالية البشرية

ويتم ادراك العلاقات الجمالية فكريا في نظام محدد من الآراء التي تمثل بدورها جزءا من الوعي الجمالي ان منظومة هذه الآراء هي علم الجمال ، وهو يضم من الناحية النظرية الانواع المختلفة من الروابط الجمالية للبشر مع الواقع وفيما بينهم ، والتي يحتل الفن في ظلها المحل الاول كظاهرة خاصة للممارسة الاجتماعية ، وللانتاج الفكري للبشر

على الصعيد السوسيولوجي يبدو الفن كفعالية انسانية قبل كل شيء ، كخلق وفق قوانين الجمال ، وكعلاقة جمالية مع الواقع كذلك يجب على المرء أن يعتبر الفن وعيا تميزه الاحاطة التقييمية الشعورية للواقع ويمكن استخلاص الوعي الجمالي للبشر في مجتمع ما من الفن وان كان محتوى الفن اشمل من الوعي الجمالي فالفن يعبر عن مجموع الوعي الاجتماعي الواقعي لعصر ما

ان دور الوعي الجمالي ، وعلى رأسه **الفن** ، هام جدا في المجتمع وخاصة في المجتمع الاشتراكي والوعي الجمالي هو جانب من الروابط الجمالية للبشر مع الواقع وفيما بينهم ويكمن دوره في تطوير الانسان كما يكمن غناه في تنوع روابطه وعلاقاته وتغني المشاعر ، والذوق والمثل والآراء الجمالية ، التي تعبر عن نفسها في روابط جمالية ، حياة البشر وتجعلها اكثر تنوعا واسمى موضوعا ويلعب الفن دورا خاصا في هذا السياق ، حيث تعيد صوره الفنية انتاج الجوانب الموضوعية الجوهرية للحياة الاجتماعية ، الى جانب وجوهها الذاتية الاساسية ، وهما يشكلان معا وعي البشر الواقعي

الوعي الفلسفي :

« لقد فسر الفلاسفة العـــالم بصور مختلفة ، ولكـــن الشيء الرئيسي هو تغييره »

ماركس

يرتبط الوعي الفلسفي شأنه شأن غيره من أنواع الوعي بروابط اجتماعية والواقع ان هذا الارتباط يحمل طبيعة توسطية لذا لا يقيم المرء في العادة علاقة مباشرة بين الفلسفة وأنواع معينة مـــن العلاقات ولكن عند اجراء تحليل سوسيولوجي للـــوعي الفلسفي تكتسب مسألـــة ارتباط هذا النوع من الوعي مع العلاقات الاجتماعية أهمية خاصة

بحسب طبيعته يعتبر ارتباط الوعي الفلسفي معالعلاقاتالاجتماعية. من حيث المبدأ ، نفس ارتباط الوعي الديني والجمالي ان موضوعها هو روابط الانسان مع عالمه ، في حين تعتبر العلاقات الاخلاقية والسياسيـــة والحقوقية روابط بين البشر ولا يستطيع المرء أن يعتبرها علاقات بنية فوقية من الدرجة الاولى الا بحدود وعندئذ ستكون روابط الانسان مع العالم ، وبها يرتبط الوعي الديني والجمالي والفلسفي علاقاتبنية فوقية من الدرجة الثانية

هل هناك علاقات يمكن تصنيفها كعلاقات فلسفيـــــة ؟ من الصعب الاجابة على هذا السؤال وان كان من المؤكد حتى في حالة عدم وجود علاقات كهذه في الواقع ان مسألة ارتباط الـــوعي الفلسفي بالعلاقات الاجتماعية ستبقى مطروحة لان هذا النوع من الوعي كالوعيالاجتماعي اجمالا ، مرتبط بالمجتمع وتابع له ان الفلسفة ترتبط ، مثل الوعيالديني والجمالي ، من حيث المنشأ والوظيفة بروابط الانسان مع الواقع ، وروابط البشر مع بعضهم

تهتم الفلسفة قبل كل شيء بعلاقة الفكر مع الوجود والوعي مـــع المادة . والوعي هو انعكاس للوجود ونتاج له ، غير انـــه ليس ، بحسب

جوهره ، انعكاسا للواقع فقط بل هو أيضا رابطة مع العالم ، مع الوجود الذي ينتجه وتدرس روابط الوعي مع الوجود بصورة مفضلة على صعيد معرفي ومع ذلك فمن الممكن تحليل هذه الرابطة المتبادلة على صعيد سوسيولوجي وتشير جملة لينين القائلة ان الوعي لا يعكس العالم فقط ، بل يخلقه أيضا ، الى ضرورة اجراء تحليل سوسيولوجي لهذه العلاقة فالرابطة الخلاقة للوعي مع العالم يمكن أن تدرك بصورة عقلانية كرابطة اجتماعية فقط وفي الواقع فان « **الافكار لا تستطيع أن تنفذ اي شيء** بل ان تنفيذ الافكار بحاجة الى البشر الذين يقدرون على حشد طاقة تنفيذية فعلية (٦٣)

ليست الافكار ، بل البشر الذين يملكون أفكارا هم الذين يتخذون سلوكا واقعيا حيال العالم وعلى صعيد سوسيولوجي تعتبر علاقة الافكار بالوجود ، بالتالي ، علاقة للبشر بالعالم والفلسفة التي تدرس العلاقة المتبادلة بين الفكر والوجود ، الروح والمادة ، يجب أن تهتم بالعلاقة بين الانسان والعالم وهذا يمدنا بالاساس الذي يمكننا من التحدث عن ارتباط واقعي للفلسفة مع العلاقات الاجتماعية فمن خلال هذا الارتباط تبرز الصفة الخاصة للفلسفة كنوع خاص من الوعي وتتضح وظيفتها في حياة المجتمع وفي نفس الوقت تنفتح امكانية فهم افضل لطبيعة تلك العلاقات التي تعمل الفلسفة لخدمتها

الفلسفة هي كسواها من انواع الوعي نظام من الآراء حول العالم المحيط بالانسان فأين تكمن خصوصية هذه الآراء ؟ تجيب الفلسفة على الاسئلة حول بنية العالم حسب طبيعته ، وما اذا كان هناك شيء عام تشترك فيه كل موضوعات وظواهر العالم المحيط بالانسان ، واذا كان هناك هذا الشيء العام ، فأين يكمن وما اذا كان بوسعنا معرفة موضوعات وظواهر الواقع، واذا كان هنا ممكنا، فماذا تعني عندئذ الحقيقة ؟ ...الخ.

يجمع الماديون والمثاليون على ان الفلسفة تهتم بدائرة خاصة من الاسئلة المنصبة على الروابط المتبادلة بين الوعي والوجود ، اي المسائل المرتبطة بنظرة الى العالم وتكمن الصفة النوعية للفلسفة في انها نظرة البشر الى العالم

لم تجد الفلسفة صفتها النوعية هذه مرة واحدة فقد بقيت لفترة طويلة تضم ، الى جانب المسائل الخاصة بها المرتبطة بالنظرة الى العالم ،

مسائل علمية متفرقـــة ان خصوصيتها لم تكن قد برزت بعـد بصورة واضحة كما ان هذه الخصوصية كثيرا ما طمست حين كانت أقسام وفروع من الفلسفة تفصل عن بعضها الامر الذي حال دون الوصول الى تصور واضح حول الطريقة التي تحل بها كل فلسفة مسألة الرابطة المتبادلة بين الفكر والوجود لقد أعطى ((**كانت**)) مثلا لنظريه المعرفة الافضليـــة حيال سائر المجالات الجزئية الاخرى التي كانت الفلسفـــة تتضمنها في الماضي. واذا كان قد اعترف بوجود الاشياء بذاتها أي اعترف بوجود أشياء خارج وعينا ومستقلة عنه فانه نظر الى مسائل المعرفة معزولة عن نظرية الوجود ولهـــذا كانت أشكال المعرفـــة لديه خالية من المحتوى الموضوعي

وتشترط الاجابة على مسألة العلاقة المتبـــادلة بين الفكر والوجود انشاء رابطة بين قوانين المنطق وقوانين العالم الموضوعي وعند ((**كانت**)) ينظر الى قوانين المنطق خارج مثل هذه الرابطة وحسب نظريته يعتبر عالم الاشياء بذاتها و عالم الظواهر منفصلين عن بعضهما

وزاد من صعوبة معرفة الصفة النوعية للفلسفـــة ما قبل الماركسية انها ادعت لنفسها القدرة على اعطاء تفسير كوني ـ شامل ـ للعالم وعلى معرفته بصورة كاملة لقد أرادت فلسفات الماضي أن تضع منظومات من المعارف حول العالم بمجمله تسمو فوق سائر العلوم الاخرى فزعمت فلسفة الطبيعة انها وضعت صورة عامة للطبيعة ككل واحد موحد وقد ركبت هذه الصورة باحتواء تصورات حول الطبيعة اقتبستها من العلوم الطبيعية المتفرقة وباحـــلال روابط خيالية محـــل الروابط والظواهر الواقعية التي لم تهتد الى معرفتها وتركيبات خيالية ذهنية محل معرفة الحقائق ان الصورة التي وضعت بهذه الطريقة عن الطبيعة ككل موحـد كانت بعيدة كل البعد عن الواقع وكانت ثمرة للتوهم أكثر مما كـــانت انعكاسا لروابط وعلاقات واقعيـــة وبنفس القدر كانت صورة الحياة الاجتماعية التي خلقتها فلسفة التاريخ بعيدة عن الواقع فقد احلت محل الروابط الفعلية بين البشر في عملية انتاج السلع المادية ، وفي مجـــال الحياة السياسية وغيرها من المجالات ارتباطات وهمية

ان **المادية الجدلية** ليست فلسفة بالمعنى القديم وليست علم العلوم، ولا نظام المعرفة النهائية للعالم بل هي فلسفة بالمعنى الاصلي للكلمـــة فهي تقيـــد نفسها تماما بحل المســـائل المرتبطة بالنظرة الـــى العـــالم .

وبما انها تحل هذه المسائل من مواقع مادية ، فانها تكشف اكثر قوانين تطور الواقع عمومية ، وتمثل في الوقت نفسه المنهج الشامل للوصول الى المعرفة

ان التعيين الصحيح لخصوصية الفلسفة قد ارتبط مباشرة بنتائج معرفة الطبيعة والظواهر الاجتماعية ، مع العلم بأن اسباب هذه المعرفة تكمن في حاجات التطور الاجتماعي ان تطور علم الطبيعة قاد الى وضع مفهوم جدلي ـ مادي للطبيعة ، والى البرهان على ان فلسفة الطبيعة متهافتة في حين أظهر المفهوم المادي للتاريخ تهافت فلسفة التاريخ وتميز الاتجاه الجديد في الفلسفة الذي وضعه ماركس وانجلز ، عن الفلسفة القديمة في ان « النظرة المادية الى العالم قد أخذت هنا ، وللمرة الاولى ، على محمل الجد فعلا ، وطبقت بحزم على سائر مجالات المعرفة في أسسها العامة على الاقل (٦٤)

وقد قادت النظرة المادية حيال العالم الباحثين في مجال علوم المجتمع والطبيعة الى اسقاط الروابط الفكرية الوهمية حول المجتمع والطبيعة واكتشاف الروابط الفعلية المتنوعة وقد حددت مهمة الفلسفة كمجال خاص للمعرفة في كشف القوانين العامة التي تظهر في العالم المحيط بالانسان

كانت معرفة الصفة النوعية للفلسفة في جوهرها معرفة للعلاقة الواقعية بين الفكر والوجود ، والوعي والمادة ولم تكترث الفلسفات السابقة للماركسية دوما بحقيقة ان موضوعها هو العلاقة بين الفكر والوجود ، الوعي والمادة ، لذا فان هذه العلاقة لم تعالج دوما بصورة حازمة وقد قال انجلز في وصف الفلسفة المادية للعصر القديم انها كانت « مادية خام وطبيعية ولم تكن قادرة على التصدي بنجاح لمسألة العلاقة بين الفكر والمادة (٦٥) واكد في حديثه حول المادية القديمة ـ بما فيها مادية فويرباح ـ انها كانت واضحة الى حد ما فيما يخص العلاقة بين الفكر والوجود في **الطبيعة** دون **التاريخ** انها لم تر ارتباط الفكر المعطى بالظروف التاريخية ـ المادية القائمة (٦٦)

ان مسألة العلاقة بين الفكر والوجود هي المسألة المركزية في الفلسفة وقد ادى حلها الحازم لتحول الفلسفة الماركسية الى نظرة حيال العالم بكل معنى الكلمة انها ، باكتشافها اكثر قوانين التطور في

الطبيعة والمجتمع والفكر البشري عمومية ، تصلح كمنهج عام لسائر علوم الطبيعة والمجتمع ، وكأساس نظري للتغيير الفعلي للعلاقات الاجتماعية

لم يكن حل المسألة المركزية للفلسفة ممكنا دون الاستناد الى العلم وكما قال انجلز ، فانه بنشوء الفلسفة الجديدة قد ربطت أسس المادية القديمة مع المحتوى الفكري لتطور الفلسفة وعلوم الطبيعة خلال ألفي عام ، ولتاريخ هذين الاعوام الالفين نفسه فضلا عن ذلك فقد حدث التطور ذي السنوات المائة للفلسفة الماركسية على أساس تقييم التبدلات الهائلة في حياة المجتمع ، والتطور العاصف للعلوم هذا هو سر طابعها العلمي بالمعنى الحديث للكلمة

الفلسفة الماركسية هي نظرة الى العالم أي مفهوم مادي ـ جدلي للعالم الى جانب ذلك يشار الى ان الفلسفة ليست فقط نظرة الى العالم، بل هي أيضا نظرية معرفه انها نظرة الى العالم بقدر ما تحل المسألة المركزية في الفلسفة ، مسألة ما هو أولي ، المادة أم الوعي وهي نظرية معرفة عندما تجيب على الوجه الآخر من المسألة الفلسفية الرئيسية مسألة كيف تسلك معرفتنا حيال العالم ويبدو لنا من غير الصحيح قصر الطابع المميز للفلسفة ، كنظرة الى العالم ، على تقرير الوجه الاول من المسألة الرئيسية للفلسفة فبدون تفسير علاقة الذات العارفة بالعالم الموضوعي الذي يقع عليه فعل المعرفة ، أي بدون الوجه الثاني من المسألة الفلسفية ، لن يستطيع المرء التحدث عن الفلسفة كنظرة حاسمة الى العالم ان حل المسألة الاونتولوجية الرئيسية (مسألة أولوية المادة أو الوعي) خارج نظرية المعرفة ، معزولة عن الموقف الذي يتخذه فكرنا حول العالم وحياله ، وبعيدة عن مسألة ما اذا كانت تصوراتنا وآراؤنا انعكاس صحيح للعالم ، يؤدي بالضرورة الى تعارض المحتوى الموضوعي للمعرفة مع شكلها الذاتي والفلسفة هي نظرة الى العالم ، لانها تحل مسألة علاقة الوعي مع المادة على صعيد وجهيها السابقين

اما ما يخص الفلسفة القديمة ، وكانت موزعة الى اجزاء متفرقة ـ ومتعارضة غالبا ـ فان طبيعتها كنظرة الى العالم كانت تنسحب فقط على أونتولوجيتها لقد كانت تطمح الى احتواء كل المعارف حول العالم ولم تكتف بدورها كنظرة اليه أما المادية التاريخية فهي ، كنظرة الى العالم ، نظرية القوانين العامة للعالم ، ونظرية معرفة ومنهج معرفة عام وفي الماركسية تم تجاوز ذلك الانفصال الذي كان يميز مكونات الفلسفة

القديمة ، وبخاصة الانفصال بين نظرية الوجود ونظرية المعرفة ان نظرية المعرفة تتضمن ، كشرط أولي ، الاعتراف بموضوعية العالم ، ولا يستطيع المرء أن ينظر اليها خارج النظرة الى العالم

يقول **كارافايف** و **شاريبوف** بحق ان الماركسية هي « نظرة الى العالم بكل المقاييس ، فهي تمثل نتيجة معينة للمعرفة (الصورة العلمية عن العالم في كل مرحلة من التطور التاريخي) ، وفي نفس الوقت يملك محتوى المادية الجدلية **اهمية منهجية** بالنسبة لمعرفة العلوم المختلفة (٦٧)

الفلسفة هي اذن ، في جوهرها ، نظرة الى العالم بيد ان جوهرها ، كنظرة الى العالم ، لا يكمن في انها صورة العالم العلمية في كل مرحلة من التطور التاريخي ، فالفلسفة عند بليخانوف هي تركيب الوجود الذي صار وعيه دون أن تكون بعد الصورة العلمية عن العالم مثل هذه الصورة لن تنتج الا عن مجموع العلوم الطبيعية والاجتماعية ويقر **كارافايف** و **شاريبوف** بذلك ، حين يكتبان

« ان مهمة خلق صورة علمية عن العالم (أو نظرة علمية اليه) ليست بأي حال مهمة الفلسفة لوحدها ، بل هي تدخل في مجال مسؤولية سائر فروع المعرفة الموضوعية ، في مجال مجموع علوم الطبيعة والمجتمع . ولا يجوز مماثلة النظرة الى العالم مع الفلسفة مماثلة كاملة » (٦٨) .

في ادبياتنا نصادف وجهة النظر القائلة ان المبادىء النظرية الرئيسية في تناول ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية » هي وحدها التي تملك اهمية كنظرة الى العالم (٦٩) فما هي الملامح التي تعين هذه المقاييس ؟

في كتاب بناء الشيوعية والعالم الفكري للانسان ، الذي طرح هذه الفكرة ، لم يوضع أي مقياس ، وان كان يقال ان النظرة العلمية الى العالم هي منظومة الآراء الفلسفية والاقتصادية والسياسية ـ الاجتماعية للماركسية ربما كان الامر كذلك بيد اننا نعتقد ان المبادىء النظرية الرئيسية في تناول ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية لا يمكن وضعها الا من قبل الفلسفة ان علاقة الفكر بالوجود ، وهو جزء من موضوع الفلسفة ، هو في نفس الوقت المقياس الذي يسمح بوضع المبادىء النظرية ذات الاهمية بصفتها تتضمن نظرة الى العالم والمبادىء النظرية التي تعلل المفهوم المادي ـ الجدلي عن العالم ومنهجها المعرفي الكوني الذي

يلعب دورا منهجيا في اي بحث علمي ، هما اللذان يضفيان على الماركسية طابعها كنظرة الى العالم

منذ وقت طويل وصل الانسان الى القناعة بأن مبادىء نظرة ما الى العالم تخدم الانسان كدليل الى العمل الفعلي ، وكأداة للتأثير علىمجريات الاحداث التاريخية هذا الواقع يؤدي ببعض العلماء الى استخدام مفهوم « النظرة الى العالم » بمعناه الواسع ، بادخال آراء اقتصادية وسياسية ـ اجتماعية اليه ، الى جانب ما يتضمنه من آراء فلسفية ولكن حين يسير الانسان على هذا الطريق ، فان النظرة الى العالم » لا يمكن ان تقتصر عندئذ على الآراء المذكورة ، بل يجب أن تمتص جملة المعرفة البشرية ، وهو ما سيفقدها معناها الاصلي. ان مفهوم النظرة الى العالم يقصد به في العلم ، وبشكل صارم ، الفلسفة دون سواها

وترتبط الفلسفة كنظرة الىالعالمبالفعالية العملية للبشر، وبالعلاقات الاجتماعية ارتباطا وثيقا في المجتمع الطبقي تمثل هذه العلاقات روابط بين الطبقات والفلسفة هي منذ نشوئها حتى اليوم نظرة الى العالم لطبقات مختلفة فالمادية هي في القاعدة نظرة الطبقات التقدمية الى العالم ، والمثالية نظرة الطبقات الرجعية والفلسفة تعلل نظريا مصالح الطبقات ، وأهدافها ومهماتها النضالية وهذا يصح بنفس القدر بالنسبة لفلسفات الماضي والحاضر يقول ماركس عن الفلسفة المادية ـ الجدلية ان البروليتاريا قد وجدت فيها أسلحتها الفكرية ولكن الفلسفة ما قبل الماركسية وخاصة اتجاهها المادي كانت شرطا نظريا للعمل الاجتماعي. وحسب كلمات انجلز فقد سبقت الثورات الفلسفية الثورات الاجتماعية فكانت الراية النظرية لتحقيق تلك الثورات هكذا كانت مادية القرن الثامن عشر الفرنسية مدخلا للثورة السياسية وقد وعى الفلاسفة ضرورة ازاحة العلاقات الاقطاعية الاجتماعية التي تحولت الى عقبة في وجه التطور التقدمي للمجتمع كأحد متطلبات جوهر وحاجات الانسان و الطبيعة البشرية وكمطلب للعقل وتوجه الماديون الفرنسيون الى العقل كحكم وحيد حين كانوا يطالبون بازاحة الانظمة القديمة والمؤسسات القديمة والاتجاهات القديمة وباقامة دولة ومجتمع عقليين وكان العقل الذي توجهوا اليه كما قال انجلز هو في الواقع فهم المواطن الوسطي (العادي) وقد اضفي عليه طابع مثالي ، بعد ان اخذ هذا المواطن يتطور ليصبح بورجوازيا ولقد تم تبرير متطلبات

التطور الراسمالي للمجتمع ومصالح البرجوازيين بقوانين العقل الخالد ان الفلسفة لم تكتشف قوانين التطور الاجتماعي ، وطرق وأساليب التغير الاجتماعي الجذري ومع ذلك فقد لعبت دورا موضوعيا دون شك وقد استندت القوى الاجتماعية التقدمية التي أنجزت الثورة المعادية للاقطاع على المادية نظرة لها الى العالم وعبر دور المادية عن نفسه في توجهها ضد الدين والكنيسة ، القوتان اللتان كانتا تكبلان البشر فأثبتت بذلك العلاقة الناشطة للبشر مع العالم

هذه الصفة الاخيرة هي السمة المميزة للمادية كنظرة الى العالم وان كانت لم تبرز بصورة كاملة الا مع نشوء المادية الجدلية لقد تجاوزت الفلسفة الماركسية للمرة الاولى الطبيعة التوفيقية للمادية القديمة تجاوزا نهائيا وكشف بذلك عن العلاقة الناشطة مع العالم كجوهر للنظرة المادية اليه وحتى في أطروحات ماركس حول فويرباخ التي مثلت حسب كلمات انجلز البذرة العبقرية للمادية الجديدة ، تبرز هذه الناحية بكل تحدد ووضوح **« لقد فسر الفلاسفة العالم بصورة مختلفة فقط ، ولكن الشيء الرئيسي هو تغييره » (٧٠) .**

والفاسفة الماركسية هي بوصفها نهاجية لمعرفة واستخدام القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع أداة لتغيير الواقع ويرتبط مفهومها المادي ــ الجدلي عن العالم مع طابعها الثوري قال **ماركس**

> **« في صيغته العقلانية يعتبر الديالكتيك بالنسبة للبرجوازية والمدافعين عن عقائدها ، نوعا من التنغيص والرعب ، لانه يضيف ، الى الفهم الموضوعي لما هو قائم ، فهم نفيه واندثاره الضروري ايضا ، ولانه يدرك كل شكل صائر في سياق الحركة ، أي من وجهه الفاني ايضا ، ولان جوهره نقدي وثوري » (٧١)**

وفي العصر الراهن عصر تحطيم الراسمالية في سائر بقاع الارض وبناء النظام الاشتراكي الجديد تعتبر الفلسفة المادية ــ الجدلية نظرة تلك القوى حيال العالم التي تناضل من أجل انتصار النظام الجديد وهي تتعارض مع الفلسفة المثالية التي تتمسك بها القوى المحافظة والرجعية وبين هذه النظرات المتعارضة الى العالم يوجد صراع متصل وحاد فالنظرة المادية ــ الجدلية الى العالم التي تكشف القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي تفسر ضرورة افناء الرأسمالية التي تحولت الى عقبة في وجه التطور التقدمي للمجتمع . اما الفلسفة المثالية . المدافعة

عن مصالح البرجوازية ، فهي تخوض الصراع مع مصالح المجتمع وتطمح لتعزيز النظام الرأسمالي وتقدم الفلسفة البراجماتية مثالا على ذلك فقد أدت التغيرات العظيمة في العالم الى ازمة عامة للرأسمالية والى تقوية لا مثيل لها لنزعة الدفاع عنها من قبل كل مدارس الفلسفة البرجوازية في هذا السياق نشأت أيضا :البراجماتية وقد حاول مروج هذا الاتجاه ، **جون ديوي** في عشرينات هذا القرن أن يبرر ضرورة تغيير الفلسفة بهدف تأهيلها للدفاع بصورة أفضل عن الرأسمالية وكتب في مقدمة كتابه اعادة بناء الفلسفة الذي أعيد اصداره في الاربعينات ان ضرورة هذا التركيب الجديد للفلسفة قد تعاظمت في عصرنا الراهن فقد هزت الحرب العالمية الاولى الايمان بتطور متسق وبحركة أكيدة نحو السلام والوئام وتعاظم القلق في العصر الراهن ففدا انعدام الايمان وتفاقم النزاعات شيئا عاما وصار الاضطراب والتشاؤم المزاج السائد ويلقي الخوف على المستقبل بظله على سائر جوانب الحياة

يدرك ديوي خطورة الوضع الذيتوجد فيهالرأسمالية فيالعصر الحالي. وهو يحاول ايجاد سبل لتجاوز مصاعبها ويظن انه وجدها فيما أسماه اعادة تركيب الفلسفة عن طريق نسيان سائر أطروحات الفلسفة اليونانية (وهو يفكر هنا بجانبها المادي وسائر النظريات حول الواقع والمعرفة وفهم الاشياء بأكثر الصور بساطة وبدائية ويقترح ديوي اسقاط تفسير المعرفة بوصفها كشفا لصفات الواقع القائم قبل حدوث عملية المعرفة ويعتقد انه لا يوجد واقع يسبق حدوث المعرفة ويستقل عن البشر تكمن اعادة تركيب الفلسفة اذن في استبدال المادية بمثالية ذاتية تسمح بتقنيع العلاقات الفعلية والبراجماتية بانكارها موضوعية الواقع واعلانها ان ما هو مفيد هو حقيقي في نفس الوقت تعمل للدفاع عن مصالح وتصرفات الطبقات السائدة ، ولصياغة وعي البشر الذين يعيشون في المجتمع البرجوازي بما يتوافق وهذه المصالح

يعبّر الصراع بين الفلسفتين المادية والمثالية في العصر الراهن عن صراع طبقات ذات مصالح متضاربة ويوضح الصراع في مجال النظريات التي تطرح مسألة العلاقة بين الفكر بالوجود والوعي بالمادة انموضوع الصراع هو هنا النظرات المختلفة الى العالم ، وانه أي الصراع هو السمة الجوهرية للفلسفة في أيامنا ويجعلنا هذا الصراع نعرف بحق ان

العلاقات الطبقية هي القوة المحركة للتقدم الاجتماعي والفلسفة ، كنظرة الى العالم للطبقات المختلفة ، هي اكثر الجوانب الفكرية أهمية في الروابط بين الطبقات وهي تتحقق في هذه الروابط ، بدفع الطبقات نحو القيام بأفعال معينة تمس ، في النهاية ، النظام الاجتماعي القائم

تعترف الادبيات الفلسفية بأنواع الوعي الاخلاقية والسياسية والجمالية كتكوينات قائمة بذاتها للوعي الاجتماعي وثمة في الوعي الاجتماعي أيضا أفكار وتصورات أخرى يمكن اعتبارها ، في رأينا ، أنواعا قائمة بذاتها للوعي وأنا أفكر ، في هذا الصدد ، بالتصورات والآراء الاقتصادية التي لا توجد على صعيد المعرفة العلمية ـ النظرية فقط (كاقتصاد سياسي) ، بل على صعيد تصورات وآراء الوعي اليومي المنتشرة في كل مجتمع ويبدو لنا انه من الضروري تمييز الآراء والتصورات الاقتصادية كنوع قائم بذاته من الوعي داخل بنية الوعي الاجتماعي على كل حال يحتاج هذا التخمين الى تبرير دقيق يستند الى دراسة خاصة للوعي الاجتماعي يجريها اقتصاديون وسوسيولوجيون لذا فاننا نقصر جهدنا هنا على هذا السؤال العام حول امكانية فرز الآراء الاقتصادية كنوع خاص من الوعي الاجتماعي، دون الادعاء بأننا قد تصدينا لحل هذه المسألة

ويكمن تبرير مثل هذا العزل للوعي الاقتصادي كنوع خاص من الوعي، حسب رأينا ، في الصفات الخاصة لعلاقات الانتاج كما هو معلوم فان علاقات الانتاج تتكون على أساس متطلبات القوى المنتجة المادية بالاستقلال عن ارادة ووعي البشر والبشر الذين يدخلون في علاقات انتاج معينة يعون هذه العلاقات عاجلا أم آجلا ، ويتصرفون بالتطابق مع هذا الوعي وتمر علاقات الانتاج الاشتراكية عند نشوئها من خلال وعي البشر ، دون أن تنقطع عن أن تكون مادية بطبيعتها ، أي مرتبطة بتأثير القوانين الموضوعية لتطور الانتاج والبشر يعون علاقات الانتاج في شكل أفكار وآراء مختلفة، ومنها الآراء والافكار الاقتصادية ، بوصفها انعكاسا مباشرا لهذه العلاقات. ان طريقة تأثير علاقات الانتاج ترتبط بالوعي الاقتصادي ، وخاصة في ظل الظروف الاشتراكية ونحن نكرر ان ماديتها لا تحول دون قيام البشر بفعالية واعية في مجال الانتاج

تمثل علاقات الانتاج قبل كل شيء علاقات بين البشر بخصوص انتاج وامتلاك وسائل الانتاج ، أي بخصوص علاقات ملكية وسائل الانتاج.

وتحدد علاقات الملكية طابع الانتـــاج نفسه ، بحسب ما تكون فردية أم اجتماعية ، وما تهدف اليه من ارضاء الحاجات النامية أبدا لسائر أعضــاء المجتمع ، أم اغتناء بعض الافراد والجماعات وما اذا كانت تخضع لرقابة اجتماعية واعية ، أم تمثل نتاج تأثير قوى عفـــوية الخ وتحدد علاقات الانتاج أيضا نوع وطريقة توحيد قوة العمل مع وسائل الانتــاج حيث تعبر عن نفسها بصورة مباشرة الروابط المتبادلة للبشر في الانتاج الاجتماعي ، ويتحدد التوزع الطبقي للمجتمع في الانتاج يتبادل البشر فعالياتهم ويظهر طابع هذا التبـــادل ابان استخدام قدرات البشر في الانتاج الاجتماعي ، ووجود أو عدم وجود البطالة والاستهلاك الاقتصادي أو غير الاقتصادي للعمل ووسائل الانتاج وموقف الانسان من العمـل نفسه ان العلاقات المذكورة نشأت مباشرة في عملية الانتاج وهذا هو سبب تسميتها علاقات الانتاج ، ولكنها لا تستنفد نفسها فيها فالانتاج هو وحدة الانتاج المباشر والتوزيعوالتبادلوالاستهلاك. كتب **كارلماركس** :

« ان انتاجا معينا يحدد اذن استهلاكا وتوزيعا وتبادلا معينا ، والعلاقات المعينة لهذه العناصر المختلفة حيال بعضها » (٧٢)

ويشكل الانتاج أساسا لمجمل الحياة الاقتصادية للمجتمع وان كان لا يستنفذها ، فمفهوم الحياة الاقتصادية أكثر شمولا في محتواه من مفهوم « الانتاج » وينشأ في عملية الانتاج ضرورة قيادة وتنظيم العمل وتأهيل واعداد الكادر المناسب ويجب على البشر من أجل مواصــلة حياتهم ، تجديد الانتاج بصورة مستمرة ، واعادة انتاج قوة العمل دوما ومع اعادة الانتاج ترتبط مسائل الروابط المتبادلة بين العمل المنتج وغير المنتج ولان عملية الانتاج تشترط علاقات توزيع تنشأ ضرورة حــل مشكلة الرابطة المتبادلة بين الحاجات الاجتماعية ووسائل وطرق ارضائها. وترتبط العلاقة بين التبـــادل والاستهلاك في انتاج السلع بنظام مالي وبالتجارة الخ ويتضمن مفهوم الحياة الاقتصادية » فضلا عـن ذلك العلاقات الاقتصادية الدولية ، وجوانب معينة من حيـــاة البشر ويرتبط تنوع الحياة الاقتصادية للمجتمـــع بالفعالية الواعيـــة للبشر فيطرحون على أنفسهم ، لدى تنظيم الانتاج ، مهماتوأهداف مشخصة والحياة الاقتصادية للمجتمع لا يمكن التفكير بها دون العامل الذاتي ، دون الوعي الذي يعمل في خدمتها

في الادبيات الاقتصادية يصادف المرء بصورة متزايدة آراء تقــول

بضرورة أن يضاف الى الحياة الاقتصادية للمجتمع آراء وتصورات البشر التي تعكس هذا المجال من الحياة الاجتماعية ، أي تمثيل الجانب الفكري من الحياة الاقتصادية. مثل هذه الآراء تلاقي المعارضة. وتقوم الاعتراضات بصورة رئيسية في مفهوم معين حول المبادىء المنهجية للرابطة المتبادلة بين الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي ، أو بالاحرى بين القاعدة والبنية الفوقية ويشرح كرونرود لاولئك الذين يعترفون بالوعي الاقتصادي كشكل خاص من الوعي ، ويحسبونه من الحياة الاقتصادية ، ان :

« الحياة الاقتصادية هي مجمل العلاقات الاقتصادية الموضوعية ، وان الوعي يستطيع أن يعكس هذه العلاقات بصورة مباشرة ، وينصب على تحقيقها وتنظيمها ... الخ . ولكن ذلك لا يعني ان اي شكل من الوعي يعتبر من الحياة الاقتصادية ، اي انه لا يصبح عنصراً للحياة الاقتصادية ، بل شكلا لا ينفصل عن الوعي الاجتماعي ، ويكون بالتالي عنصراً للحياة الفكرية . وبكلمات أخرى مهما كان محتوى الوعي ، فانه كاحدى ظواهر الحياة الاجتماعية ، لا يستطيع أن يدخل كعنصر في العلاقات المادية للاقتصاد » (٧٣) .

هذا المفهوم يقيم اذن حدا فاصلا بين ظواهر الحياة الاقتصادية والفكرية وهو يستثني امكانية اعتبار الوعي ، الذي يعكس الحياة الاقتصادية مباشرة وينصب على تنظيمها وتحقيقها الخ ، جزءا من الحياة الاقتصادية نفسها فهل يجوز للمرء أن يقيم مثل هذا الحد الفاصل ؟ نعم ولا عندما يدرس المرء قضية أي من هذه الظواهر أولية وأيها ثانوية ، فان عليه أن يبرز دون شك موضوعية العلاقات الاقتصادية. ولكن حين يدور الحديث عن آلية عملها ، فان المرء لا يستطيع تجاهل وعي البشر الذين يقيمون روابط مع بعضهم وفي الحياة الواقعية ليست الظواهر الاجتماعية جزءا من مجال محدد ، بل يمكن لكل ظاهرة أن تكون جزءا من مجالات مختلفة وهذا يصح ايضا بالنسبة لظاهرة كالحياة الاقتصادية للمجتمع ، فهي تتضمن عنصرا فكريا واعيا

ان العنصر الفكري للحياة الاقتصادية هو الوعي الاقتصادي فأين تكمن خصوصية هذا النوع من الوعي ، حين يحاول المرء أن يميزه عن سواه من أنواع الوعي ؟

يعكس الوعي الاقتصادي ، حسب مفهومنا ، فعالية البشر وروابطهم في عملية الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك . وبالفارق مع غيره من

انواع الوعي الاجتماعي ينصب ّ الوعي الاقتصادي على نظام وتطور وضبط الحياة الاقتصادية ، وعلى البحث عن طرق معينة للاقتصاد وهو يضع مبادىء الادارة الاقتصادية بالتوافق مع مصالح الذوات الاقتصادية ويضم الاقتصاد قبل كل شيء تحديدا لموضوعه : ان كل ذات تختار ما يمكنها أن تنتجه على خير وجه ، أي تختار الانتاج الذي يرضي مصالح المستهلكين على خير وجه ، ووسائل وطرق الادارة الاقتصادية المتناسبة مع مستوى التطور المعطى للقوى المنتجة ويتضمن الاقتصاد التنسيق وتقسيم العمل ، تنسيق استخدام القوى البشرية التي تؤمن انتاجية العمل

مع تغير نمط انتاج ما تتغير أيضا طرق واشكال الاقتصاد ففي الاقطاعية مثلا كانت السخرة هي الشكل الرئيسي للاقتصاد حين كانت رابطة السلعة ـ النقد لا تزال ضعيفة التطور فيما بعد غدا الريع العيني واسناد الارض هما الشكل الاساسي لادارة الاقتصاد ثم مع تطور روابط السلعة ـ النقد ونشوء العلاقات الرأسمالية في حضن الاقطاعية صار الريع النقدي وتأجير الارض هما هذا الشكل

ويعبر الوعي الاقتصادي في رأينا ليس فقط عن طرق واساليب الاقتصاد ، بل عن الوضع الاقتصادي (الحالة الاقتصادية) للمنتجين أنفسهم أيضا وهو يحمل في المجتمع القائم على التناحر الطبقي طابعا طبقيا وينصب ّ من جهة على تعزيز السيطرة الاقتصادية للطبقات المستغِلة، ومن جهة أخرى على ازاحة علاقات السيطرة والخضوع هكذا ناضل العبيد في مجتمع ملاك العبيد من اجل تحررهم ، وفي سبيل توزيع الارض على المواطنين الاحرار وتبنى الفلاحون الاقنان في الاقطاعية مطالب اقتصادية تتضمن تحسين شروط العمل والتحرر من القنانة الخ وفي الراسمالية وعصرها يستيقظ الوعي الاقتصادي للكادحين بصورة متزايدة وهو ينصب ّ قبل كل شيء على تحسين شروط العمل ، وتحديد يوم العمل ، ومنع تشغيل الاطفال والنساء ، ورفع الاجور . . . الخ.

ويوضح تاريخ النظريات الاقتصادية كيف تغيرت الآراء والتصورات الاقتصادية للبشر مع تطور المجتمع في البداية يعبر الوعي الاقتصادي عن نفسه في شكل أفكار متفرقة ومفككة ، لكنه لا يلبث ، مع تطور المجتمع ، أن يتركز شيئا فشيئا في مقولات محددة ويبرز في شكل نظريات اقتصادية تندرج فيها المسائل النظرية والعملية للتطور الاقتصادي

ضمن ارتباط منطقي ويعتبر اكتشاف ومعرفة القوانين الاقتصادية التي توجه توزيع واستهلاك السلع المادية ، أعلى مرحلة في تطور هذا الوعي اي مرحلة تشكل وبروز الاقتصاد السياسي كعلم

لا يقتصر الوعي الاقتصادي على النظريات الاقتصادية بوصفها التعبير النظري عن نمط انتاج معين وتاريخ الآراء التعليمية الاقتصادية لا يقدم بعد تصورا كاملا للصفة النوعية لهذا النوع من الوعي وحتى في ظل الاشتراكية يعبر الوعي الاقتصادي عن نفسه على صعيد الآراء والتصورات النظرية واليومية ويفسر ذلك بأن المنتجين المباشرين في الاشتراكية ، المالكين لوسائل الانتاج والذوات الاقتصادية يقومون في نفس الوقت بوظيفة تنظيم وادارة الانتاج وهذا يتطلب منهم فهما عميقا ليس فقط للجانب التقني بل أيضا للجانب الاقتصادي للفعالية الانتاجية على مستوى المجتمع بأسره

في المجتمع الاشتراكي تنمو أهمية العامل الذاتي لدى تنظيم الانتاج الاجتماعي نموا هائلا فالانسان الاشتراكي لا يريد فقط معرفة القوانين الاقتصادية التي تتحكم بانتاج وتوزيع السلع المادية بل ايضا فن الاستخدام اليومي لهذه القوانين في نشاطه الواقعي بهذه الشروط فقط يستطيع البشر حقا اخضاع انتاج وتوزيع السلع المادية لارضاء حاجاتهم المادية ومن خلال ذلك يسيطر البشر للمرة الاولى في تاريخهم على علاقاتهم الاقتصادية الخاصة هذا هو سبب الاطروحة القائلة ان الآراء والتصورات الاقتصادية تشكل في الاشتراكية نوعا خاصا من الوعي الاجتماعي

ما هي صفات ومحتوى الوعي الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي ؟ في الاشتراكية ، حيث تسيطر الملكية الاجتماعية ويملك الانتاج هدفا واحدا ، هو الارضاء الكامل للحاجات المادية والثقافية النامية دوما لسائر أعضاء المجتمع ، تنشأ مصلحة واحدة لكل الشعب والوعي الاقتصادي هو في المجتمع الجديد انعكاس لهذه المصلحة وترتبط فعالية البشر في مجال الانتاج المادي وسواه من مجالات الحياة الاجتماعية بعمق واتساع هذا الانعكاس

ويتنوع محتوى الوعي الاقتصادي في الاشتراكية فقاعدته هي المعرفة والمهارة في استخدام القوانين الاقتصادية في ممارسة الاقتصاد انه الوعي بأن الاشتراكية لبست ممكنة الوجود دون الاسهام الخلاق

والناشط لسائر الكادحين في العمـــل الاجتماعي ودون الاستخدام الاقتصادي والعقلاني لوقت العمل وللمواد الاوليـــة وأدوات العمل ودون تخفيض تكاليف الانتاج والاشتراك في المباراة الاشتراكية

ان الفعالية الاقتصادية تمارس في مئات آلاف المصانـع المختلفة على يد ملايين من البشر واذا كان قسم من هذه الملايين منخرط مباشرة في العمل فان قسما آخر يدير ويخطط ويوجه عملية الانتاج وتختلف وظائف هؤلاء بصورة كبيرة عن وظائف المشتركين المباشرين في العمل وهو ما ينتج حتما فروقا في الوعي الاقتصادي لاعضاء المجتمع فيختلف محتوى الوعي الاقتصادي ، ودرجة امتلاكه باختلاف الفئات والمجموعـات الاجتماعية. ويشمل الوعي الىجانب معرفة أهداف تطور الانتاجوالوسائل العامة لتحقيقها ، معارف حـــول تنظيم العمل وادارتـــه في الصنـاعة والزراعة على مستـوى ورشة واحـــدة ، ومستوى منطقـــة أو فرع اقتصادي ومستوى الاقتصاد الوطني بمجمله

ان وجود هذه الآراء والتصورات تسمح بطرح السؤال عن التصورات والآراء الاقتصادية كعنصر ضروري للحياة الاقتصادية للمجتمع وكنوع خاص للوعي الاجتماعي عمـــوما وللوعي الاجتماعـي الاشتراكي بشكل خـــاص

قبل أن ننتقل الى الارتباط المتبادل لمختلف أنواع الوعي ، يجب أن ندلي بملاحظة حول مكان العلم في الحياة الفكرية للمجتمع لقـــد نشأ العلم تاريخيا كنوع خاص من الوعي الاجتماعي وبالاصل ربط الانسان مع مفهوم العلم آراء وتصورات البشر عن الطبيعة وارتبطت هذه مباشرة مع روابط البشر بالطبيعة خلال عملية انتاج السلع المادية ونمت العلوم الطبيعية من التجربة الانتاجية ومهارات العمـــل لدى البشر ثم شكلت نظاما للعلاقات الموضوعية حول الطبيعة قبل أن تتكون أنظمـة مماثلة من المعرفة حول المجتمـــع ومثلت في الوعي الاجتماعي العـلم باطلاقيتـــه

مع تطور المجتمع وامكانية معرفته ، انتجت انـواع الوعي ، المتعلقة بالروابط بين البشر ، في داخلهـا أنظمة مـــن الآراء والتصورات المعللة علميا، كالاقتصاد السياسي ، ونظرية الدولة والحق ، والاخلاق، وغيرها. كل نظام من هذه شكل علما من ظواهر الحياة الاجتماعية وقد ادى تطور العلوم الانسانية الى جعل فصل العلم كنوع خاص من الوعي يفقد معناه ،

لان كل نوع من الوعي (عدا الدين) يتضمن أيضا العلم بوصفه مستواه الاعلى ان مبدأ تقسيم الوعي الاجتماعي الى أنواع مختلفة قد فقد معناه فيما يخص العلم فالعلم لم يعد يربط نفسه الآن بأنواع خاصة من العلاقات كما كان قبل ذلك مرتبطا فقط بروابط البشر مع الطبيعة في عملية الإنتاج المادي بل صار يرتبط مع سائر العلاقات الاجتماعية دون استثناء

بذلك اكتسب العلم وضعا جديدا في الوعي الاجتماعي فصار يمثل الآن ذروة تطور سائر أنواع الوعي الاجتماعي مردوده ونتيجته وغدا واحدا من المجالات الكبرى التي ينتظم فيها الوعي الاجتماعي ككل بالتطابق مع الوظائف التي يحققها وسنتحدث عن ذلك في الفصل القادم

في الحياة الاجتماعية الواقعية ترتبط سائر أنواع الوعي ببعضها وتدرس هذه الروابط المتبادلة في أدبياتنا الراهنة أثناء ذلك تبقى آلية التأثير المتبادل نفسها في الغالب خارج مجال الرؤية وبصورة رئيسية يقتصر المرء على اظهار نفوذ الافكار السياسية على الافكار الاخلاقية والوعي الفلسفي ، أو بالعكس ومن انواضح ان بوسع المرء ان يعرض نتيجة التأثير المتبادل حسب الصورة السابقة ، بيد انه من المهم دراسة آلية تأثير أنواع الوعي بعضها على بعض ، من أجل توجيه عملية تكوّن الوعي الاجتماعي نفسه

ان تأثير الافكار والآراء المتبادل في المجتمع يتحقق ليس على طريق تأثير أفكار معزولة بغيرها ، بل من خلال تكوين أوضاع كاملة للوعي الاجتماعي ان الاوضاع التي تهيمن فيها أفكار وآراء محددة ، تؤثر على الوعي السياسي والاخلاقي والفلسفي وغيرها من أنواع الوعي بكلمات أخرى ان الاوضاع التي تحدث تأثيرا هي فقط تلك التي يوجد فيها مجالات كاملة للوعي — علم نفس المجتمع ، الايديولوجيا والعلم — أو وعي طبقات متفرقة ، أو وعي المجتمع بمجمله في التأثير المتبادل للعلم والايديولوجيا وعلم نفس المجتمع والايديولوجيا تبرز روابط محددة دائمة ، توجد أيضا في التأثير المتبادل للوعي الطبقي والقومي ولكنها مع ذلك لا يمكن متابعتها في التأثير المتبادل لانواع الوعي المتفرقة ، مع انها موجودة فعليا هذه الروابط تنقل عبر أداة الارتباط المتبادل للعلاقات الاجتماعية لمجالات كاملة للحياة الاجتماعية كالسياسة والحقوق والاخلاق والفن...الخ والتأثير المتبادل لهذه المجالات يتجاوز اطار الوعي ويخضع

لقانونية الحياة الاجتماعية ومـــع ذلك فهو يسمح ، وان بشكل غير مباشر بالوصول الى استنتاجات حـــول الروابط بين أنواع الوعـــي الاجتماعي

عند تحليل التأثير المتبادل لانواع الوعي المختلفة لا يقتصر المرء فـــي العادة على مجالات الوعي بل يتجاوزها لذا تنسحب المبادىء العامـة للارتباط المتبادل لانواع الوعي على التأثير المتبادل لمجالات البنية الفوقيـة الاجتماعية أكثر مما تنسحب على الوعي نفســه والاساس الموضوعي للتأثير المتبادل بين أنواع الوعي هو الارتباط المتبادل للحاجات الاجتماعية التي تبعثها الى الحياة الارتباط المتبادل بين جـــوانب الفعـالية التي تعكسها باختصار ارتباط تلك الظواهر الاجتماعية نفسها التـي تمثل هي جانبا منها على المرء على كل حال أن لا يفهم الارتباط المتبـادل للظواهر الاجتماعية كأساس للتأثير المتبادل بين أنواع الوعي بل كتعبير عن هذا التأثير المتبادل هكذا يكمن أساس الارتباط بين الوعي السياسي والحقوقي في الارتباط بين العلاقات السياسية والحقوقية وفي ارتباط هذه العلاقات مع نشاط الدولـة ان العلاقات السياسية والحقوقية اذا ما عزلت عن الوعي السياسي والحقوقي الـذي تتكون بالتطابق معه يمكن فهمها بصورة محدودة فقط كأساس للتأثير المتبـــادل بين أنواع الوعي وعلى المرء أن لا ينسى مطلقا ان علاقات البنيـــة الفوقية وأنواع الوعي المطابقة لها أساس واحد هو العـــلاقات الاجتماعية الماديـــة بخصوص هذا الاساس تشكل أنواع معينة مـــن العلاقات ــ في حالتنا نقصد العلاقات السياسية والحقوقية ــ والتصورات والآراء المطابقة لهـا كلا متكاملا وتدخل عموما في تأثير متبادل تلك الظواهر التي تشمـــل علاقـــات ومؤسسات وآراء وسنتأمل الارتباط المتبـــادل بين الوعي الحقوقي والاخلاقي من اجل ايضاح ما عنيناه

لقـــد درسنا فيما سبق ، وبصورة سريعـه ، خصوصية الوعـــي الاخلاقي والحقوقي كلا الوعيان ينصبان على سلوك البشر في المجتمع ويتضمنان أحكاما حول مسائل عامة كمسؤولية الفرد عن سلوكه ، وتقييم السلوك ، والحرية ، والضرورة في العمل البشري الخ

وتتجسد الآراء والتصورات الحقوقيـــة والاخلاقية فـــي ضوابط سلوكية وروابط حقوقية واخلاقية متناسبة معهـــا وتتكون الضوابط الحقوقية والاخلاقية بالتطابق مع تصورات وآراء معينة . وتمثل الروابط

الحقوقية والاخلاقية تحقق المعايير (الضوابط) السلوكية التي وضعتها سلطة الدولة ، اي رسختها وحفظتها عن طريق الاكراه (كالمعايير الحقوقية) من جهة ، والتي انتجها من جهة ثانية المجتمع (أو طبقة او مجموعة) وتم الحفاظ عليها بواسطة رأي اجتماعي ، أي بواسطة اقتناع البشر بها ان الآراء والمعايير والروابط تشكل الظواهر الاجتماعية الخاصة للحقوق والاخلاق ، وهما في حالة ارتباط ببعضهما أما طابع هذا الارتباط فيتحدد بالاساس الذي تنمو فوقه هذه الظواهر اي بعلاقات الانتاج التي يقيمها البشر

في الظروف الاشتراكية تحدث علاقات الانتاج الجماعية وحدة في المصالح الاساسية للطبقات والفئات الاجتماعية وتعبر الحقوق الاشتراكية والاخلاق الاشتراكية عن مصالح المجتمع لذا فان الحفاظ على المعايير الاخلاقية يغدو واجبا قانونيا والتزاما أخلاقيا ان معايير الحقوق الاشتراكية لا تصان بقوة الدولة فقط بل أيضا بالقناعة الاخلاقية للبشر ، وهي تتبادل التأثير مع معايير الاخلاق وتتكامل المعايير (الضوابط) الحقوقية والاخلاقية التي تنظم سلوك البشر في العمل وطريقة الحياة في المجتمع ، وتتداخل ببعضها

ان الروابط المتبادلة بين المعايير الحقوقية والاخلاقية ، وبين العلاقات الحقوقية والاخلاقية ، يسمح بالقول هذه الروابط هي أيضا تعبير عن الارتباط المتبادل بين الوعي الحقوقي والوعي الاخلاقي ان الذي يتبادل التأثير هو ظواهر البنية الفوقية الاجتماعية – في حالتنا تمثل هذه الحقوق والاخلاق – وهذه الروابط المتبادلة بين الظواهر هي بالضبط ما يجب علينا أن ندرسه

لا يجوز أن نستنتج مما سبق ان الروابط المتبادلة بين التكوينات الفكرية ليست هامة ما عنيناه هو ان هذه المسألة تفقد على صعيد أنواع الوعي اهميتها القائمة بذاتها وتغدو وجها وعنصرا في روابط متبادلة أعمق هي الروابط المتبادلة بين العلاقات الاجتماعية التي تمثل ظواهر الوعي عناصرها ويكتسب الارتباط الداخلي للتكوينات الفكرية عندئذ استقلالا نسبيا ، عندما يحدث تحليل الوعي الاجتماعي على مستوى أعلى من التجريد عندئذ يتم النظر الى الوعي بتجريده الى حد ما عن العلاقات الاجتماعية ، وهو ما لا يكون ممكنا ، عندما ندرس انواعه هذا يعطينا الامكانية للكشف عن بنية أخرى ، ذات وجود واقعي للوعي الاجتماعي ، والتعرف على روابط مباشرة (ليست فقط توسطية) بين مكوناته البنيوية.

مراجع الفصل الثاني

١ ـ كمثال نسوق كتاب « المادية التاريخية » لفورازوف في هذا المؤلف يقول الكاتب ان المادية التاريخية لا تدرس كل وعي ، بل الايديولوجيا فقط . ويؤكد « ان كل ايديولوجية هي نظام أفكار ، ولكن ليس كل فكرة أو نظام افكار ايديولوجيــة » وهو يميز الايديولوجية كعلاقة اجتماعية عن الوعي كعملية ذاتية ـ نفسية. ويعتبر أنواع الايديولوجية علاقات اجتماعية مختلفة

٢ ـ ماكاروفا المادية التاريخية موسكو ١٩٦٣ ، صفحة ٢٣٥ ٢٩٠. وما يليها

٣ ـ تشيسنوكوف المادية التاريخية الجزء الثاني ، موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ٢٤٠. وما يليهـا.

٤ ـ أشكال الادراك الاجتماعي ، موسكو ١٩٦١ ، صفحة ٢٢

٥ ـ كاك علم الادراك الاجتماعي ، صفحة ٨٧

٦ ـ نفس المصدر ، صفحة ٩٠.

٧ ـ تكتب سوهوروشوفا :« في علم الفلسفة يعصر الوعي غالبا على المعرفة وتتم عمليا مماثلته مع التفكير ، وينحصر وصف محتواه بأسره في كشف بنيته المنطقية »

٨ ـ أكد روسيل صعوبة مثل هذا التعريف لو تساءلنا ماذا نفهم تحت كلمة معرفة ، لوجدنا ان الاجابة غير محددة وكثيرة المعاني كما لو اننا تساءلنا ماذا نفهم تحت كلمة غباء » ب. راسل المعرفة الانسانية ، لندن ١٩٤٨ ، صفحة ١٧٤

٩ ـ روبنشتاين : الوجود والوعي برلين ١٩٧٠ ، صفحة ٣٧

١٠ ـ ماركس ـ انجلز : الايدبولوجيا الالمانيه ، صفحة ٢٦

١١ و ١٢ ـ سيلينوف وسيليفانوف

١٣ ـ نفس المرجع

١٤ ـ الشيوعية والثقافة موسكو ١٩٦٦

١٥ ـ التناول البنيوي لتحليل المجمع يقود بالضرورة الى نظام العلاقات الاجتماعيــة وهناك أعمال كثيرة ظهرت في السنوات الاخيرة لالقاء الاضواء على هذا النظام

١٦ ـ لينين من هم « أصدقاء الشعب » وكيف يناضلون ضد الاشتراكيين الديمقراطيين الاعمال ، الجزء الاول برلين ١٩٦١ ، صفحة ١٤٢ وما يليها

١٧ ـ نفس المصدر

١٨ ـ ستالين الماركسية وقضايا علم اللغة برلين ١٩٥١ ، صفحة ٥

١٩ ـ توجارينوف

٢٠ ـ كان ماركس يرى في العلاقات الحقوقية والسياسية أشكالا تظهر بها العلاقات الاقتصاديــة .

٢١ ـ ان مقولات « المادي » و « الذهني » ، « الموضوعي » و « الذاتي » ، « العفوية »

و « الوعي » تصف العلاقات الاجتماعية من منظورات مختلفة ، ويستخدم الزوج الاول من المقولات في التحليل المعرفي ، في حين يستخدم الزوج الثاني في التحليل السوسيولوجي ويرتبط عدم الدقة الذي نصادفه في الادبيات المختصة بعدم الدقة في تمييز الوجوه المختلفة للتحليل ، أي بنشوء ووجود وتطور العلاقات الاجتماعية .

٢٢ ـ يدرس ميخائيلوف المجتمع كنظام ، ويقسمه خلال ذلك الى مجالات رئيسية للحياة الاجتماعية ، وكذلك لظواهر اجتماعية رئيسية في كل من هذه المجالات ودون التعرض لهذا المخطط ، يجب القول ان التحليل البنيوي للمجتمع منتج ومجد ، وهو يسمح بتحليل المجالات الرئيسية للفعالية البشرية ، وللعلاقات المرتبطة بها ـ

٢٣ ـ انجلز لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ماركس ـ انجلز الاعمال ، الجزء ٢١ ، برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٣٠٢

٢٤ ـ ماركس ـ انجلز الاعمال ، الجزء ٣٧ ، برلين ١٩٦٧ ، صفحة ٤٩٣

٢٥ ـ موجز نظرية الاخلاق الماركسية ـ اللينينية . لينينغراد ١٩٦٣ ، صفحة ٢٣

٢٦ ـ نفس المرجع . ص ٢٤

٢٧ ـ نفس المرجع . ص ٢٦

٢٨ ـ نفس المرجع .

٢٩ ـ نفس المرجع . ص ٤٢٣

٣٠ ـ نفس المرجع .

٣١ ـ انجلز : انقلاب السيد دوهرنج العلمي (ضد دوهرنج) الاعمال الكاملة ، الجزء ٢٠ ، برلين ١٩٦٢ ، صفحة ٨٧

٣٢ ـ نفس المرجع .

٣٣ ـ ماركس ـ انجلز الايديولوجيا الالمانية ، صفحة ٣٢ وما يليها .

٣٤ ـ لينين : حول النقابات الاعمال الكاملة ، الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، صفحة ١٥

٣٥ ـ ماركس ـ انجلز : الاسرة المقدسة ، او نقد الانتقاد النقدي الاعمال ، الجزء الثاني ، برلين ١٩٥٨ ، صفحة ٨٥ .

٣٦ ـ مسائل التاريخ السياسي . موسكو ١٩٦٠.

٣٧ ـ لينين المؤتمر التاسع لحزب البلاشفة الروس الاعمال الكاملة ، الجزء ٣٠ ، برلين ١٩٦١ ، صفحة ٤٤٦ وما يليها

٣٨ ـ لينين : حول النزعة الاقتصادية الامبريالية الاعمال ، الجزء ٢٣ ، برلين ١٩٦٠ ، صفحة ٤٠ .

٣٩ ـ ماركس : في رسالته الى فريدريك بولته . في المؤلفات الكاملة ، الجزء ٢٣ ، برلين ١٩٦٦ ، صفحة ٣٣٣

٤٠ ـ فاربر اشكال الادراك الاجتماعي صفحة ٦٠.

٤١ ـ جوفه وشارجورودسكي .

٤٢ ـ لينين : الاعمال ، الجزء ٢٤ ، برلين ١٩٥٦ ، صفحة ٥٨٠ .

٤٣ ـ كيتشيكيان .

٤٤ ـ نفس المصدر .

٤٥ ـ انجلز : ضد دوهرنج . صفحة ٢٩٤
٤٦ ـ دونيني : الانموذج والايديولوجيا . الجزء ٢ ، مونسكو ١٩٦٦ ، صفحة ٢٦
٤٧ ـ اوجرينوفتش : مشاكل فلسفية لنقد الدين . موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ١٣٨ وما يليها.
٤٨ و ٤٩ : توكاريف الدين والسحر . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ٧٤
٥٠ ـ توكاريف ، نفس المصدر .
٥١ ـ ليفادا : علم الاجتماع والدين . صفحة ٦٧
٥٢ ـ نفس المرجع .
٥٣ ـ ماركس : المسودات الاقتصادية الفلسفية . صفحة ٥١٧
٥٤ ـ كروكوفسكي : المنطق الجمالي . مينسك ١٩٦٥ ، صفحة ٢٨ وما يليها .
٥٥ ـ ستولوفيتش : علم الجمال والحقيقة . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ١١٤
٥٦ ـ نفس المصدر .
٥٧ ـ نفس المصدر .
٥٨ ـ جولدنتريشت طبيعة الابداع الجمالي . موسكو ١٩٦٦ ، صفحة ٦٠
٥٩ و ٦٠ ـ يجوروف : الفن والمجتمع . موسكو ١٩٥٩ ، صفحة ٥٨
٦١ ـ نفس المصدر .
٦٢ ـ الفلسفة الماركسية ـ اللينينية . موسكو ١٩٦٥ ، صفحة ٤٥٦
٦٣ ـ ماركس ـ انجلز : الاسرة المقدسة . صفحة ١٢٦
٦٤ ـ انجلز لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، صفحة ٢٩٢
٦٥ ـ انجلز : ضد دوهرنج . صفحة ١٢٩
٦٦ ـ نفس المرجع . صفحة ٥٤٧
٦٧ ـ كارافايف وشاريبوف المادية التاريخية والعلوم الطبيعية طشقند ١٩٦٦ ، صفحة ٤٥
٦٨ ـ نفس المصدر .
٦٩ ـ بناء الشيوعية والعالم الفكري للانسان . صفحة ١٨٩
٧٠ ـ ماركس الطروحات حول فويرباخ الاعمال الكاملة ، الجزء ٣ ، برلين ١٩٥٨ ، صفحة ٥٣٥ .
٧١ ـ ماركس : رأس المال ، الجزء الاول ، صفحة ٢٧ وما يليها
٧٢ ـ ماركس : مدخل الى نقد الاقتصاد السياسي الاعمال ، الجزء ١٣ ، برلين ١٩٦١ صفحة ٦٣١
٧٣ ـ كرونرود : قضايا المنهج والنظرية . موسكو ١٩٦٦

الفصل الثالث

مجالات الوعي الاجتماعي

١ ـ النشاط الفكري ـ العملي للبشر ومجالات الوعي الاجتماعي

كان ماركس وانجلز أول من أشار ، في الايديولوجيا الالمانية الى ارتباط بنية الوعي الاجتماعي بنشاط البشر فكتبا ، لدى تناولهما الانواع المختلفة للوعي الايديولوجي ، ان « وظيفة » و دعوة » و مهمة و مثال » البشر ، وهي موضوعات ينصب اهتمام الايديولوجيا عليها هي « التعبير الواعي عن أنماط نشاط الافراد المتجسد ، بفضل تقسيم العمل ، في أشغال مختلفة أو هي التعبير الواعي عن ضرورة يجد الافراد والطبقات والامم أنفسهم فيها في كل لحظة ، وتتجلى في تأكيد وضعهم بواسطة نشاط معين بدقة يبذلونه » (١)

وفي علم النفس يكمن الارتباط المتبادل بين بنية النفس البشرية ونشاطها ، في حقيقة ان العمليات النفسية تتعين بنشاط البشر ، وفي اتخاذ « اعادة انتاج النشاط المادي للانسان شكلا فكريا (٢) هذا الاستنتاج توصل اليه عالما النفس السوفياتيان **روبنشتاين** و **ليونتيف** (٣) وقد دلل الاخير على ان العمليات والظواهر النفسية لا تملك وجودا فعليا الا في بنية النشاط الانساني ، وان « بنية وعي انسان ما ترتبط ببنية نشاطه (٤) ويتابع **ليونتيف** كيف تنتج الظروف التاريخية ـ العيانية المعطاة بنية معينة للنشاط البشري ، فيصل الى النتيجة التالية ان كل نمط من بنية الوعي يتوافق مع نمط معين من الانعكاس النفسي ومع تغير بنية النشاط البشري تتغير أيضا البنيةالداخلية للوعيالبشري (٥)

تتعين بنية الوعي الفردي والاجتماعي اذن ببنية النشاط البشري ويعتبر انتاج السلع المادية ، وسواه من النشاطات البشرية فعالية جماعية واجتماعية ، قبل كل شيء وعلى هذا الاساس يتكون في البدء ، محتوى الوعي الاجتماعي ، ثم يتبعه محتوى الوعي الفردي والواقع المحيط بالبشر والممارسة والتجربة الاجتماعيتين ، يتعممان

و « يتركزان » في وعي البشر كمعان ، ثم يثبتـان فـي اللغة والمعنى المثبت في صيغة مفهوم ، أو معرفة ، أو معيار سلوكي ، أو مهـارة ما يشكل « محتوى الوعي الاجتماعي ، فيغدو المعنى ، وفق هذه الصيغة ، وفي نفس الوقت ، وعيا واقعيا للفرد الذي يموضع (بضفي موضوعية) المعنى الذاتي لما يتم عكسه » (٦)

تتحدد البنية المعقدة للوعي الاجتماعي من خلال الممارسة المتعـددة الوجوه للبشر وبالتطابق مع روابط البشر فيما بينهم وحيال العـالم تنشأ في سياق فعاليتهم أنواع معينة من الوعي الاجتماعي وبالارتبـاط مع فعالية البشر التي تنصب خاصة على انتاج أفكار وآراء ، وعلى نشرها في المجتمع تتشكل مجالات كبيرة للوعي الاجتماعي وهذه لا توجـد منفصلة عن أنواع الوعي ، بل بفضلها ومن خلالها ولو استخدمنا المقولات الفلسفية حول « الخاص » و المتفرد ، لكان بوسعنا القول ان مجالات الوعي تمثل ما هو خاص بالقياس الى أنواع الوعي كشيء متفرد وتشكل الوظائف الاجتماعية التي يحققها الوعي ، الصفة النوعية المميزة لما هـو خاص والوعي الاجتماعي متضمن في فعالية البشر ويعبر عنها وهـو يحقق وظائف من أنواع مختلفة وظائف معرفية ، تمثيل وشرح مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية ، ووظائف فلسفيـة ، وارادية ــ عاطفية ، وتحكمية ــ ضابطة الخ ولكن ليس كل الافكار والآراء والتصورات والعواطف ، التي تكون الوعي الاجتماعي ، تحقق سائر الوظائف التـي ذكرناها ، أو تحققها بنفس القدر وعلى سبيـل المثال تملك التصورات الحقوقية للانسان حول ما هو جائز ، ما هو قانوني أو غير قانوني فـي السلوك ، والى حد ما ، وظيفة معرفية ولكن وظيفتها الرئيسية تكمـن في التحكم بالروابط الحقوقية وبحسب الوظائف المحققة يتوزع المحتوى العام للوعي الاجتماعي الى المجالات المطابقة لها

تتحدد وظائف الوعي من خلال الحاجات الاجتماعية فالمجتمع يهتم بتطوير المعرفة ، وبتوصيل التجربة الاجتماعية ، وبالتحكـم بالروابط انه ينظم لهذه الغاية « الانتاج الفكري ، ويشكل وعي البشر ومـن المعروف ان ماركس وانجلز قد ميزا بين جانبين مـن الفعالية البشرية الجانب الاول هو **« الطبيعة من خلال الانسان »** والجانب الثـاني هـو **« معالجة الانسان من خلال الانسان »** (٧) في سياق التطور الاجتماعي تبرز التربية والتعليم ، والفعالية الايديولوجية والعلمية كأنواع للفعاليـة

المنصبة على « معالجـــة الانسان من خـــلال الانسان وهذه تحدد خصوصية مجالات الوعي الاجتماعي

توجد التربية كشرط ضروري للنشاط الحياتي للمجتمع منذ نشوئه. وهي تشترط قبل كل شيء توصيل معارف ومهارات معينة ، تقوم على التجربة الاجتماعية المكتسبة في عملية الانتاج المادي ، من جيل الى آخر في شروط المجتمع الاول لم تكن التربية قد أصبحت بعد وظيفة اجتماعية تمارسها فئة خاصة من البشر ، بل غدت كذلك بعد تقسيم المجتمـع الى طبقــات

وتزداد باضطراد اهمية الوظيفة التربوية ، اي وظيفة التأثير الواعي من فئات بشرية على أخرى من اجل ادخال أفكار وآراء وصفات نفسية ــ اجتماعية في سلوكها ومخزونها المعرفي ، مع تقـــدم المجتمع وهنـــاك مصفوفة من الاسباب التي تبرر ذلك ، مثل توسيع المجال الفكري لحياة المجتمع ، وبخاصة تعاظم الوعي الطبقي لدى الجماهير الشعبية وتؤدي الاهمية المتعاظمة لهذه الوظيفة ، بدورها ، الى توسيع موضوع التربيـــة (فيغدو الشعب المتقدم نسبيا في السن الى جانب الجيل الصاعد موضوعا للتربية) ، فتسخر وسائل وقوى اجتماعية أكثر من أجل تحقيقها وفي داخل الوظيفة التربوية تملك الفعالية الايديولوجية المنصبة أساسا عـــلى انتاج الوعي وحمله الى رؤوس البشر ، وجودا فعليا مستقلا نسبيا

وللفعالية الايديولوجية ــ كالتربية عموما ــ في كل مجتمع أهدافها ومهماتها ومحتواها ولا يسعنا هنا سوى ذكر عدد قليل من سماتهـــا العامة التي تشترك بها سائر أنواعها المختلفة ، والتي تبدو في الظـــاهر بعيدة عن بعضها ، مثل الفعالية الصحفية ، والدينية ، والفنية وسواها مثل هذه السمات المشتركة هي **أولا** التعبير عن مصالح طبقية في صورة أفكار وآراء سياسية واقتصادية وفلسفية ومثل ، وانماط أخلاقية وفي أعمال فنية وسواها من منتجات الانتاج الفكري وهي **ثانيا** نشر منتجات الانتاج الفكري بين الجماهير ، لترسيخ مصالح طبقية معينة والدفاع عنها وتملك الطبقات المسيطرة الامتياز على مثل هذه الفعالية فهي ، كمالكة لوسائل الانتاج المادي ، توزع أيضا وسائل « الانتاج الفكري مما يؤدي الى توغل أفكار وآراء الطبقة المهيمنة في المجتمع بأسره

ويمكن للمرء أن يستنتج طابع الفعالية الايديولوجية ، وبشكل خاص انتشار أفكار وآراء الطبقة السائدة ، عندما يتأمل مثــلا الدعاية الرسمية

في المجتمع البرجوازي الراهن ان البرجوازية تطمح ، بمساعدة الدعاية، لفرض مقاييسها الفلسفية ، ومفاهيمها السياسية والحقوقية والاخلاقية كمعايير حياتية على سائر الطبقات ، لتحدد « بصورة مسبقة » سلوك البشر ويعتبر ايديولوجيوها الدعاية اكثر الوسائل اهمية في **« الرقابة الاجتماعية »** على أفكار ومشاعر الجماهير الضخمة وهم يرون فيها تقنية" للرقابة الاجتماعية » تسمح لمالكي السلطة بحقن البشر بأفكار وآراء معينة وضرورية من خلال قبول أو ادانة آراء وافكار معينة ، او عرض وتفسير حقائق معينة الخ ، وبالتالي لخلق دوافع وبواعث محددة لسلوكهم

تقف الفعالية الايديولوجية للطبقة العاملة في وجه التأثير الفكري للبرجوازية على الجماهير وقد ميز لينين في هذا الشكل النضالي للطبقة العاملة ثلاثة وجوه مترابطة **العمل النظري ، الدعاية ، والتحريض** (٨) وهي تملك جميعا هدفا واحدا ، هو تكوين الوعي الاشتراكي عند الشعب. وتحققه من خلال حل مهماتها المتميزة من مرحلة لاخرى فبينما تتركز الفعالية النظرية على وضع النظرية الثورية ، تنصب" الدعاية والتحريض على نشر أفكار الطبقة العاملة وآرائها السياسية والاقتصادية والاخلاقية الخ ، بين الجماهير

ويظهر من مقارنة الدعاية التي يمارسها حزب اشتراكي مع الدعاية البرجوازية كم تختلف هاتان جوهريا فبينما تمثل الدعاية البرجوازية اداة « للرقابة الاجتماعية على أفكار وآراء ومشاعر الجماهير ، بأنتفرض على البشر أفكارا ومشاعر في مصلحة الطبقات السائدة ، يطمح الحزب الاشتراكي الى نشر أفكار الماركسية ـ اللينينية التي تعبر عن مصالح الجماهير في الحالة الاولى تنتشر أفكار غريبة تلف" الوعي الطبقي بالضباب ، وفي الحالة الثانية تساعد الدعاية الجماهير في التعرف على مصالحها الخاصة ، وتقوي تعاظم الوعي الطبقي الذاتي

في ظروف المجتمع الاشتراكي تستهدف الدعاية صياغة النظرة العلمية الى العالم ، وتربية الجماهير على اتخاذ موقف صادق من العمل والحفاظ على الاخلاق الاشتراكية وأفكار الاممية البروليتارية والوطنية الاشتراكية وهي تخدم تربية الانسان الجديد المتطور من سائر الوجوه، والنضال ضد الايديولوجية البرجوازية ، وضد مخلفات الماضي في وعي وسلوك البشر .

ان الفعالية الايديولوجية التي تستهدف خلق أفكار ورؤى محددة وانفاذها الى وعي الجماهير العريضة وتربية أنماط وبواعث سلوكية معينة ، يجب ان تؤثر بصورة مفهومة في محتوى وبنية الوعي الاجتماعي تحت التأثير المباشر للفعالية الايديولوجية ان محازبي الرأسمالية يحاولون بكل الوسائل الدفاع عن هذا النظام الاستغلالي الاخير ، المحكوم عليه بالاندثار وفي نفس الوقت فان حملة النظام الجديد مصممون على انتصار الاشتراكية في سائر أرجاء الارض لانها ، بعكس الرأسمالية ، تتوافق مع قوانين التطور الموضوعية للمجتمع

تشكل الفعالية العلمية فرعا خاصا للانتاج الفكري. وبعض التصورات العلمية المتفرقة تتشكل لدى البشر بالارتباط مع معارفهم التجريبية اليومية ولكن العلم كفرع خاص للانتاج الفكري لم ينشأ الا في مرحلة متأخرة نسبيا من تطور المجتمع حين صار من غير الممكن للانتاج ان يتطور دون تطبيق المعارف المعللة نظريا حول الخصائص الفيزيائية والكيميائية وسواها من خصائص موضوعات الطبيعة ، ودون معرفة قوانين تطور العالم المادي هذه المعارف ما كان احرازها ممكنا الا في سياق الفعالية العلمية ، وبالارتباط مع استخدام الاجهزة الملائمة وباجراء اختبارات وتجارب الخ وترتبط الفعالية العلمية بالضرورة مع تنظيم مخابر ومعاهد خاصة ومع اعداد الكادر الضروري الخ وهذا يفسر أيضا، الى حد ما ، لماذا تأخر نشوء العلم بالقياس الى الانواع الاخرى من الانتاج الفكري

في الظروف الراهنة غدا العلم واحدا من مجالات الفعالية البشرية التي تتطور بأسرع ما يكون التطور ويعود الوقع المتسارع لتطور العلم الى الحاجات الاجتماعية ، ويتأمن من خلال انخراط قسم كبير من الشعب العامل في النشاط العلمي

يعتبر الابداع العلمي عملية جد معقدة من عمليات « الانتاج الفكري وهو يتطلب ، لهذا السبب ، جهودا موحدة لمجموعات عمل كبيرة داخل نظام متشعب من معاهد البحث ، والمؤسسات العلمية ، والمخابر الصناعية الخ وتتكون الفعالية الباحثة من عناصر كثيرة ، مثل الحصول على المعطيات الضرورية حول الظواهر المدروسة بمساعدة التجارب والمراقبة ، وهذه طرائق تتطلب جهودا خاصة ، كتحليل المعطيات المكتسبة ، والوصول الى استنتاجات مناسبة وفحصها الخ

ان الفعاليـــة العلمية كنوع قائم بذاتــــه من الفعالية هي حسب طبيعتها ، عملية اعلام خاصة (٩) ويملك هذا النوع من «الانتاج الفكري» ، الى جانب التربية والفعالية الايديولوجية ، تأثيرا مباشرا أيضا على محتوى وبنية الوعي الاجتماعي وتمثل نتائج الفعالية العلمية المجمعة في وقائع بتعميماتها وتراكيبها ونظرياتها ومبادئها المصاغة وقوانينها معرفة نظرية معللة تم اختبارها من وجوه كثيرة وهي تعتبر بالنظر الى محتواها موضوعية مثل هذه المعرفة نسميها معرفة علمية ، تمييزا لها عن المعرفة اليومية التجريبية

تشترط انواع الفعالية البشرية المنصبة على انتاج وتوزيع الافكار ان يصنف الوعي الاجتماعي الى مجالات معينة ومقياس التصنيف هــو الوظائف التي تمارسها أفكار وتصورات وعواطف محـــددة لدى البشر وتتماثل وظائف مجالات الوعي بالاساس مـــع وظائف الفعالية البشريــة المنصبّة على انتاج وتوزيع الوعي وتعتبر مجــالات الوعي متضمنة فــي الفعالية الفكرية للبشر ، وهي تحقق نفس الوظائف التي تحققها الفعاليــة نفسها ومن المفهوم انه لا يمكن أن ينشأ تطابق تام بين وظائف الفعاليــة ووظائف منتجاتها ، بسبب الاستقلال النسبي لمنتجـــات الوعي قبل كل شيء ان كل نسيج فكري يحقق وظائف مختلفة هكذا تملك المعرفــة المعللة نظريا ، والمختبرة عمليا وظائف اتصالية وأخرى ذات صلة بالنظـرة الى العالم الخ وبغض النظر عن مدى التطـابق بين مجالات الوعي وانواع الفعالية الفكرية ، فان التطابق نفسه هو أمر موضوعي ، يمكننا من تحليل بنية الوعي الاجتماعي وتملك المعرفة الموضوعية وظائف مختلفة ولكن وظيفتها الرئيسية هي الوظيفة المعرفية، اي تلك التي تحققها الفعالية العلمية كنوع خاص من الانتـــاج الفكري ويصح نفس الشيء بالنسبـة للايديولوجيا كمجال خاص للوعي ان وظائف الايديولوجيا أوسع بكثير من وظائف العلم ولكن خصوصيتها أيضا تتحـــدد بدورها عبر فعاليـة البشر ، التي تمثل المصالح الطبقية وتعبر عنها والوظيفــة الرئيسيــة للايديولوجيا هي التعبير عن المصالح الطبقية (للطبقات ، الفئات الاجتماعية، والمجتمع بأسره) وهذه تحدد بدورها مكانها في بنية الوعي الاجتماعي

في الادبيات الفلسفية طرح السؤال حـول تقسيم الوعي الاجتماعي الى علم وايديولوجية كمجالات خاصة دون الارتباط مـــع الوظائف التي يمارسها الوعي في كل مرة ، بل بالارتباط مع الصفات الخاصة لانعكـاس

الوجود الاجتماعي لذا يميز كيله وكوفالسون بين عمليات معرفية وايديولوجية أو اتجاهات في تطور الوعي الاجتماعي (١٠)

يكمن ما هو عقلاني في هذا التقسيم في اعتقادنا في ان المؤلفان يطرحان موضوع التمييز بين مجالات الوعي الاجتماعي بالارتباط مع الوظائفالتي تحققها انهما يتحدثان معا عنالعملية المعرفية والايديولوجية في تطور الوعي ، ولكن اهتمامهما ينصبّ علميا على الوظائف المعرفية والايديولوجية التي يحققها العلم أو الايديولوجيا وتشير الى ذلك المقدمات التي ينطلقان منها في اطروحتهما القائلة ان تطور الانتاج الاجتماعي قد ولّد بالضرورة المعرفة العلمية النظرية ، التي لولاها لما استطاع الانتاج أن يتطور بدوره وفي نفس الوقت أبرزت ممارسة الصراع الطبقي في المجتمعات التناحرية الحاجة الى الايديولوجيا اي لتبرير فكري للمصالح الطبقية

بالاعتماد على هذه المقدمات ، تعالج الاطروحة المنصبّة على العملية الايديولوجية والمعرفة كتعبير غير صحيح لوظائف الوعي الاجتماعي هذا يصحّ مثلا بالنسبة لبروكوب الذي يفسر أطروحة العملية المعرفية والايديولوجية حول انعكاس الواقع كأطروحة عن وظائف الوعي الاجتماعي. ويجد بروكوب ان الوظيفة المعرفية والايديولوجية لا تستنفذ دور الوعي الاجتماعي ، لذا فهو يستخدم المفهوم الاشمل حول « الوظيفة الثقافية ويبرره بأن البشر لا يريدون معرفة العالم فقط بل امتلاكه ايضا وهذا نشاط لا يقتصر على العلم فحسب ، بل يمتد الى الثقافة الفكرية بأسرها ويصل بروكوب في الختام الى ان

> **« الوعي الاجتماعي يخدم الحياة الاجتماعية والوجود المادي للبشرية في وظيفتين : الاولى (الايديولوجية) تعبر بصورة رئيسية عن طبيعته الطبقية . أما الثانية فتعبر عن واقع ان الوعي الاجتماعي في تطوره يمتلك حقا الواقع ، بمعنى انه يمتلك قوى الطبيعة والمجتمع والانسان وهذه الحقيقة يمكن اختصارها في الاطروحة التالية « عندما يمتلك الوعي الاجتماعي الواقع ، فانه يتجلى كثافة ، ويتماثل مع الوظائف الثقافية التي يمارسها كوعي اجتماعي » (١٠) .**

ان مجرد طرح السؤال حول عدم استنفاذ الوظيفة المعرفية والايديولوجية للدور (الثانوي) للوعي الاجتماعي ، هو في نظرنا امر مثمر بيد انه من المشكوك به ما اذا كان استبدال الوظيفة المعرفية بوظيفة

ثقافية أشمل هو الحل الصحيح للمسألة المطروحة من الواضح ان هذا الحل يحب ان يبحث عنـــه عن طريق التمايز الوظيفـــي فمفهوما الوظيفة الايديولوجية الثقافية هما مفهـــومان جامعان لوصف وظائف كثيرة مشخصة يمكننا تحليلها مـــن تفسير وشرح الدور الواقعي للوعي الإجتماعي وسنتحدث فيما بعد عن بعض وظائفها المشخصة ، حين نتأمل مجالات الوعي الاجتماعي هنا يبقى التأكيـد على ان وظائف الوعي الاجتماعي متعددة الاشكال وان محتواها يتحدد من خلال الفعالية الفكرية للبشر والتربية هي اكثر أنواع الفعالية الفكرية للبشر شمولا بالمعنى الواسع للكلمة تستهدف التربية الاجتماعية تسليح البشر بمعارف ومهارات وافكار ورؤى سياسية واخلاقية وجمالية الخ محددة وتنصب بالمعنى الضيق ، على تكوين الوعي والصفات النوعية النفسية ـ الاجتماعية، وبواعث الفعالية ، والتقاليد والعادات السلوكية انهـــا تصوغ نفسيـــة البشر ، أي الوعي الواقعي الذي يتحقق في سلوك وعمل كل فرد

وتشير **تصريحات لينين حول قضايا التربية** وخاصة خطابه فـــي المؤتمر الثالث للشبيبة الشيوعية عام ١٩٢٠ الى انه كان يرى جوهر التربية في ضرورة تجاوز البنية النفسية القديمة للبشر وتكـــوين بنية نفسية جديدة للمجتمع الجديد **قال لينين ان البشر الذين تربوا في المجتمـــع القديم « كانوا يرضعون مع حليب أمهاتهم ، كما يقولون ، العادات والطباع والمفاهيم التي تقول بأنه يجب عليهم اما أن يصبحوا ملاكـــا للعبيد ، أو عبيدا أو ملاكا صغارا، أو موظفين صغارا، أو مستخدمين صغارا، أو مثقفين، أي باختصار، بشر يهتمون فقط بفائدتهم الخاصة دون الآخرين ... هذه الطباع ، وهذه التركيبة لا يجوز أن توجد لدى الشيوعيين » (١١) .**

هدف التربية الاشتراكية هو تجاوز المواقف النفسية ـ الاجتماعية ، والتقاليد والعادات القديمة للبشر وتعزيز ملامح نفسية ـ اجتماعيـــة جديدة للشخصية

وقد اكد لينين ان محتـــوى الايديولوجية الاشتراكية في عمليـــة التربية يغدو دليلا للعمل وقال أمام مندوبي المؤتمر

> **« انكم تقفون أمام مهمة البناء ، ولن تستطيعوا حلها الا اذا تملكتم سائر المصارف الراهنة ، وفهمتم كيف تحـــولون الاشتراكية من صيـــغ محفوظة عن ظهر قلب ، ونصائح ، ووصفات ، وتعاليم ، وبرامج الـــى شيء حي قادر على الاحاطة بعملكم المباشر ، وعلى تحويل الاشتراكية الى دليل لعملكم » (١٢)**

تشكل السيكولوجية الاجتماعية المجال الرئيسي الثالث للوعي الاجتماعي قبل أن نتحدث عن خصوصية السيكولوجية الاجتماعية ، ووظائفها وارتباطاتها مع مجالات الوعي الاجتماعي الاخرى ، نريد أن ندلي بملاحظتين

اولا ان حصر أنواع الفعالية الفكرية بالانواع الثلاثة المذكورة ـ الايديولوجية ، العلمية والتربوية ـ هو أمر جد نسبي وعلى سبيل المثال تشتمل الفعالية الايديولوجية على أنواع مختلفة من النشاطات وان كان طابعها العام كتعبير وتمثيل للمصالح الطبقية يمنحنا المبرر للنظر اليها كظواهر لفعالية واحده هي الفعالية الايديولوجية من المؤكد على كل حال ان هناك ظلالا داخل الفعالية الايديولوجية وربما كان من المبرر وضع بعض فروع الانتاج الفكري هنا الى جانب الفعالية الايديولوجية فالنشاط الفني هو مثلا تعليل لمصالح طبقات معينة بوسائل الفن ودفاع عنها والفن يتحدد في المجتمع الطبقي في محتواه طبقيا ويمكن اعتبار هذا النوع من الفعالية جزءا من الفعالية الايديولوجية واعتبار الفن من الايديولوجيا بيد انه ليس من الممكن كما هو معروف اعتبار محتوى الفن بكامله من الايديولوجيا فالفن يعيد انتاج الواقع في صور فنية بما في ذلك وعي المجتمع بغناه وتنوعه ومن الجلي ان الواقع المعاد انتاجه في الرسم والموسيقى والنحت والادب الخ يمكن ان يخدم الحاجات الجمالية والمعرفية وسواها من حاجات الانسان ، دون أن تقتصر على التعبير عن المصالح الطبقية والدفاع عنها

لا نعتبر التقسيم الى أنواع ثلاثة من النشاط الفكري وبالتالي الى مجالات ثلاثة من الوعي الاجتماعي حلا نهائيا لهذه المسألة لقد كان اهتمامنا ينصب على المبدأ المنهجي في تحليل بنية الوعي نفسه بالارتباط مع انواع الفعالية الفكرية ووظائفها وفي الواقع يمكن وجود أنواع قليلة أو كثيرة من النشاط الفكري ومجالات الوعي فهناك مثلا في ظروف نظام الجماعة الاولى نوع من النشاط الفكري والتربية والوعي الاجتماعي لهذه التشكيلة الاجتماعية يجعلان بالامكان التعرف الى سيكولوجية اجتماعية وراءهما وفي نفس الوقت يمكن للمرء أن يتنبأ بأن النشاط الفكري للبشر سيتطور في الاشتراكية بطريقة لا مثيل لها في التاريخ البشري السابق وبالقياس مع هذا التطور ، فان مجالات الوعي الاجتماعي نفسها ستزداد . بيد انه في الوضع الاجتماعي الراهن تشمل

الايديولوجيا والعلم والسيكولوجيا الاجتماعية على المحتوى الكامل للوعي الاجتماعي وهذا التقسيم يسمح بدراسة دور الوعي الاجتماعي في حياة البشر بصورة موضوعية

ثانيا يشترط المفهوم الصحيح لتقسيم الوعي الاجتماعي الى مجالات «(حسب الوظائف التي تحققها) أخذ الصفات الخاصة للوعي كظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية بالحسبان ويجب أولا مراعاة ان الوعي لا يملك « أجزاء » أو اعضاء وان وظائفه ليست، لهذا السبب، محددة بدقة في مجالاته المختلفة فكل مجال يمكن أن يحقق وظائف تملكها المجالات الاخرى ومع ذلك فان المجالات الرئيسية ، التي تحفظ مجالات الوعي ضمن أنواع الفعالية الفكرية العملية للبشر ، تمنحها خصوصية محددة تعبر عن نفسها أيضا عندما تحقق وظائف أخرى ثانيا من الاهمية بمكان مراعاة الوضع المتجلي في ان منتجات النشاط العملي ـ الفكري لا تستطيع أن تمارس دورها الفعال ، الا عندما تصبح عناصر للوعي الواقعي والجماهيري ، أي حين تجد انتشارا بين الجماهير يقول ماركس تصبح النظرية قوة مادية ، بمجرد أن تستحوذ على الجماهير » (١٣)

يستطيع المرء ان يتحدث عن وظائف الايديولوجيا والعلم ولكنه يجب أن يعرف ان الفعالية العملية ـ الفكرية لها هدف نهائي هو صياغة وعي الجماهير

٢ ـ السيكولوجية الاجتماعية كوعي جماهيري

في الادبيات الفلسفية ، غالبـا ما تغطى مسألة المكان الذي تحتـله السيكولوجية الاجتماعية في بنية الوعي بمسألة الاعتراف بالسيكولوجيـة الاجتماعية كظاهرة فكرية للحياة الاجتماعية لقد كان بالطبع مـن الاهمية بمكان معرفة ان ظواهر السيكولوجية ـ الاجتماعية تملك وجـودا فعليا وانها يجب أن توفى حقهـا من البحث بيد ان الاهتمام ببحث السيكولوجية الاجتماعية قد طرح على العلماء بصورة ملحة مسألة تحديد المكان الذي يحتله هذا التكوين الفكري داخل بنية الوعي الاجتماعي

ماذا نفهم تحت مصطلح السيكولوجية الاجتماعية ومـا هو مكانـه داخل بنية الوعي الاجتماعي ؟ السيكولوجية الاجتماعية هي جملة المشاعر والامزجة ، والعواطف والمهارات والاتجاهات الارادية والعادات وسواها من السمات التي تنشأ لدى مجموعة كبيرة من البشر على أساس الاشتراك في شروط الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية حسب وجهة نظر الكتاب الذي اقتبسنا منه تعريفنا هذا تحتوي السيكولوجية الاجتماعية عـلى تكوينات فكرية متنوعة تقع تحت مستوى الافكار والآراء ويصطدم مثل هذا المفهوم حول السيكولوجية الاجتماعية بمعارضة ، ولكنه الاكثر انتشارا في الادبيات الفلسفية والسوسيولوجية

ثمة مفهوم آخر للسيكولوجية الاجتماعية ولكنه لا يتميز كثيرا من حيث جوهره ، عن هذا المفهوم وهو يضيف الىمحتوى السيكولوجية الاجتماعية تصورات وأفكارا ، ويقول في نفس الوقت انها فيالسيكولوجيا لا تكون ممنهجة ، ولا تحتوي على محاولة ادراك الوجود الاجتماعي فـي كليته وجوهره من مثل هذا المفهوم للسيكولوجية الاجتماعية نستنتـج بصورة منطقية مكانها داخل بنية الوعي الاجتماعي. يقول شورافيلوف ان السيكولوجية الاجتماعية هي العتبة الاولى للوعي الاجتماعي (١٤) ويقول لكيله انها « جزء من الصعيد الادنى للوعيالاجتماعي » (١٥) ويحدد بارانوف مكان السيكولوجية الاجتماعية داخل بنية الوعي بأن ينطلق مـن

تقسيم الوعي الاجتماعي الى وعي نظري ويومي كصعيدين لانعكاس الواقع. وهو يعتبر كل قسم.من الوعـــــي الاجتماعي جزءا مـــن السيكولوجية الاجتماعية ما دام يعكس الروابط الفعلية للبشر حيال الجوانب المختلفة للعالم بصورة ذاتية وعاطفية » (١٦) أما محتوىالوعيالتابع للسيكولوجية الاجتماعية فهو لم يتم وعيه بعد بصورة كافية ، وليس واضحا عـــلى الصعيد النظري وبينما ينصب الوعي النظري ، بهذا الشكل أو ذاك ، على المعطيات الجوهرية الموضوعية تعكس السيكولوجية الاجتماعية وجها آخر للوجود الاجتماعي الا وهو سلوك الفئات الاجتماعية حيـــال عالم الظواهر

يتضح من الاستشهادات السابقة ان عددا من العلماء ينظرون الــى السيكولوجية الاجتماعية كوعي يومي ، أي كأحد أصعدة انعكاس الواقع على هذا الصعيد يتعامل الوعي مع عالم « الظواهر فقط ، وليس مـــع جوهر الاشياء ، وهو حسب شكله ، مطبوع بطابع العاطفة واذا ما اعتبرنا السيكولوجية الاجتماعية من الوعي اليومي فانه يجب عندئذ أن تنسب اليها سائر الصفات التي تميز هذا الصعيد من انعكاس الواقع التكون العفوي ، فقدان التنهيج ، عدم التشكل الخ ان الاطروحة القائلة ان السيكولوجية الاجتماعية هي انعكاس للواقع في مستواه الادنى، تعتبر بالنسبة للباحثين مبدأ منهجيا رئيسيا وان كان من الصعب الحكم على قدرته في معالجة المشاكل الرئيسية للسيكولوجية الاجتماعية

لكي نصل الى جوهر المسألة ، نريد أن نتحدث باختصار عن الطريقة التي توصل بها العلماء الماركسيون الى تمييز سيكولوجية اجتماعية داخل بنية الوعي الاجتماعي

لم يستخدم كلاسيكيو الماركسية ــ اللينينية مصطلح « السيكولوجية الاجتماعية ، ولم يحللوا بنية الوعي الاجتماعي تحليـــلا خاصا ويجب على المرء أن يتعامل بحذر مع جملهم حتى لا يضفي عليها معان لا تتوافق معها وقد استخـــدم مصطلح السيكولوجيا الاجتماعية للمرة الاولى من قبل أنطونيو لابريولا ، الداعية الاول للماركسية في ايطاليا بعد ذلك بدأ بليخانوف ايضا باستخدامه واحتفظ المصطلح الذيدخل فيالسنوات الاخيرة الاستخدام العلمي بالمحتوى الـــذي وضعه بليخانوف فيه لذا نعتقد ان تقييم مقولات بليخانوف ، ونهاجيتـــــه في تحليل بنية الوعـــي

الاجتماعي ، وشرحه لمكان السيكولوجية الاجتماعية بداخلها يحتل أهمية خاصــة

في كتابه « حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ (١٨٩٥) يفهم **بليخانوف** تحت سيكولوجية المجتمع وعيا اجتماعيا تحدده البنية المادية للمجتمع كتب بليخانوف

« متى كانت بنية المجتمع معطاة ، فانه لن يكـــون من الصعب ادراك ان طابعها ينعكس فـــي السيكولوجية العامة للبشر ، فـي سائر عاداتهم ، وتقاليدهم ، ومشاعرهم ، وآرائهم ، ومطامحهم ، ومثلهـم ان العادات والتقاليد والاراء والمطامح والمثل يجب أن تتـوافق بالضرورة مع طراز حياة البشر في تدبير غذائهم » (١٧)

ثم يحلل بليخانوف الرابطـــة المتبادلة بين اقتصـــاد المجتمع و سيكولوجية المجتمع كوجهين لنفس الظاهرة أي للانتاج المـادي للسلع في هذه الرابطة يعتبر اقتصاد المجتمع الاساس الواقعي الذي تنهض عليه « البنية الفوقية الايديولوجية أو « سيكولوجية المجتمع التي تتوافق بدورها مع اقتصاده

في الكتاب المذكـــور تستخدم مفاهـــيم سيكولوجية المجتمع و الايديولوجيا » و « أشكال الايديولوجيا لوصف الـوعي الاجتمـاعي والحياة الفكريـــة للمجتمع ولا يتـم التفريق بعـــد بين السيكولوجية والايديولوجية

في كتابه حول المفهوم المادي للتاريخ (١٨٩٧ يحلل بليخانوف مقالات انطونيو لابريولا حول « المفهوم المادي للتاريخ ويستخدم فيه مقتبسا ذلك من لابريولا مصطلح « السيكولوجية الاجتماعية بتمييـز خاص كتب **بليخانوف**

« لفهم تاريخ الفكر العلمي أو تاريخ الفـــن لبلد ما ، لا يكفي ان نعرف اقتصاده . ولا بد للمرء ان يفهم كيف ينتقل من الاقتصـــاد الى السيكولوجية الاجتماعية ، التي يستحيل دون الانصراف الى دراستهـا وادراكها باهتمام ، الوصول الى تفسير مادي لتاريخ الايديولوجيات» (١٨)

هنا تستخدم مفاهيم السيكولوجية الاجتماعية » و «الايديولوجية» بمعان مختلفة

ما هو المعنى الذي يضفيه بليخانوف عـــلى مفهوم السيكولوجيا

الاجتماعية ؟ يجيب بليخانوف لا يوجد ما يهتم معتنق المادية له في هذه الحالة سوى الوضع النفسي والفكري السائد لطبقة اجتماعية معينة في بلد معين وعصر معين ويفهم مثـــل لابريولا تحت مصطلح السيكولوجيا الاجتماعية الوعي الواقعي للطبقـــات أي الوعي المنتشر والسائد بين الجماهير يعتاد البشر أن يجدوا في المعتقدات والمفاهيم والطرائق الفكرية والطرز والانواع والحاجات الجماليـة ما يرضون بـــه أنفسهم (١٩) ان بليخانوف ينظر الى السيكولوجيا الاجتماعية كوعـي جماهيري ، ويولي اهتماما خاصا لجانبه العاطفي وهو في الحقيقة لا يقصر السيكولوجيا الاجتماعية ـ كما فعل كثيرون من أخلافه ـ عـلى الجانب العاطفي من الوعي بل يتحدث أيضا عن أفكار ونظرات فكريه وان كان يضع الوضع النفسي والفكري لهذه أو تلك من الطبقـــات فـي المقام الاول

يقدم بليخانوف في كتابه القضايا الرئيسية للماركسية (١٩٠٨ أصلا لمسألة مكان السيكولوجيا الاجتماعية داخل بنية الوعي الاجتماعي هنا يقسم بليخانوف الوعـــي الاجتماعي الى صعيدين « سيكولوجيـــا الانسان الاجتماعي و الايديولوجيات المختلفة (١٩) وهو يرى الفارق بين هذين الصعيدين في ان سيكولوجيا الانسان الاجتماعي تتحـــدد بصورة مباشرة من خلال الاقتصاد أي من خـــلال النظام الاجتمـاعي ـ السياسي القائم فوقه بينما تنعكس فـــي الايديولوجيات المختلفة صفات « سيكولوجيا الانسان الاجتماعي (٢٠)

من المعلوم ان الماركسية قد رفضت أطروحـــة بليخانوف حـــول الايديولوجية كانعكاس للسيكولوجيا الاجتماعية ان اصعدة الوعــي هي أصعدة لانعكاس الواقع الموضوعي في وعي البشر والصعيد الاعلى للوعي ليس انعكاسا لواقع موضوعي ادنى بل هو انعكاس اعمق واكثر كمـــالا للواقع الموضوعي نفسه غير ان مبــــدأ تقسيم الوعي الاجتماعي الـى سيكولوجيا اجتماعية وايديولوجيا كصعيدين لانعكاس الواقع قد قبل كأهم أساس لتحليل بنية الوعي وقبل أيضا دون اعتراض المبدأ القائل ان الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يستنفذان محتـــوى الوعي الاجتماعي وان السيكولوجيا الاجتماعية تفترق عن الايديولوجيا (الوعي النظري) في كونها الجانب العاطفي للوعي اننا نرى ان هذه الاطروحات لبليخانوف ليست صالحة لان نسلم بها تماما

قبل كل شيء نريد التشكيك بأطروحة بليخانوف حول مدى صلاحية الصفات الخاصة لانعكاس الواقع على المستويين الادنى والاعلى كمقياس لتقسيم الوعي الاجتماعي الى ايديولوجيا وسيكولوجيا اجتماعية من الطبيعي ان التكوينات الفكرية التي تشكل الايديولوجيا والسيكولوجيا يمكن أن ننظر اليها من منظور أصعدة الانعكاس ، بيد ان هذه بحد ذاتها لا تقدم لنا الاساس الكافي لاعتبار هذا التكوين الفكري ايديولوجيا وذاك سيكولوجيا اجتماعية مثل هذا الاساس يمكن أن تقدمه فقط الوظائف الاجتماعية للتكوينات الفكرية ، ودورها في حياة المجتمع ويبدو لنا ان محاولة بليخانوف التفريق بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية داخل بنية الوعي على أساس الصفات الخاصة للانعكاس لم تكن موفقة لان المرء يستطيع تقسيم كل التكوينات الفكرية الى وعي نظري ووعي يومي فيما لو انطلق انطلاقة معرفية ـ تحليلية ، اي من الصفات الخاصة لانعكاس الواقع ، بغض النظر عما اذا كانت هذه التكوينات حسب محتواها جزءا من الايديولوجيا أم من السيكولوجيا الاجتماعية لدى بليخانوف يعتبر مفهوما السيكولوجيا الاجتماعية و الايديولوجيا تسميات أخرى للوعي اليومي والوعي النظري

بيد ان الايديولوجيا والسيكولوجيا هي في الواقع تكوينات بنيوية للوعي الاجتماعي من هنا تطرح نفسها في المادية التاريخية ، بصورة متجددة مسألة المقاييس التي تستخدم لتصنيفها داخل بنية الوعي والحل الصحيح لهذه المسألة يرتبط في راينا ، بفهم طرق التحليل البنيوي للوعي الاجتماعي

يسمح استكمال التحليل المعرفي بالتحليل السوسيولوجي بتحديد الفروق بين التكوينات الفكرية وفق دورها في حياة المجتمع فنستطيع تقسيم الوعي الاجتماعي الى مجالاته المختلفة وعلى هذا الاساس تبدو ، في الوعي الاجتماعي تكوينات فكرية هي السيكولوجيا الاجتماعية والايديولوجيا والعلم

لقد ادى اضفاء طابع اطلاقي على التناول المعرفي لبنية الوعي الاجتماعي الى قصر محتواه على السيكولوجيا الاجتماعية والايديولوجيا ، واسقاط العلم كمجال قائم بذاته للوعي وكان بليخانوف قد ادخل العلم ـ كأعلى صعيد للانعكاس ـ في الايديولوجيا وكان يرى خصوصية الايديولوجيا (الى جانب انها تعكس صفات سيكولوجيا الانسان الاجتماعي)

في ان فئة بشرية خاصة تتعاطى بها حسب بليخانوف « يشكل الاقتصاد الاساس في تطوير الايديولوجيات ، بمعنى انالمجتمع يجب أن يحقق درجة من الرفاه تمكن فئة من البشر تخصيص قواها للنشاط العلمي والنشاطات القريبة منه (٢١)

عند الاخذ بمفهوم بليخانوف حول بنية الوعي استغنى البحاثة عن اعتبار العلم جزءا من الايديولوجيا بيد انهم وجدوا أنفسهم أمام مصاعب كبيرة اذا كان الوعي الاجتماعي ينقسم الى سيكولوجيا وايديولوجيا فماذا يحدث للعلم ؟ يتجنب كاك اعطاء اجابة مباشرة على هذا السؤال فهو من جهة يعتبر العلم جزءا من الوعي الاجتماعي ، وهو من جهة اخرى لا يحدد مكانه داخل الوعي الاجتماعي لان العلم من منظور الشكل ، لا يتميز في شيء عن أية نظرية ايديولوجية ـ فلسفية أو سياسية أو قانونية الخ (٢٢)

وعلى كل حال فان العلم يتلقى مجالا خاصا به لدى تقسيم الوعي الاجتماعي الى وعي نظري ووعي يومي يكتب كيله مثلا ان اكثر تقسيمات الوعي الاجتماعي اهمية على الصعيد النظري هو التقسيم الى ايديولوجيا والى معرفة لا تدخل في نطاقها (كنظريات العلوم الطبيعية) (٣٣) كيف نفرق بين الايديولوجيا والمعرفة من حيث مستواهما النظري ؟ من الناحية المعرفية (على الصعيد المعرفي) لا يمكن تحديد أية فوارق بينهما ولقد اصاب كاك عندما كتب ان الايديولوجيا هي نظرية وكل نظرية حتى لو كانت خاطئة وبالاخص حين تكون صحيحة تظهر في شكل مفاهيم ومقولات ، وصيغ وقوانين ، وبراهين منطقية الخ محددة بين العلم والنظرية لا يوجد أي فارق (٣٨)

الشيء الرئيسي ليس بالطبع ايجاد فروق بين مجالات الوعي وتحديد مكانها بالتالي في بنية الوعي المهم هو ان مثل هذه المعرفة تساعد لدى دراسة التكوينات الفكرية نفسها عندما تكون السيكولوجيا الاجتماعية ، كما يقول السوسيولوجيون انعكاسا سطحيا للواقع ، فان بوسع الباحثين أن يشكوا في ما اذا كان من المفيد حقا الانصراف لدراسة مثل هذه الظاهرة لهذا السبب يجب على المرء أن ينصرف الى الانشغال بمنهجية بحث بنية الوعي الاجتماعي ، من أجل ايجاد مكان السيكولوجية الاجتماعية والايديولوجيا والعلم فيها

بعد انتشاره في المجتمع ، ينقسم الوعي الاجتماعي الى وعي متخصص ووعي جماهيري ويمكن للمرء أن يعتبر هذا التقسيم تصنيفا جوهريا للوعي الاجتماعي ، اذ ان حملته هم الجماعات البشرية ويمكن استنتاج الوعي قبل كل شيء من انتشار ومحتوى التصورات والآراء التي تؤمن بها الجماهير الكبيرة ، ومن المشاعر التي تملكها ، والعادات والتقاليد السائدة لديها ...الخ والوعي الاجتماعي يمثل ، كوعي جماهيري ، تلك القوة الواقعية التي تمارس نفوذها على العملية التاريخية ، بأن تدفع البشر الى الفعالية وهي تشكل مجالا كاملا في حياتهم الفكرية ، وتعتبر موضوع بحث قائم بذاته للعلوم الاجتماعية قال **انجلز**

« عند دراسة القوى الدافعة للتاريخ ، فان ما يهمنا ليس هو الاسباب المحركة للافراد ، مهما كان شانهم عظيما ، بل تلك الاسباب التي تحرك جماهيرا كبيرة ، شعوبا كاملة ، وتحرك في كل شعب طبقات كاملة ، دون أن يكون الفعل الذي يترتب عليها ظرفيا ، بل فعلا دائما يستهدف احداث تغييرات تاريخية عظيمة » (٢٤)

وبكلمات أخرى يجب علينا أن ندرس الوعي الجماهيري

ترك كلاسيكيو الماركسية ــ اللينينية نماذج ممتازة لتحليل الوعي الجماهيري في العصور التاريخية الثورية وتثمن تصريحات وأقوال لينين ، في سلسلة من المؤلفات الجديدة ، حول مسائل الوعي الجماهيري والسيكولوجيا الاجتماعية وقد صاغ بورشنيف النتائج التي تم التوصل اليها على أساس هذه التصريحات ، ويكمن أهمها في ان انصراف لينين الى ظواهر وعمليات السيكولوجيا الاجتماعية هو أمر يرتبط الى أعلى درجة بهدف معين فالدراسة بحد ذاتها ليست هامة بالنسبة له الا كمؤشر على وضع القوى الثورية وكشرط حياتي للدفاع عن قضية الثورة وتطويرها (٢٥) وفي مكان آخر يكتب **بورشنيف**

« عندما ندرس ملاحظات لينين حول السيكولوجية الاجتماعية بمجموعها ، فاننا نشاهد ان جميع هذه التاملات تخضع في النهاية لمهمة واحدة ، الا وهي تقييم ظروف النشاط الثوري للحزب بصورة صحيحة ، ومعرفة الارضية النفسية ــ الاجتماعية التي تستهدفها شعارات الحزب ، وبالتالي دراسة فعاليتها دراسة صحيحة » (٢٥)

وفي الواقع ، فقد وجه لينين الانتباه الى الوعي كقوة واقعية في نشاط البشر وقد كتب ذات مرة

« اذا لم تكن الجماهير مهتمة ، وواعية ، وناشطة ، وفاعلة ، ومصممة ، ومستقلة ، فانه لا يمكن ، لا في هذا المجال ولا في سواه ، صنع اي شيء على الاطلاق » (٢٦) .

يقول **لينين** :

« ان احسن الطلائع لا تعبر سوى عن وعي وارادة ومعاناة وخيال عشرات الآلاف الناس . ولكن الثورة تحقق في لحظة نهوضا خاصا وحشدا خاصا لسائر المواهب البشرية عبر وعي وارادة ومعاناة والخيال ملايين البشر الذين يدفعهم الصراع الطبقي العنيف الى الامام » (٢٧)

وقد خص لينين وعي العمال والفلاحين ، والتحولات التي تحدث فيه ، باهتمام كبير

نريد فيما يلي الاشارة الى مبداين هامين أهملهما الباحثون الذين حللوا تراث لينين في مجال السيكولوجيا الاجتماعية

اولا : ان لينين لم يستخدم مصطلح سيكولوجيا لوصف الجانب العاطفي من الوعي فحسب ، كما يعتقد عادة ، بل استخدمه أيضا لوصف الوعي الجماهيري الذي يحتوي الى جانب المزاج والمشاعر الاجتماعية على آراء البشر حيال مسائل متنوعة ان الوعي الجماهيري هو جملة التكوينات الفكرية التي تشترك بها طبقات وفئات اجتماعية كاملة لمجتمع ما واستخدام لينين المتكرر لتعابير مثل مزاج الجماهير و المشاعر الاجتماعية » ليس سببا المزعم بأنه قصر السيكولوجية الاجتماعية على الجانب العاطفي من الوعي ان الامزجة والمشاعر الاجتماعية هي اكثر أشكال ظاهرة الوعي الجماهيري انتشارا ، ومن هنا حتمية استخدام مثل هذه التعابير

وراء الظواهر الخارجية للوعي الجماهيري يختفي دوما جوهره وقد رأى لينين هذا الجوهر في أهلية الجماهير للوعي ، في موقفها المدرك بعمق والمحسوس بواقعية حيال حل المهمات التي يقف المجتمع أمامها وقد قال في تقييم النشاط الثوري للحزب وفي تكوين الوعي الثوري لدى الجماهير الشعبية

« لقد وصلنا الى نقطة هامة من ثورتنا ، فقد حركنا جماهير البروليتاريا ، واوصلنا جماهير الفلاحين الفقراء الى حيث يدعمون بوعي جمهوريتنا » (٢٨)

عندما يتأمل المرء الوعي الجماهيري من حيث محتواه ، وليس فقط من حيث شكله الظاهري ، فانه سيكتشف استحالة اعتباره جزءا من

المستوى الادنى (العاطفي) لانعكاس الواقع ، ففيه ترتبط عضويا تكوينات نفسية أصيلة وتصورات وآراء ايديولوجية ولم يقرب لينين بالصدفة مفاهيم السيكولوجيا و الايديولوجيا من بعضها عندما تحدث عن الوعي الجماهيري هكذا تحدث في عـام ١٩١٧ ولدى وصفه للموقف السلبي للعمال والفلاحين من الحرب الامبريالية هذه الايديولوجيا ، هذا النمط من التفكير ، هو متأصل الى درجة غير عادية لدى سائر العمال والفلاحين تقريبا، بغض النظر عن مدى وضوحه » (٢٩)

ليس من الممكن مماثلة الوعي الجماهيري مع الوعي اليومي ، كما لا يمكن مماثلة الوعي النظري مع الايديولوجيا والفوارق بين الوعي الجماهيري والايديولوجيا ليست بالدرجة الاولى في صعيد الانعكاس بقدر ما هي في تحديد الوعي الجماهيري بصورة مباشرة لعمل وسلوك كتل جماهيرية كبيرة أي في ظهوره « كدافع واع في حين يجب على الايديولوجيا ، قبل أن تمارس هذه الوظيفة ، أن تنتشر جماهيريا باديء ذي بدء ، وأن تغدو هي نفسها محتوى الوعي الجماهيري من الطبيعي انه يمكن النظر الى الوعي الجماهيري والايديولوجيا من منظور عمق عكسها للواقع ، عندئذ يمكن أن نميز فيهما صعيدي الوعي اليومي والنظري هكذا تحول الجماهير الكادحة المؤمنة بأفكار الماركسية ـ اللينينية في الثورة الاشتراكية ، هذه الافكار الى محتوى لوعيها ومع ذلك فانها تبقى ، برغم اندماجها في الوعي الجماهيري وبحسب منشئها ، نتاج للنشاط النظري ويدخل الايديولوجيون من جانبهم ، عندما يدرسون الوعي الذاتي لطبقة ما ، الاحكام المسبقة لطبقتهم فيه ، أي انهم يضيفون اليه محتويات يمكن اعتبارها من الوعي اليومي ينتج عن ذلك انه لا يجوز مماثلة الوعي الجماهيري مع الوعي اليومي ان الوعي الجماهيري هو الوعي الراهن أو الواقعي لفئات اجتماعية كبيرة أما مسألة العناصر السائدة فيه ، وما اذا كانت عناصر من الوعي اليومي ام من الوعي النظري ، فانها ترتبط بطبيعة المجتمع نفسه وبطبيعة العلاقات السائدة فيه ، وترتبط بمحتوى العمل الايديولوجي بين الجماهير الشعبية

ثانيا تسمح تصريحات لينين حول السيكولوجيا الاجتماعية بفهم خصوصية الوعي الجماهيري التي تمتاز بأنها تنصب مباشرة على النشاط العملي . قال لينين **« يمتاز عصر الثورة بأن مزاج وهياج**

وقناعـة الجماهير يجب أن تظهر ، وهي تظهر فعلا ، في افعال » (٣٠) وكتب حول نتائج عامين من الثورة الاشتراكية في روسيا **« لقـد اظهرت الثورة نماذج لبطولات لا مثيل لها ، وحماسة ثوريـــة ونكران ذات لـم يعرفهما العالم من قبل »** (٣١) ويتحقق الوعي الجماهيري في النشاط العملي للبشر

ان شرح الصفة النوعية للوعي الجماهيري من منظور توجهه العملي تسمح بفهم السيكولوجيا الاجتماعية ، ومحتـــــواها ، والوظائف التـي تحققها ، بصورة أعمق

قبل كل شيء لا يستنفذ الوعي الجماهيري نفسه في السيكولوجيا الاجتماعية ، مع انه سيكولوجيا اجتماعية أيضا ان الوعـي الجماهيري هو وضع نوعي محدد تتخذه هذه أو تلك من التكوينات الفكرية هـــذا الوضع النوعي تكتسبه مثلا المعارف حول الظواهر الفيزيائية والكيميائيـة والبيولوجية الخ للعالم ، حين تجد انتشارا كبيرا وتستخدم فـــي الحياة اليومية وبقدر ما يطبق العلم في الانتاج ويتغلغل في طريقة حياة الناس وفي حياتهم اليومية نفسها ، فان بعض أصعدته المحددة تكتسب طبيعة وعي جماهيري ومع ذلك فقد حدثتاريخيا ان أخذتالسيكولوجيا الاجتماعية في البدء طابع وعي جماهيري هذه الصفة النوعيـة لا تزال حتى اليوم لصيقة بها قبل كل شيء واذا كنا لهذا السبب نركز اهتمامنا على السيكولوجيا الاجتماعية فانما نفعل ذلك من أجل ابراز صفاتهـــا الخاصة وحسب ، دون أن نماثلها مع الوعي الجماهيري

تمثل السيكولوجيا الاجتماعية نتاجا للظروف الحياتية للمجتمـع قال **ماركس**

> **« فوق الاشكال المختلفة للملكية ، وفوق شروط الوجود الاجتماعي تنتصب بنية فوقية كاملة من المشاعر والاوهام وطرز التفكير والتطلعـات الحياتية المختلفة . ان الطبقة بأسرها تخلق وتصوغ هــذه المشـــاعر والاوهـام وطرز التفكير والتطلعات الحياتية مـــن اساسها المـــادي والعلاقات الاجتماعية المطابقة له » (٣٢)**

هذه الاطروحة لماركس تستأثر بالاهتمام لسببين الاول انها تكشف المحتوى المتنوع للسيكولوجيا الاجتماعيـة الذي لا يضـم فقط المشاعر بل كذلك الافكار والنظرات الى العالم ثانيا يبرز هنا دور الطبقة كخالق للسيكولوجيا الاجتماعية .

تخلق الطبقة وعيها الخاص ، ولكن شروط خلق الوعي ليست متماثلة في المجتمع الطبقي بالنسبة لسائر الطبقات اذ لا تملك سائر الطبقات الوسائل الضرورية لانتاج وعي مطابق لمصالحها وتريد الطبقات السائدة ، التي تملك وسائل هائلة للانتاج الفكري ، وتتصرف بأجهزة خاصة للتأثير الايديولوجي ، أن تفرض وعيها على المجتمع بأسره. ومن غير الصحيح ان اكثر الصفات الخاصة أهمية للسيكولوجيا الاجتماعية تكمن في انها تمثل انعكاسا مباشرا للواقع ، مفترقة بذلك عن الايديولوجيا انها ، على كل حال ، تعكس الوسط الاجتماعي أيضا بصورة مباشرة ولكنها لا تعكسه بصورة مباشرة وحسب ، فمع تطور وسائل الاتصال الجماهيري في المجتمع تتشكل السيكولوجيا الاجتماعية بصورة رئيسية نتيجة لتغلغل نظرات الايديولوجيا في وعي الجماهير العريضة ان السيكولوجيا الاجتماعية كوعي جماهيري هي نتاج تأثير النظام الاجتماعي في التدريس والتربية والتعليم ، أي نتاج كل نظام التأثير الفكري على الجماهير

ومحتوى السيكولوجيا الاجتماعية متراكب يميزون فيه ثلاث فئات من الظواهر السيكولوجية الاجتماعية البنية النفسية لفئة اجتماعية معينة ، الظواهر العاطفية والنفسية الاجتماعية للفئة المنخرطة مباشرة في التأثير المتبادل والبنية النفسية هي الطبيعة الاجتماعية (لطبقة أو لامة الخ) التي تمثل جملة الصفات النفسية الدائمة التي تميز فئات اجتماعية معينة عن سواها ، وتشكل صفات مثل الصلابة، والشجاعة ، والثبات على الهدف الخ عناصر للبنية النفسية ، يضاف اليها تكوينات فكرية مثل العادات والتقاليد والاتجاهات الذوقية الثابتة

وتعتبر التقاليد الاجتماعية أكثر التكوينات السيكولوجية انتشارا وهي تمثل نوع رد فعل البشر على متطلبات المجتمع (الطبقة والامة) ونوع الموقف حيال معايير السلوك الاجتماعي عندما يبدأ الناس ، الذين يشكلون فئة اجتماعية ويجدون أنفسهم يعيشون في ظروف متماثلة ، بالقيام بردود أفعال من طراز متشابه حيال المتطلبات الاجتماعية ، فذلك يعني ان ثمة عادة قد نشأت في سلوكهم ويؤدي ترسخ التقاليد الاجتماعية المتكونة الى تشكل تكوينات اجتماعية نفسية خاصة مثل الاعراف وفي المجتمع الاول للانسان نظمت الروابط بين البشر عبر هذه الاعراف بصورة رئيسية وتجلت هذه قبل كل شيء في تلك المعايير السلوكية التي حددت سلوك العضو الفرد حيال فخذه وعشيرته ، وحيال

الافخاذ والعشائر الفريبة وكان الحفاظ على الاعراف مهمة مشتركة للعشيرة بأسرها

مع تطور المجتمع برزت الضوابط الاجتماعية (الاخلاقية والقانونية) في تنظيم الروابط بين البشر ، وتراجعت الاعراف ، مع ان دورها لا زال هاما حتى في المجتمعات الراهنة وبكمن اهمية الاعراف والتقاليد الاجتماعية ، في انها تثبت التجارب المتراكمة خلال تنظيم العلاقات البشرية ، وتسمح بنقلها الى الاجيال اللاحقة

الى جانب الاعراف تعتبر التقاليد تكوينات نفسية ـ اجتماعية أيضا. وهي تبدو في السيكولوجيا الاجتماعية كمعايير وضوابط لسلوك البشر الاجتماعي ، ترتبط مع عناصر ثابتة للحياة الفكرية للمجتمع

يريد الباحثون تفسير الصفة النوعية للتقاليد والعادات عن طريق اعتبارها جزءا من مجال السيكولوجية الاجتماعية يكتب **سارسينبايف** :

> **« نحن على ثقة من انه يجب اعتبار العادات والتقاليد كمقولات للسيكولوجية الاجتماعية فهي تعكس أولا معايير ومبادىء السلوك الاجتماعي ليس للافراد ، بل للمجموعات البشرية ، وتكون سماتها وصفاتها وعلائمها الفكرية وثانيا لان التقاليد والعادات تخلق من قبل الجماعات ، بعكس الايديولوجيات التي يضعها الايديولوجيون وينقلونها الى وعي الجماهير وثالثا لا ترتبط التقاليد والعادات فقط بمجال الافكار لدى البشر ، بل أيضا مع مجالات مختلفة للمعاناة البشرية وجذورها تقوم في السيكولوجيا الاجتماعية باكثر مما هي في الايديولوجيا » (٣٣) .**

يرى سارسينبايف الصفة النوعية للتقاليد والعادات في كونها اذن ظواهر سيكولوجية اجتماعية فقط ومن الصعب أن يوافق المرء على زعم لا تحفظ فيه كهذا ان المؤلف يعتبر التقاليد والعادات ظواهر سيكولوجية اجتماعية ، لانها على حد زعمه ، تعكس المعايير والمبادىء للسلوك الاجتماعي للجماعات والمجموعات البشرية غير ان التقاليد والعادات لا توحد في الواقع الى جانب المعايير والمبادىء ، وكانعكاس لها في الوعي انها هي نفسها معايير واقعية بل انها معايير ادعاؤها اكثر رسوخا ودعمها اكثر ثباتا والخروج عليها بالتالي أقل حدوثا من سواها من المعايير ويؤكد ماركس واذا ما استمرت هذه (شكل الترسخ الاجتماعي لعلاقات الانتاج المعطاة في الايديولوجيا) لفترة من الوقت ، فانها تترسخ نفسها في صورة عرف وتقليد ... (٣٤) .

ويمكن لطبيعة الاعراف والتقاليد أن تكتسب شكل روابط (مادية وفكرية) وأعمال بشرية بالغة التنوع ولا يجوز النظر اليهما في ترابطهما فقط معالروابط الخلقية والمبادىء الاخلاقية والمعايير السلوكية. فالتقاليد توجد فيالانتاج المادي، والحياة السياسية والخلقالفني، والعلم...الخ. وهي مرتبطة دوما وبحسب جوهرها بالمجال الذي تظهر فيه ، وبطبيعة العلاقات التي تتوطد أشكال ظهورها في المجتمع ومن الجلي ان التقاليد والعادات لا تقدر أن تكون فقط ذات طبيعة فكرية وحين يأخذ المرء مجال الحياة الفكرية فقط فان التقاليد والعادات لا يمكن هنا أيضا أن تقصر على مجال السيكولوجيا الاجتماعية أما المقارنة السابقة للاعراف التقاليد مع الايديولوجيا ، فانها مغلوطة ، لان هذه المقولات ليست مفاهيم أحادية الجانب ففي الايديولوجيا نفسها توجد أيضا تقاليد هذا لا يعني طبعا انه لا يمكن مقارنة الاعراف والتقاليد مع المعايير الاجتماعية والرأي الاجتماعي

وبخصوص مسألة نشوء الاعراف والعادات فقد ركز **ساسينبايف** على تمركز هذه العملية حول هدف محدد

> **« كانت الاعراف والعادات تملك خلال تكونها التاريخي ، وفي كل الحالات تقريبا ، بداية واعية ، وان كان انتشارها واستخدامها وترسخها قد حمل طابعا عفويا على الاغلب أما التقاليد الثورية فلا تنتشر بصورة عفوية ، بل واعية » (٣٥)**

من الصعب على المرء أن يوافق على هــذه الآراء أيضا فلدى خلق التقاليد تغلب في رأينا البداية العفوية وليس الواعية ومن غير الممكن أن تكون الامور على غير هذا النحو لان هذه الاشكال أو تلك من الروابط وانماط النشاط هي التي تتخذ طابعا تقليديا ان صنع التقاليد والاعراف هو في جوهره عملية تاريخية طبيعية بالطبع يستطيع البشر أن يطمحوا نحو ترسيخ شكل معين من العلاقات ، والحفاظ علىهذه أو تلك من معايير الحياة الاجتماعية ، بيد انهم لا يضعون لانفسهم ، أثناء ذلك ، هدف خلق تقاليد ، مع العلم بأن نتيجة مثل هذه الجهود قد تكون ، حقا ، خلقتقاليد جديدة بهذا المعنى المحدد والمحدود ، يستطيع المرء أن يتحدث عن بدايات واعية لخلق وتطوير الاعراف والتقاليد

ويمكن الحديث بنفس القدر عن هذه البدايات حين يدور النضال ضد تقاليد وأعراف قديمــة تحولت الى عائق في وجـه تطور الحياة

الاجتماعية وعلى المرء أن لا ينظر الـــى التقاليد والاعراف بمعزل عـــن الظروف التي هي شكل لها ولهذا فان هدف النضـــال لا يجب أن يكون تحاوز التقاليد والاعراف القديمـــــة فحسب بل الظروف ذات الطابع التقليدي مع العلم بأن تجاوز العلاقات القديمة هو في نفس الوقت قضاء على ما يطابقها من تقاليد وأعراف وحين نربي جيلا جديدا على تقاليـــد معينة فان ذلك يدعم اعادة انتاج العـــلاقات التي تشكـــل التقاليد شكلا لهـــا

ثمة سمة مستركة للتقاليد والاعراف والعادات الاجتماعية وغيرها من العناصر التي تتكون منها البنية النفسية لمجموعة اجتماعية ما الا وهي استمراريتها وهذه تميزها عن فئة أخرى مـــن العناصر الاجتماعية ـ النفسية التي تكون الجانب الشعوري للسيكولوجيا ـ الاجتماعية

وتكمن الصفة الخاصة لهـــذه الفئة الاخيرة في مرونتهـــا وسرعة تبدلها وفي قصر حياة الاحاسيس والامزجة الاجتماعية التي تصنعها ومع ذلك فهي تملك من الثبات ما يكفـــي لاعتبارها تكوينات نفسيـــة ـ اجتماعية من طراز خاص وكما يمكن أن يتغير الوضع العياني الذي يولد هذه الامزجة والاحاسيس أو تلك فان ظروف الحياة المستمرة نسبيـــا والتكوين النفسي لفئة احتماعية ما يدعمان امزجة واحاسيس معينة

وتكوّن الظواهر النفسية ـ الاجتماعية الناشئة في مجموعـــات بشرية تتبادل التأثير المباشر مـــع بعضها جانبـــا خاصا من محتوى السيكولوجية الاجتماعية وتعتبر الموضة والشائعات وحالات الذعر جزءا من هذا المحتوى ، ويتحدد نشوؤها بخصائص التعامل بين البشر أنفسهم، وعبر التقليد والتأثير والعدوى النفسية الخ

وتعتبر الفئات الثلاث المذكورة من الظواهر الفكريـــة من محتـــوى السيكولوجيا الاجتماعية فهل هي تستنفذه ؟! انها في رأينا ، لا تفعل ذلك ليس فقط لان علائم البنية السيكولوجية للفئـــات الاجتماعية أو الجانب الشعوري للوعي لم يكشف بعد بصورة كاملة ، بل لانه يتـــم هنا تجاهل جوهر الوعي الاجتماعي الافكـــار والنظرات والتصورات البشرية وكما اتضح من شرحنا الموجز للظواهر النفسية ـ الاجتماعية فان التكوينات المتأصلة في أعراف وتقاليد من جهة ، والمرنة من جهة ثانية والتي تأخذ شكل أمزجـــة واحاسيس وموضات متغيرة ، تعتبر مـــن

مكونات السيكولوجيا الاجتماعية فما هي بنية المحتوى الذي يبرز مع الاحاسيس والامزجة ليترسخ فيما بعد في الاعراف والتقاليد ؟ لدى عرض موضوع علم النفس الاجتماعي كعلم يدرس السيكولوجيا الاجتماعية كظاهرة من ظواهر الحياة الفكرية للمجتمع فانه يتم تجاهل هذا المحتوى. ولا توجد حتى الآن وجهة نظر موحدة حول موضوع علم النفس الاجتماعي كعلم فهناك من يعتقد ان سيكولوجية الافراد هي هذا الموضوع ويرى غيرهم موضوع علم النفس الاجتماعي في الخواص النفسية للطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة وهناك من يرى ان هذين الموضوعين مجتمعين هما موضوع علم النفس الاجتماعي. ويقصر ممثلو سائر وجهات النظر السابقة محتوى السيكولوجيا الاجتماعية على الطبيعة الاجتماعية والاعراف والتقاليد والجانب الشعوري للوعي والخواص السيكولوجية لسلوك البشر ومع ان هناك وجهات نظر مختلفة حول موضوع علم النفس الاجتماعي فانها تتبنى ، من حيث المحتوى نفس المفهوم حول السيكولوجيا الاجتماعية

في رأينا ان السيكولوجيا الاجتماعية تشمل أيضا على افكار وتصورات سياسية وقانونية وأخلاقية الخ وان كانت لا تكوّن نظريات ومنظومات فكرية بعد كما هو الوضع في الايديولوجيا بل توجد على شكل قناعات واتجاهات اعتقادية ومنطلقات اجتماعية اننا نميز في الايديولوجيا الافكار والآراء وفق محتواها أما في السيكولوجيا الاجتماعية فان الامر الرئيسي هو قناعات البشر (طبقات وفئات كاملة) أو المدى الذي بلغته هذه الافكار والآراء في امتلاك وعي الجماهير ودرجة تحولها الفعلي الى مقاييس لسلوكها ان محتوى الافكار والآراء هو أمر رئيسي بالطبع ولكن الشيء الاكثر أهمية هو امتلاكه جماهيريا مسألة ما اذا كان قد غدا قناعة راسخة أم لا ، وكيف يظهر ويعاش في السلوك ويرسخ نفسه في العادات والتقاليد الخ ان المحتوى الرئيسي للسيكولوجيا الاجتماعية تشكله قناعات الفئات والطبقات الاجتماعية وسواها من الجماعات البشرية

عندما نراعي لدى دراسة محتوى السيكولوجيا الاجتماعية قناعات البشر ودرجة وعيهم أيضا فان علم النفس الاجتماعي ، كعلم ، يكتسب عندئذ صفته النوعية الخاصة التي تسمح بفصله عن علم النفس الاجتماعي التقليدي الذي وضعه خلال عشرات السنين علماء نفس

واجتماع برجوازيون في الوقت الحاضر يكاد يستعصي عــلى الباحث اثبات مثل هذا الفارق من موضوع البحث نفسه

ان موضوع السيكولوجيا الاجتماعية كعلم يمكن ان يكون ، الى جانب الخواص السيكولوجية وخواص سلوك الافراد داخــل الفئة الاجتماعية قوانين انتشار الافكار والآراء بين الجماهير وقانونية تشكل وتغير وتطور قناعاتها وعندئذ يصبح الكشف عن وظائف الظواهر النفسية والاجتماعية والاسس العلمية لتربية الجماهير اكثر مهمات عــلم النفس الاجتماعــي اهميـــة

وبما ان مسألة موضوع ومهمات علم النفس الاجتماعي تتجاوز اطار هذا البحث فاننا سنعود الى دراسة السيكولوجيا الاجتمــاعية كمجــال للوعـــي

من الممكن تقديم وصف كامل الى حد ما للسيكولوجيا الاجتماعية كمجال للوعي ، وكشف ارتباطها مع الايديولوجيا والعـــلم فقط عندما يحدد علم النفس الاجتماعي ونظرية الصحافة ، والاخلاق وعلم الجمال ، والتربية ، وسواها من العلوم الاجتماعية المرتبطة مع الوعي الاجتماعي ، مهماتها تحديدا دقيقا لدى دراستها للظواهر النفسية الاجتماعية. وحتى الفلسفة لا تستطيع ان تتخذ موقفا غير مكترث من الطريقة التي يفهم بهــا موضوع علم ما ، مع ان هذا الموضوع يتحدد من قبل العلم نفسه

لم تدرس بعد وظائف السيكولوجيا الاجتماعية دراســـــة منهجية كافية تسمح بالكشف عن خصوصيتها هذا امر يمكن ايضاحه الى درجة ما من الموقف الذي كان سائدا حتى قبل فترة قصيرة حيال السيكولوجيا الاجتماعية ومن المفاهيم التي تكونت على اساسه وحين نرى السمــة المميزة للسيكولوجيا الاجتماعية في غريزية ولاوعي امزجة وافعال البشر ، فان مثل هذا الكيان لن يكون قادرا على تحقيق اية وظائف ايجابية ولكن مثل هذه الوظائف موجودة فما هي ؟

اكدنا عند تحديد مقياس التمييز بين مجالات الوعي الاجتماعي ان هذه تتميز عن بعضها ايضا بالوظائف التي تحققها هـــــذا يصح ايضا بالنسبة للسيكولوجيا الاجتماعية ومع ذلك فان خصوصية هذا المجال لا تكمن في انه يحقق وظيفة خاصة دون غيره من مجالات الوعي ، بل هي تكمن في انه يحقق وظيفة خاصة بالوعي

تظهر وظائف السيكولوجيا الاجتماعية لــــدى حل المهمات العمليــة للحياة اليومية ويمكن القول ان السيكولوجيا الاجتماعية متداخلة فــي النشاط العملي للبشر وفي هذا تتميز عن الايديولوجيا والعلم بصفتهما نتاجا للانتاج الفكري الذي يتوضح في نظريــــة أو معرفة وتستهدف وظائف السيكولوجيا الاجتماعية المتداخلة في نسيج النشاط العمــلي للبشر تحقيق القناعات والمـــواقف وسواها من التكوينات النفسيــة الاجتماعية في الروابط الواقعية وفي سلوك البشر هذا ينطبق عــلى وظيفة التأقلم والاتصال وضبط الروابط وسواها من الوظائف التي تخص الوعي الاجتماعي بمجموعه هكذا تحقق السيكولوجيا الاجتماعية تأقــلم البشر مع العلاقات الاجتماعية القائمة وتنظم عبر تكويناتها وخاصة العادات والتقاليد الروابط بين البشر وفي معايير السلوك الاجتماعي تتموضع التجربة الحياتية للبشر وتنقل الى الاجيال اللاحقة

ان اكثر وظـــائف السيكولوجيا الاجتماعية تميزا هي وظيفتهـــا الشعورية الارادية التي تدفع البشر الى الفعالية قال **انجلز** : لدىالانسان الفرد يجب بالضرورة أن تتحول سائر الدوافع الى دوافع ارادية ليدفع للقيام بعمل ما ويمكن قول نفس الشيء عن اية مجموعة من البشر ان القوى الدافعة التي تحدث أعمالا لدى جماعة ما من البشر تعبر عـــن نفسها في أوضاع شعورية ــ ارادية للوعي الجماهيري وتبرز الوظيفة الشعورية ــ الارادية خصوصية السيكولوجيا الاجتماعية بوضوح كمجال خاص للوعي

تسمـــح لنا العناصر المذكـــورة بفرز السيكولوجيا الاجتماعية عن المجالات الاخرى للوعي الاجتماعي والنظر اليها كتجل للوعي الجماهيري. بالطبع لا يستنفذ الوعي الجماهيري السيكولوجيا الاجتماعية بأي حـال ولكن النظر اليها كوعي جماهيري هو أمر جوهري فقط عـــلى طريق تفسير التوجه العملي المباشر والانتشار الــذي تحظى به الافكار والآراء بيــن الجماهير الشعبية ، يمكـــن الكشف عـــن خواص السيكولوجيا الاجتماعية وعلى هذا الطريق سنجد انها تتميز عن المنتجاتالايديولوجية للانتاج الفكري ، التي لا يمكن أن تتملكها الجماهير العريضة دفعة واحدة. هذا الفارق يبقى قائما حتى عندما تكون منتجــات الانتاج الفكري فــي مرحلة انتشارها ومن المعروف ان الافكار والآراء التي تكون قيد الانتشار تتملكهـــا الجماهير بحسب تجربتها ، وبحسب القناعات ، والاتجاهات

لاعتقادية والتقاليد وسواها من التكوينات النفسية الاجتماعية المتكونة لديها وتختفي الفوارق عندما ترتبط منتجات الانتاج الفكري مع مجموع البنيــة الشعورية والفكرية القائمة ومــع عادات وتقاليد الجماهير ، وتصير عناصر للسيكولوجيا الاجتماعية وبما ان الانتاج الفكري هو عملية دائمة ، فان الفوارق بين السيكولوجيا الاجتماعية وسواها من مجــالات الوعي الاجتماعي تبقى مستمرة

٣ ـ الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع

في الايديولوجيا كما في السيكولوجيا الاجتماعية تشترك مجموعات وطبقات اجتماعية كاملة بهذا المعنى لا توجد فروق بينهما ولا تبرز الفروق بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الا حين نصل الى الوعي المتخصص والوعي الجماهيري ونبحث في طبيعة الحامل المشخص لهذه التكوينات الفكرية فالسيكولوجيا الاجتماعية تعبر عنها جماهير عريضة من البشر وهي القوة الدافعة لشعوب باسرها وفي كل شعب لطبقات بكاملها في حين يعبر القسم الناشط من طبقة اي الطليعة عن الايديولوجيا هذه السمة لا تمس بعد محتوى هذا المجال من الوعي ، ولكنها تسمح لنا بأن نفرق حسب الملامح الخارجية الايديولوجيا عن الوعي الجماهيري من حيث ان الاولى هي وعي متخصص. وهناك سمات أخرى ، سندرسها فيما بعد تسمح بتمييز الايديولوجيا بحسب محتواها ، وبتحديد مكانها في الوعي الاجتماعي

هذا الامر الاخير مرتبط بمصاعب كبيرة كما هو الحال في السيكولوجيا الاجتماعية ، وان كانت مصاعبه من نوع آخر فبينما استثنى المرء علم النفس من الوعي الاجتماعي فهمت الايديولوجيا على الاغلب كشيء مساو له واذا كانت في حالات ما لم تتساو بالوعي الاجتماعي فان مفهوم الايديولوجيا قد استخدم لوصف هذا الجانب او ذاك من جوانبه ، والصق به معنى واسع وضيق وأضيق فصعّب هذا التمييز فهم ذلك المجال من الوعي الاجتماعي الذي يمكن لنا ان نسميه الايديولوجيا

لا نريد مناقشة وجهات النظر التي تعتبر ان ثمة تماثلا بين الايديولوجيا والوعي الاجتماعي او التي تبرز الايديولوجيا الى جانب الوعي الاجتماعي ، كظاهرة للحياة الفكرية للمجتمع ـ مع انها منتشرة تماما في الادبيات التي تعالج مسألة الايديولوجيا والوعي ـ في الوقت الراهن ثمة مفهوم وطد نفسه علميا ، وهو يقوم على عدم اعتبار الايديولوجيا

والوعي الاجتماعي تكوينان متعارضان وعلى عدم اعتبارهما الشيء نفسه أيضا بل يعتبر الايديولوجيا أحد العناصر الداخلة في الوعي الاجتماعي

« الايديولوجيا هي ذلك القسم من الوعي الاجتماعي المرتبط مباشرة بحل المهمات الاجتماعية التي يواجهها المجتمع ، لذا فهو يعكس العلاقات الاجتماعية بهدف تغييرها أو ترسيخها » (٣٦) .

كيف تتحدد الايديولوجيا كجزء أو كعنصر من عناصر الوعي الاجتماعي ؟ هذه عملية فكرية تتميز بالتمركز على هدف معين ، وتظهر نتاجاته في شكل نظريات

« السمة الاكثر تمييزا للايديولوجيا هي ... التعميم الذي يدفع بحدودها حتى تبلغ مرتبة المبادىء الاساسية والشاملة ، التي تشكل منطلقا لسواها » (٢٣) .

وتمثل الايديولوجيا متميزة في ذلك عن السيكولوجيا الاجتماعية ، نظاما للافكار والآراء وتعتبر جزءا من الصعيد النظري لانعكاس الواقع

ان تعريف الايديولوجيا كتكوين فكري يعكس الواقع في شكل نظريات وتعاليم مختلفة لا يقدم الكثير لفهم خصوصية الايديولوجيا لذا ستكمل تعيين الايديولوجيا على الصعيد المعرفي بتعيينها على الصعيد السوسيولوجي ويفهم عدد من العلماء الايديولوجيا بوصفها ذلك المجال من الوعي الاجتماعي الذي يتعين من خلال العلاقات الاقتصادية بوصفها أساسه المادي المباشر انه جزء من البنية الفوقية للقاعدة الاقتصادية ويخضع في تغيره وتطوره لقانونية الروابط المتبادلة بين القاعدة والبنية الفوقية مثل هذا التعريف يملك بالقياس الى الدراسة المعرفية للايديولوجيا ميزة السماح بفهمها كمجال خاص من الوعي الاجتماعي ، وليس كأحد أصعدته فقط

ويمثل التعريف المشهور للايديولوجيا كانعكاس للوجود الاجتماعي، من حلال موشور المصالح الاجتماعية نتيجة اتحاد خاص للتناول المعرفي والتكويني للظاهرة المدروسة هنا يتم الانطلاق عند تعريف الايديولوجيا من انها تنشأ على أرضية العلاقات الاقتصادية القائمة في المجتمع وفي المجتمع الطبقي تظهر العلاقات الاقتصادية في شكل مصالح لطبقات محددة،

فتبدو الايديولوجيا كانعكاس للواقع في موشور المصالح الطبقية ، كنظام من افكار وآراء طبقة محددة

يتوافق هذا المفهوم حول الايديولوجيا مع نظرية نشوئها في المجتمع الطبقي ان الايديولوجيا توضع على يد مفكرين وممثلين لطبقة ما يملكون امكانية الانصراف الى النشاط الفكري ويستطيعون التعبير عن المصالح الطبقية في شكل نظريات وتعاليم ومنظومات فكرية ويحلل هؤلاء الايديولوجيون نظريا وضع الحياة الاجتماعية ومكان طبقتهم فيها وهم يعون مصالح طبقتهم قبل أن تجد الطبقة نفسها الطرق العملية لتحقيق هذه المصالح

في التعاليم الايديولوجية تعبر المصالح الرئيسية والعامة للطبقات عن نفسها لذا تبرز التناقضات والمصادمات بين المصالح الطبقية في الصراع الايديولوجي ايضا ان الايديولوجيات التقدمية والمحافظة والرجعية التي تصطدم ببعضها في مجرى الصراع تعكس في نفس الوقت المصالح المتباينة للفئات الاجتماعية

وتميز العناصر التي ذكرناها الايديولوجيا عن سواها من مجالات الوعي الاجتماعي بيد انها لا تكفي لوحدها فالايديولوجيا لا تنفرد داخل المجتمع الطبقي بحمل طبيعة طبقية ، بل تشاركها في ذلك أيضا السيكولوجيا الاجتماعية ويحتوي الوعي الطبقي على ايديولوجيا وعلم نفس أيضا ولا يمكن اعتبار تحدد الايديولوجيا بالعلاقات الاقتصادية بوصفها اساسها المادي المباشر سمة خاصة بها فهذه تنسحب ايضا على السيكولوجيا الاجتماعية التي تتحدد بدورها الى درجة معينة بصورة مباشرة من قبل العلاقات الاقتصادية وتملك الايديولوجيا صفاتها الخاصة كانعكاس للوجود الاجتماعي وكعنصر للبنية الفوقية للقاعدة الاقتصادية ومع ذلك فمن الصعب ايجاد الصفات الخاصة التي تميز الايديولوجيا عن سواها من مجالات الوعي حين يتابع المرء فقط الصفات الخاصة بمنشئها ، وبعكسها للواقع على المرء أن يستخدم هنا وجوها أخرى للتحليل السوسيولوجي ، مثل المنظورات البنيوية والوظيفية التي تسمح بتحليل محتوى الانواع الايديولوجية للوعي ودورها في حياة المجتمع في مؤلفه الايديولوجيا كشكل للنشاط الفكري للمجتمع » يحلل يادوف الايديولوجيا كظاهرة مركبة ، ويدرسها على الصعيدين

المعرفي والسوسيولوجي وهذا يمكنه من اعطاء سلسلة من تعيينات الايديولوجيا يكتب **يادوف**

> **تمثل الايديولوجيا انعكاسا للوجود من موشور المصالح الطبقية ... ككل ـ كجملة الاشكال الايديولوجية ـ تعتبر الايديولوجيا منظومة من افكار وآراء طبقة أو فئة اجتماعية محددة ... وكشكل خاص للنشاط الفكري ، تعتبر الايديولوجيا السلاح النظري للطبقات وفي ذلك تكمن وظيفتها الاجتماعية الاساسية » (٣٨) .**

ان الدراسة المتمايزة التي تستهدف تفسير خصوصية الايديولوجيا، تمكننا من فهم هذه أو تلك من صفاتها الخاصة ، وصياغتها في تعاريف وفي الادبيات الحديثة يوجد عدد كبير من التعريفات للايديولوجيا وان كانت الحاجة قد نشأت في العلم لايضاح مفهوم الايديولوجيا بوضع تعريف لها يشمل سائر التعاريف الموجودة هكذا كتب السوسيولوجي البولوي **جيرزي فيتار** في كتابه هل انتهى عصر الايديولوجيا

> **« الايديولوجيا هي جملة الاراء المنهجة نسبيا ، التي يعتبر ارتباطها الوظيفي مع مصالح وطموحات فئة اجتماعية سمتها المميزة ، وتدخل فيها أفكار نشأت وانتشرت على أرضية التجربة التاريخية والشروط الحياتية للفئة المعنية ، من اجل وصف الواقع وتقييمه ، كما تدخل فيها التوجيهات السلوكية المشتقة من هذه الافكار » (٣٣) .**

هذا التعريف كاف وتام وفي ذلك تكمن قوته وعلى كل حال فان من الصعب جدا الوصول الى تعريف شامل يستنفد الايديولوجيا حقا فالتعريف يجب أن يعبر عن جوهر الظاهرة المدروسة ، لان هدفه هو الوصول الى معرفة معمقة لها وفي موضوع كالذي نحن بصدده يمكن أن يكون تحديد الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع (لطبقة أو لفئة اجتماعية تعريفا مقبولا ومعبرا وهذا التحديد نابع عن تحليل أصل الايديولوجيا والصفة النوعية التيتميز طريقة عكسها للواقع، وعناصرها. وتشجع دراسة دور الايديولوجيا في حياة المجتمع على مثل هذا التعريف. وربما كان الجانب الوظيفي هو الذي يمكننا بالدرجة الاولى من فهم السمة الجوهرية للايديولوجيا وتعيين مكانها بين سواها من مجالات الوعي الاجتماعي

أما بخصوص الشخص الفرد فان مصطلح الوعي الذاتي لا زال مستخدما . وهو يعني وعي الفرد لنفسه ويستخدم هذا المصطلح ايضا

بالنسبة لطبقة ما والمثال على ذلك جملة ماركس حول تحول الطبقة بذاتها » الى طبقة لذاتها وهو يسمح بشرح المحتوى الذي يمكن أن يأخذه تعبير الوعي الذاتي للمحتمع

مع صعود المجتمع البرجوازي تقف الطبقة العاملة موضوعيا في مواجهة البرجوازية ولكنها لا تعرف دفعة واحدة ، تعارض مصالحها مع مصالح البرجوازية ومكانها في المجتمع وأهداف ومهمات نضالها الذي لا تزال تخوضه بصورة عفوية ان وعي البروليتاريا في مطالعه هو في محتواه تريدونيوني يمثل القناعة بضرورة الانضواء في اتحادات، وخوض النضال ضد أصحاب المصانع وانتزاع هذا أو ذاك من القوانين الضرورية للعمال من الحكومة الخ (٤٠) وكانت سياسة البروليتاريا أيضا تريدينونية تعني طموح سائر العمال المشترك نحو وضع تتخذ الدولة فيه هذا الاجراء أو ذاك لمساعدتهم على التخلص من بعض المصاعب المرتبطة بوضعهم مع الابقاء على الوضع نفسه أي مع الحفاظ على خضوع العمل لراس المال (٤٠) لقد كانت الطبقة العاملة ذات السياسة التريدينونية والوعي التريدينوني طبقة بذاتها وكان ينقصها معرفة مصالحها الطبقية الرئيسية ، ومعرفة أهداف ومهمات النضال التي تنبع من هذه المصالح وهي معرفة مكنت العمال ، فيما بعد ، من الانتقال من النضال العفوي الى النضال الواعي بعد أن كان ينقصها الوعي الذاتي الطبقي

نشأ الوعي الذاتي للطبقة العاملة كنتاج طبيعي وحتمي للتطور الايديولوجي للمثقفين الاشتراكيين الثوريين » (٤٠) أما حامل الوعي الذاتي فهو الطليعة ، أي حزب الطبقة العاملة الذي يعبر عن الوعي الذاتي للطبقة ويحمل الوعي الى الحركة العمالية فيعطيها بذلك طبيعة واعية وبفضل نشاط الحزب العمالي تتحول الطبقة الغاملة من طبقة بذاتها الى طبقة لذاتها أي تعي مصالحها الرئيسية وأهدافها ومهمات نضالها وتطمح عن وعي لتحقيقها

والحديث عن الايديولوجيا كوعي ذاتي للطبقة تسمح به أيضا الوظائف التي تحققها وفي الادبيات السوسيولوجية يتم التمييز بين وظائف للايديواوجيا تتجلى في توصيل التجربة الجماعية ترسيخ الروابط الجماعية وأخرى تخدم كأساس لتوحيد الافعال الفردية

والجماعية ، وتقدم لاعضاء الجماعة المعنية بواعث السلوك المطلوبة ، وتمثل اداة فعالة للتأثير على البشر ، بأن تصوغ وعيهم بطريقة معينة

ان للايديولوجيا فعلا الوظائف المذكورة ، مع انها ليست مقتصرة على هذا المجال من الوعي ، اذ تحققها أيضا ، والى حد كبير ، المجالات الاخرى للوعي الاجتماعي فتوصيل التجربة الجماعية وايجاد بواعث للنشاط البشري هما أيضا وظائف للسيكولوجيا الاجتماعية وفي نفس الوقت تعطي الايديولوجيا لطبقة اجتماعية (وليس لفئة اجتماعية اجمالا) الوعي والشعور بوحدة وترابط مصالح معينة وهي تعطيها القيم الفكرية التي ترسخ الطبقة وتخدمها كدعامة في الصراع الطبقي وتطرح الاهداف المشخصة لعمل الطبقة وتشير الى سبل تحقيقها بكلمات أخرى تعبر الايديولوجيا عن المصالح الطبقية وتدافع عنها وهي تخدم كدليل في الصراع هنا تكمن وظيفتها الخاصة التي تميزها عن سائر مجالات الوعي الاجتماعي الاخرى ، وتجعلها بحق الوعي الذاتي للمجتمع

لدى تحقيق وظيفتها الرئيسية تكشف الايديولوجيا جوهر العلاقات الاجتماعية المعطاة أو تقنعه ، وهي اما أن تفضح أو تستر التناقضات الطبقية وفي المجتمع الراهن يبدو ذلك على خير وجه في الايديولوجيا البرجوازية والايديولوجيا الاشتراكية فبينما تطمح الايديولوجيا الاشتراكية الى فضح الجوهر الاستغلالي للرأسمالية ، تعمل الايديولوجيا البرجوازية على طمسه وتتناقض الايديولوجيتان أيضا في مسائل تناقضات المجتمع الرأسمالي وسواها من مسائل الحياة الاجتماعية وتعبر الايديولوجيا البرجوازية عن مصالح طبقة المستغلين السائدة وتهدف الى تخليد الرأسمالية ، في حين تعبر الايديولوجيا الاشتراكية عن المصالح الرئيسية الطبقة العاملة والجماهير الكادحة ، وتعلل ضرورة قلب العلاقات الاجتماعية الرأسمالية واستبدالها بعلاقات اشتراكية

من أجل أن تحقق الايديولوجيا الوظائف الخاصة بها فانها تحتاج الى الانضاج المستمر لهذه الفكرة أو تلك ، والى التطوير المستمر لهذه النظرية أو تلك ، على يد ايديولوجيي الطبقة من هنا فان كل نمط ايديولوجي يملك محتوى بالغ التنوع وكما يكتب **سادوف** ، فان الايديولوجيا هي

« الانعكاس المنهج والمعمم نظريا للمصالح الطبقية ، والذي يتخذ شكل نظرات سياسية وقانونية واخلاقية وفنية ودينية وفلسفية » (٤١) .

يميز **فيتار** لدى دراسة محتوى الايديولوجيا اربعة أصناف من النظرات فهي الايديولوجيا تحتوي **أولا** قيما جوهرية يحدث على اساسها تقييم الظواهر الاجتماعية وهي تحتوي **ثانيا** على تصورات عامة حول العالم وقانونية تطوره وهناك **ثالثا** أسس تحدد شروط تحقق القيم المقبولة كشروط الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مثلا وتحتوي الايديولوجيا **رابعا** على توجيهات للعمل تعتبر برامج الاحزاب السياسية وسواها من الوثائق المماثلة جزءا منها (٤٢) لا تستنفذ الاصناف المذكورة بالطبع محتوى الايديولوجيا فهو متباين بحسب أنماطها ولعله على كل حال من غير الصحيح اعتبار التوجيهات الخاصة بالسلوك جزءا من محتوى الايديولوجيا لانها أقرب الى مجال السياسة منها الى مجال الايديولوجيا ولا يغير من ذلك انها بحاجة دوما الى تبرير وتعليل ايديولوجي وفي نفس الوقت يسمح ابراز مقولة القيم الجوهرية داخل محتوى الايديولوجيا بوصفها الاساس الذي تقيم به الظواهر الاجتماعية على فهم أدق لخصوصية الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع.

تنهض الايديولوجيا على أرضية العلاقات الاقتصادية وتعتبر بنية فوقية للقاعدة الاقتصادية وتجد روابط البشر داخل عملية انتاج السلع المادية تعبيرها في منظومات أفكار وآراء متنوعة يجعلنا احتكاكنا بها نتعرف بداخلها على وعي المجتمع لذاته وترتبط طبيعة الوعي الذاتي للطبقات والفئات الاجتماعية ببنية العلاقات الاقتصادية المهيمنة داخل المجتمع

من المعلوم ان ماركس وانجلز قد وصفا ايديولوجيا البرجوازية « كوعي مزيف » . وأكدا في « الايديولوجيا الالمانية » ان دراسة مسائل الايديولوجيا ممكنة فقط بالارتباط مع تحليل التاريخ البشري ، « لان الايديولوجيا بكاملها تقريبا هي اما مفهوم مغلوط لهذا التاريخ او تجريد كامل عنه . ان الايديولوجيا نفسها ليست سوى احد جوانب هذا التاريخ » (٤٣) .

ان مبدأ الماركسية حول امكانية دراسة مسائل الايديولوجيا فقط بالارتباط مع تحليل التاريخ البشري لان الايديولوجيا نفسها ليست سوى أحد جوانبه لا يجد الاهتمام الكافي ، ولا يستخدم في النضال ضد السوسيولوجيا البرجوازية التي تحاول تشويه مفاهيم ماركس وانجلز حول الايديولوجيا . ويتحدث كلاسيكيو الماركسية عن ان الافكار التي

كانت تسيطر على المانيا في أربعينات القرن الماضي كانت أفكار البشر حول انفسهم وعلاقاتهم ، حول وعيهم لانفسهم وللبشر ، فهي لم تكن وعي الشخص المفرد فقط بل كانت وعي الشخص المفرد في ارتباطه مع المجتمع بأسره ، الذي كان يعيش فيه (٤٣) وبكلمات أخرى لقد عبر الايديولوجيون عن الوعي الذاتي للمجتمع ولكن بنية هذا الوعي ترتبط بالمجتمع نفسه لهذا هدف ماركس وانجلز الى تبيان الكيفية التي تنشأ بها الافكار حول المجتمع ، وركزا بخاصة على تلك الافكار التي تعطي تصورا زائفا عن المجتمع وتحليلهما لنشوء الليبرالية الالمانية هو مثال جيد على صحة ما أرادا الوصول اليه

كانت الليبرالية الالمانية في مطالع أربعينات القرن الماضي تمثل حماسة طائشة ايديولوجية حول الليبرالية الواقعية (٤٣) وقد وجد ماركس وانجلز تفسير ذلك في تاريخ البرجوازية الالمانية ، في العلاقات الاقتصادية والسياسية للمجتمع وأظهرا ان البرجوازيين الالمان لم تكن لهم مصالح مشتركة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وقد توافق مع تبعثر مصالحهم تبعثر تنظيماتهم السياسية أيضا

في عصر الملكية المطلقة تلقت السلطة السياسية « استقلالية شاذة بأن ركزت الدولة نفسها كسلطة مستقلة ظاهريا ويؤكد ماركس وانجلز ان وضع الدولة هذا يفسر مجمل الاوهام السائدة في المانيا حول الدولة و الاستقلالية الظاهرية للمنظرين حيال البرجوازيين والتناقض الظاهر بين الشكل الذي يعبر به هؤلاء المنظرون عن مصالح البرجوازيين وهذه المصالح نفسها (٤٣) بنفس الاسباب يفسر أيضا، كما قال ماركس وانجلز الشكل المشوه الذي اتخذته الليبرالية الفرنسية في المانيا ، وخاصة في فلسفة كانت فلا كانت ولا المواطنون الالمان ، وكان المتحدث باسمهم قد لاحظوا ان في أساس الافكار النظرية للبرجوازيين مصالح مادية وارادة معينة ومتحددة بعلاقات الانتاج المادية لقد فصل التعبير النظري عن المصالح التي يعبر عنها وحول تعيينات ارادة البرجوازية الفرنسية ذات البواعث المادية ، الى تعيينات ذاتية بحتة للارادة الحرة ، للارادة بذاتها ولذاتها ، للارادة البشرية ، وجعل منها بهذه الطريقة تعيينات ايديولوجية مفهومية وبدهيات أخلاقية (٤٣) . وبقيت الليبرالية السياسية وهما من الاوهام،

عندما وحدت المصالح المحلية المزقة وصار لها طابعـــا مشتركا الـى حد ما وسار المواطنون الالمان تقريبا كالبرجوازيين الفرنسيين في ١٧٨٩ ان ايديولوجيي البرجوازية الالمانية ، التي كـــانت تجمّع نفسها لم يفهموا ارتباط الليبرالية بالمصالح الطبقية الفعلية مع انهـا انبثقت عنها ، ولا يمكن ان يكون لها وجود واقعي الا معها (٤٣)

يمكننا تحليل نشوء الليبرالية الالمانية ، كنتاج ايديولوجي نموذجي أن نفهم لماذا أسمى ماركس وانجلز الايديولوجيا وعيا زائفا » غير ان تحليلهما لا يقتصر على التدليل على ان المفهوم الزائف للتاريخ هو ايديولوجيا. فقد دللا على ان مثل هذا المفهوم يتحــــدد بالعلاقات والمصالح الطبقيـة السائدة في المجتمع التي تظهر كعلاقات اجتماعية وكما تكون العلاقات الاقتصادية كذلك تكون النظريات وهذا أمر لا تتضح فقط من المثـال الذي سقناه حول الليبرالية الالمانية بل هو مميز لنشوء عدد كبير مـن الافكار والآراء السياسية والاخلاقية وغيرها ويمكن للمرء أن يشير هنا الى منازلة ماركس وانجلز مع أفكار وآراء الاشتراكية الالمانية الحقيقية كـــــان الاشتراكيون الحقيقيون ايديولوجيو البرجوازية الصغيرة والمعبرون عن مصالحها وقد طمسوا التناقضات بين أصحاب الملكيـــة الخاصة والبروليتاريين الــــذين جردوا من أية ملكية ، وهذا ما تظهره نظريتهم حول الملكية الحقيقية وكما يشير ماركس وانجلز فـــان هذه النظرية فهمت الملكية الخاصة الواقعية الراهنــة **كوهم فحسب** ، ونظرت الى التصور المجرد المنبثق عن هذه الملكية الحقيقية **كحقيقة وواقع** لهذا الوهم اي انها ايديولوجية بقضّها وقضيضها انهـــا تعبر فقط بوضوح اكبر وتحديد اكثر عن تصورات البرجوازيين الصغار الذيـــن تتوجه مطامحهم الخيرة ورغباتهم الورعة الى الغاء حالة انعدام الملكيـــة أيضا (٤٣) وينتج الوضع المتناقض للبرجوازيين الصغار مثـــل هذه الاوهام والضلالات المنتشرة في السيكولوجيا الاجتماعية ، وفي الايديولوجيا أيضـــا

ثمة امكانية واقعية لظهور وعي وهمي داخـــل العلاقات المادية لاي مجتمع يقوم على الملكية الخاصة وكما أشار ماركس في رأس المال » ، تأخذ الروابط الاجتماعية للمنتجين في ظروف انتاج السلع التي تشكل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج أساسها شكل روابط بين أشياء هذا التشيؤ لعلاقات الانتاج ينشأ نتيجة لواقع ان روابط الانتاج بيــن البشر

لا تتحقق بصورة مباشرة بل عبر تبادل الاشياء في السوق ، عبر بيع وشراء السلع وهذا ينتج وهما مثل وهم صنمية السلعة وينشأ لدى البشر تصور بأن الاشياء نفسها السلع تملك بطبيعتها خواصا غامضة معينة

تطمح الدولة في المجتمع الاستغلالي وهي نتاج للتناقضات الطبقية وطبيعتها التي لا تقبل المصالحة الى الانفصال عن المجتمع والى وضع نفسها فوقه وهي تنجح في ذلك بقدر ما يكون تعبيرها عن مصالح الطبقة السائدة اقتصاديا أي أكثر كمالا ان وهم استقلال الدولة والبنية الفوقية اجمالا ، يخلق أيضا امكانية لنشوء الاوهام

ويرتبط تحول هذه الامكانية الى واقع بالعلاقات الاجتماعيةالسائدة، التي تشترط تقسيما للعمل تنفرز فيه فئات خاصة تتعاطى الانتاجالفكري الذي يخدم مصالح الطبقة السائدة ولدى شرح أسباب سيطرة مفهوم مثالي للتاريخ ومناهج تاريخية مطابقة له فيأربعينات القرنالتاسععشر في المانيا وانفصال أفكار الطبقة السائدة عن هذا المفهوم وانفصالها قبل كل شيء عن العلاقات التي تنبثق عن مرحلة معطاة لنمط الانتاج وتتحول الى القوة المحددة للتاريخ يشير ماركس وانجلز مباشرة وبالارتباط مع نشاط الايديولوجيين ، الى ان هذا المنهج التاريخي يفسر ببساطة بالوضع الحياتي للايديولوجيين وبعملهم وبتقسيم العمل اجمالا (٤٣)

بهذه الصورة تتحدد الطبيعة الوهمية للايديولوجيا عبر الروابط الواقعية بين البشر في المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وعلى تقسيم العمل السائد بداخله في مجتمع كهذا يتلقى النشاط الايديولوجي قسمات خاصة تمكننا من فهم طبيعة نتاجاته بصورة أفضل بعكس ذلك يختفي الاساس لظهور وعي وهمي في المجتمع الذي تصبح فيه الروابط البشرية انسانية حقا ، تتحقق بصورة مباشرة ، وتظهر في صيغة واضحة

ويتحدد الوجود الفعلي للايديولوجيا بالحاجة الى تمثيل مصالح هذه الجماعة أو تلك ويمكن للايديولوجيا أن تكون بحسب طبيعتها صحيحة أو زائفة ولكن ذلك ليس هو ما يمنحها صفاتها الخاصة النوعية فهي تكتسب هذه الصفات من خلال الدور الذيتلعبه بصفتها وعيا ذاتيا للمجتمع

يبرز مصالح البشر يمثلها لقد تطابقت في زمن نشـــوء الرأسماليـة المصالح الطبقية للبرجوازية مع مصالح المجتمع ولكن بقدر ما تطـــورت الراسمالية بقدر ما نما تناقض المصلحـــة البرجوازية مع المصـــالح الاجتماعية وتحول الى صراع ان البرجوازية تعيش أياما ليست لها وقد غدت عائقا للتطور التقدمي للمجتمع لذا فهي تحتاج الى ايديولوجيا تظهر مصالحها الطبقية الخاصة وكأنها مصالح المجتمع بأسره بغض النظر عن روابطها الفعلية

اما مصلحة الطبقة العاملة فهي منذ نشوئها المصلحـة الاجتماعية لان العمال لا يستطيعون تحرير انفسهم مـن الاستغلال والاضطهاد ، دون تحرير سائر الطبقات المضطهده في المجتمع لذا وجد نظريو هذه الطبقة أنفسهم أمام مهمة وضع علم يكشف قوانين تطور المجتمع وقواه المحركـة وظروف تغيير العالم وقد وضع ماركس وانجلز في مواجهة المفهـوم المثالي المفهوم المادي للتاريخ وفي مواجهـة الايديولوجيا البرجوازيـة العلم ان كلاسيكيا الماركسية لم يسميا نظريتهما ايديولوجيا وان كان ذلك لا يعني ان النظرية التي وضعاها لم ترتبط بمصـــالح ونضال الطبقة العاملة فهي ترتبط عضويا بالطبقة العاملة ونشاطها وهي سلاحهـــا النظـــري

لا تستطيع البروليتاريا أن تحرر نفسها ان لم تحرر المجتمـع ولكي تحرر المجتمع ، يجب عليها أن تعي مكانها فيه ، ودورها التاريخـي العالمي وأهداف ومهمات نضالها بكلمات أخرى ان مصالح الطبقـة العاملة تخلق الحاجة الى الايديولوجيا والماركسية تمنح الطبقة العامـلة مثل هذا الوعي الذاتي ، وهي ايديولوجيتها

للماركسية اذن وظائف العلم ووظائف الايديولوجيا وفيها ترتبط سمات العلم بسمات الايديولوجيا فهي تظهر كعلم ، حيث تكشف قوانين التطور الاجتماعي . وحين تكشف عن قيم ومبادىء ومعايير نشاط وسلوك البشر ، فانها تكون ايديولوجيا

على المرء أن ينظر الى الماركسية في تطورها ان ايديولوجية الطبقة العاملة كان يمكن أن تنبثق عن العلم فقط لذا وجب عـــلى ايديولوجيي الطبقة العاملة أن يبدأوا بوضع علم المجتمع وبقدر ما تطور الصراع الطبقي للطبقة العاملة ، وحدثت ثورات بزوليتارية وبرزت مهمات بناء المجتمع

الاشتراكي بقدر ما تنامت الحاجة الى تطوير الماركسية كايديولوجيا وتطلبت معالجة مسائل استراتيجية وتاكتيك الصراع الطبقي ، والتنظيم الحزبي ودوره والروابط المتبادلة بين الجمهور ـ والطبقة ـ والحزب اهتماما كبيرا بعدما آلت مهمة تطوير الماركسية كعلم وكايديولوجيا الى **لينين** الذي فهم الوظيفة المزدوجة للماركسية ، وطالب بتطوير **« الايديولوجيةالبروليتارية ونظريةالاشتراكية العلمية، أيالماركسية» (٤٤)**

سنلخص الآن ما ذكرناه سابقا حول الايديولوجيا بصفتها وعيا ذاتيا للمجتمع الايديولوجيا هي قبل كل شيء الوعي الذاتي لطبقات مفردة وتعريف الايديولوجيا بصفتها الوعي الذاتي للطبقة صحيح بالنسبة لكل مجتمع فيه طبقات

وحين نعرّف الايديولوجيا كوعي ذاتي للمجتمع فاننا نفكر بـأن المجتمع ككل يمكن أن يملك مثل هذا الوعي الذاتي على كل حال لا تملك سائر المجتمعات مثل هذا الوعي والمجتمع الذي تهيمن فيه القوى الاجتماعية على الانسان لا يملك وعيا لذاته والقفزة من عالم الضرورة الى عالم الحرية تدل على ان المجتمع قد حصل على وعيه الذاتي

٤ ــ العلم كنتاج فكري عام للتطور الاجتماعي •

في تعيين ماركس للعـــلم كنتاج فكري عام التطـور الاجتماعي تثبيت لخصوصية نشوء العلم كمجال خاص للوعي الاجتماعي اذا كانت الايديولوجيا تنمو على أساس العلاقات الاقتصادية لخدمة مصالح طبقية ، فان قاعدة تطور العلم هي انتاج السلع الماديـــــة وقد تعين تطور العلم تاريخيا من خلال حاجات القوى المنتجة للمجتمع فبقدر ما نمت هــذه الحاجات وبقدر ما أمن الانتاجالشروط الضرورية لتنفيذ الابحاثالعلمية، تطور العلم وقد نمت الحاجات الى العلم فـي ظل الرأسمالية بصـورة خاصة حيث طرحت حسب كلمـة لماركس للمرة الاولى مشـاكل عملية كان من غير الممكن حلها الا علميـــا في الرأسمالية بلغ تطـور التجربة والمراقبة وحاجات الانتـــاج حدا تطلب استخدام العلم وجعـله ضروريـــا

كتب ماركس ان رأس المال لا يخلق العلم ولكنه يستغله ويستولي عليه في سياق عملية الانتاج (٤٥) هذا يعني ان العلم لا يسمو من علاقات الانتاج بل هو نتاج عام للتطور الاجتماعي وان كـــانت علاقات الانتاج تلعب دورا هاما في استخدامه وتطوره

يعتبر الانتاج قاعدة التطور الاجتماعي ويقدم تطور الانتاج الادوات والوسائل الضرورية للسيطرة النظرية على الطبيعة وقد ارتبطت المعرفة والتجربة دوما مع العمل نفسه بصورة مباشرة وفي الرأسمالية يحـدث فصل العلم كعلم تطبيقي في الانتاج ، بواسطة العمـل مباشرة ويخلق الانتاج الرأسمالي للمرة الاولى وبدرجة كبيرة الوسائل المادية للبحث والمراقبة والتجربة ويتطور مع الانتاج الرأسمالي ، العامل العلمـــي تطورا واعيا للمرة الاولى ويطبق ويخلق بدرجة لم تكن العصور السابقة تملك اي تصور عنها

تبرز خصوصية العلم كنتاج فكري عـــام للتطور الاجتماعي في انه ،

بصورة رئيسية الشكل الاعلى للمعرفة وعامل بالغ الاهمية في التطور الاجتماعي

ويمثل العلم كشكل أعلى للمعرفة ، منظومة من المعارف الموضوعية المعللة نظريا وهي نتاج لانعكاس الواقع الذي يجد البشر فيه **العام** وراء الظواهر والوقائع المتفرقة **والضروري** وراء العرضـــي ويكشفـــون الارتباطات والروابط الاكثر جوهرية أي القوانين والقانـون هو شكل عمومية الواقع التي ستطبع العلم وحده كشفها ويفسر هذا بأنجوهر الاشياء ليسمكشوفا بصورة مباشرة ان أي علم سيكون شيئا نافلا، لو ان شكل ظهور الاشياء وجوهرها تلازما تـلازما مباشرا (٤٦)

ويمثل العلم الشكل الاعلى للمعرفة لانـه بعكس المعارف اليومية وما قبل العلمية ، يكشف جوهر الاشياء ويتميز العلم عن سلسلة مـن الاشكال الادنى للمعرفة بصفات منها مثلا الطبيعة المنهجية أي تحويل المعارف العلمية الى نظام معين للمفاهيم المعللة نظريا

ان جوهر العلم هو معرفة القوانين الموضوعية للواقع والقوانيـن التي يكشفها العلم تشكل محتواه الرئيسي واكتشاف القوانين ممكـــن فقط على اساس جمع ودراسة الوقائع ، وتعميمهـا ، وربط الاطروحات المستنتجة منها الخ ولا يقتصر محتوى العلم فقط على القوانين التي يصوغها بل يتعداها الى الوقائع والمعطيات التجريبية والاختبارية التي تمثل الارضية الواقعية للنتائج والاستنتاجات العلمية والوقائع لا تتحول الى عناصر للمعرفة العلمية الا عندما تعمم تنقطع عـن أن تكون مـادة خام والعلم يحتوي على نظريات عن سيرورة العالم ، واستنتاجات من المعطيات التجريبية وقوانين مكتشفة وبفضـــل تعميم المعطيات الـى نظريات تفسر تفسيرا معينا وتستخدم كأساس لاستنتاجات لاحقـة ، يصبح العلم منظومة معرفية ذات بنية منطقية حول موضوع بحثه

من الطبيعي انه ليس كل ما هو من محتـــوى العلم يعتبر معرفــة موثوقة فهناك مثلا الافتراضات العلمية التي لا بد للبحث من أن يقــرر مدى موثوقيتها

الى جانب العناصر المذكورة تعتبر جزءا من محتوى العلم بعضالطرق الخاصة في دراسة الوقائع وبعض المقولات الخاصة التي يحتاجها العلم من أجل بحث وتنهيج مادته

لا تستنفـذ العناصر التي ذكرناهـا بأي حـــال محتـوى العلم .

ولدى دراسة العلم كظاهره اجتماعية ثمة عنصر بالغ الاهمية ، ولكنه لا يعتبر جزءا من محتوى العلم الا وهو علم المنهج انهم يعترفون بأهميته للعلم ولكنهم يعتبرونه جزءا من الفلسفة وليس من العلم بحجة ان المبادىء الفلسفية تلعب دورا منهجيا هاما مثل هذا الموقف نابع عن مفهوم معين للروابط المتبادلة بين التكوينات الفكرية تؤثر بحسبه الافكار والآراء والتصورات على بعضها بعضا دون أن تنتقل من مجال للوعي الى سواه أي دون أن تتداخل ببعضها ويبدو لنا إن العلم لا يستخدم هذا المبدأ الفلسفي أو ذاك في شكله الخام بل هو يتمثله ويحوله الى حد عناصره

يسمح لنا محتوى العلم أن نتنبأ أيضا بالتغيرات المستقبلية في الطبيعة والمجتمع لان العلم يكشف قوانين واتجاهات التطور فيهما

وتمكننا الخصائص التي ذكرناها من فهم العلم كأعلى شكل لمعرفة الواقع العلم هو منظومة من معارف البشر الموضوعية ـ الواقعية المجربة عمليا حول الطبيعة والمجتمع والفكر تعبر عن نفسها في صورة مفاهيم وتعاريف وصيغ وبصورة أساسية في قوانين انه منظومة من المعارف تتطور باستخدام الفرضيات العلمية وسواها من أشكال التفكير (٤٧)

يتعاطى العلم المعرفه الحقيقية فالطموح نحو معرفة الحقيقه والبحث عنها تشكلان خصوصية العلم ويسمحان بتفريقه عن بقية مجالات الوعي في الايديولوجيا يمثل المقياس لقيمة سائر مبادئها مسألة ما اذا كانت تمثل مصالح طبقية مع انها لا تقف في نفس الوقت موقفا لا مبال من موضوع الحقيقة والايديولوجيون الـذين يضعون بالتوافق مع مصالح طبقاتهم النظريات والعقائد يستطيعون الطموح بوعي نحو الحقيقة ، أو بالعكس تزوير الحقيقة عن وعي هنا يرتبط كل شيء بالمصالح وثمة حكمة تقول لو كانت البدهيات الهندسية تمس المصالح البشرية ، لحاول المرء بالتأكيد دحضها (٤٨) بهذه الحكمة التي أطلقها الفيلسوف الانكليزي هوبز أوضح لينين خصوصية الايديولوجيا. بعكس الايديولوجيا ، يكمن مقياس قيمة الفرضيات العلمية ليس في تمثيلها لمصالح طبقية ، بل للحقيقة ، محددة في النهاية بحاجة تطور القوى المنتجة. لهذا السبب بالضبط يستطيع المرء اعتبار العلم نتاجا فكريا عاما للتطور الاجتماعي

وتكمن خصوصية العلم أيضا في انه عامل هام في التقدم الاجتماعي.

فمن المعروف ان التقدم الاجتماعي يقاس بدرجة سيطرة الانسان على قوى الطبيعة وعلى علاقاته الاجتماعية والمؤشر على درجة السيطرة على قوى الطبيعه هو مستوى تطور الانتاج والقوى المنتجة وهذه يتوقف تطورها ، بدرجة كبيرة على وضع العلم واستخدامه فيعملية الانتاج وكما يشير تاريخ تطور الانتاج في السنوات المائة الاخيرة فان العلوم الطبيعية قد شقت الطريق لتقدم القوى المنتجة وفي المجتمع الحديث يتحول العلم بصورة متزايده الى قوة منتجة مباشرة للمجتمع وهذه المسألة الاخيرة غدت موضوعا لنقاش واسع في الادبيات السوسيولوجية والاقتصادية سيمكننا من تعميق فهمنا للوظيفة الاجتماعية للعلم وبالتالي للخصوصية كمجال خاص للوعي الاجتماعي

يفهم تحول العلم الى قوه انتاجية مباشرة كتشيؤ لنتائجه في أدوات العمل وفي قدرات ومهارات المنتجين ويبدو لنا ان هذا المفهوم ليس كاف ، لانه يراعي فقط التأثير النهائي للعلم على القوى المنتجة ، دون أن يكشف الرابطة المتبادلة بين العلم والقوى المنتجة في عملية الانتاج نفسها هكذا يستنتج المرء ان العلم ربما كان يستطيع التأثير على تطور القوى المنتجة بأن تظهر هذه كقوة ظاهرية له ، في حين ينظر الى القوى المنتجة كمجموع لادوات الانتاج والبشر فقط ولكن اذا لم يعتبر المرء القوى المنتجة مجموع هذه العناصر فقط بل نظر اليها ايضا كرابطة فعالة للبشر مع الطبيعة ، كنشاط منصب على هدف بمساعدة أدوات عمل فانه يصبح عندئذ بالامكان أن نعتبر الامكانات الفكرية للانسان ، العامل الفكري ، الذي هو وفي درجة معينة من تطور الانتاج العلم نفسه ، جزءا من القوى المنتجة والعلم كعامل فكري ، يدخل في القوى المنتجة بصفته عنصرها البناء وهذا بالضبط ما يحوله الى قوة منتجة مباشرة

ويذهب عدد من علماء العلم الى مدى ابعد لدى التصدي لهذه المسألة فيقولون انا لا نستطيع ان نتحدث عن تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة الا اذا تحول من عنصر فكري الى عنصر مادي للقوى المنتجة والعلم هو نوع من النشاط الفكريوالمادي وهو لا يصبح عنصرا للقوى المنتجة الا كنشاط مادي وحسب

ان وجهات النظر السابقة حول طريقة فهم العلم كقوة منتجة مباشرة تشير الى الاعتراف بالدور الهام الذي يلعبه العلم في الانتاج ، مع ان المفهوم الذي يشرح الكيفية التي يحقق بها العلم وظائفه يختلف عن

مفهوم العلم نفسه حول هذه المسألة فاذا نظرنا الى العلم كعامل خارجي بالقياس الى القوى المنتجة ، فان حجج مؤيدي وجهة النظر هذه لن تقنعنا مهما كانوا واثقين من الدور الذي يلعبه العلم كقوة منتجة مباشرة أما الاطروحة حول تحول العلم الى عنصر مادي للقوى المنتجة فهي أيضا تعطي صفة اطلاقية لنسبية الفوارق بين الظواهر المادية والفكرية وهي تفعل ذلك الى درجة تتقلص فيها الفوارق الى الصفر ويتحول معها العلم من عامل فكري الى عنصر مادي للقوى المنتجة

بيد ان هذه الفوارق تبقى قائمة في الواقع والحال ان تحقيق لتوصيات العلمية في شكل منتجات مادية كما يحدث في مخابر المعاهد العلمية والمخابر وورش وحقول التجارب لا يحول هذه المنتجات الى نتاجات للعلم والنشاط العلمي لا يصبح نوعا من النشاط المادي ، مع ان العلماء يستطيعون الانشغال بكلا النشاطين

لقد طرح ماركس نفسه وحل ، مسألة تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة كتب **ماركس**

> **« عندما تصبح عملية الانتاج مجالا لتطبيق العلم ، فان العلم من ناحيته يصبح عاملا ، او كما يقولون ، وظيفة لعملية الانتاج وكل اكتشاف يصبح الاساس لاختراع جديد أو لاستكمال جديد لاساليب الانتاج » (٤٨)**

لقد وصف ماركس عملية الانتاج كمجال لتطبيق العلم كحقل للاستخدام الفعلي للقوى وأكد انها تصبح بهذا المعنى علما تجريبيا ، علما ماديا ـ خلاقا يتجسد في موضوعات (في أشياء) القضية الهامة هي اذن وجود تأثير متبادل بين العلم وعملية الانتاج يتداخل فيه الجانبان بعضهما الى حد ما ، دون أن يفقدا خصوصيتهما فالعلم يبدو كوظيفة لعملية الانتاج في شكل معرفة ، وليس كنشاط مادي ، وعملية الانتاج تبدو كعلم مشيىء في شكل نشاط مادي

تؤدي المصاعب التي تبرز في فهم الرابطة المتبادلة بين ما هو فكري وما هو مادي ضمن العمليات الواقعية الى أخطاء في تفسير الظواهر الفكرية الاخرى كالرأي الاجتماعي مثلا فالمرء لا يضم تحت هذا المفهوم فقط الاحكام التي تعبر عن رابطة معينة للبشر حيال الحقائق والاحداث والافعال ، بل يقصد به ـ أيضا ـ الافعال العملية التي يتجسد الرأي بها بذلك يلغى أي فارق بين أحكام البشر ونشاطهم ، وروابطهم الواقعية .

يوجد في أساس مثل هذا التصور مفهوم معلوط للرابطة بين ما هو فكري وما هو مادي يعبر عن نفسه في ان هذين الجانبين الداخلين في رابطة متبادلة ليسا في الواقع متساويين فالجانب المادي هو الجانب المحدد (بكسر الدال) وما هو فكري (العلم الرأي الاجتماعي... الخ) لا يستطيع أن يظهر ولا يظهر فعلا الا كلحظة في الظواهر المادية ، الا كلحظة للعمليات الموضوعية للنشاط الاجتماعي وللروابط بين البشر العلاقات المادية وعلاقات البنية الفوقية ولكن العلاقات المادية لا يمكن أن تصبح لحظة فيما هو فكري لان هذا بتحققه وتجسده في العمل والعلاقات ينقطع عن ن يكون شيئا فكريا ويصبح عنصرا في الممارسة الاجتماعية في عملية الحياة البشرية الواقعية ومن خلال ذلك يلعب دورا كبيرا في المجتمع

ثمة جملة معروفة تعبر عن الدور الاجتماعي للعلم المعرفة من أجل الاستكشاف والاستكشاف من أجل العمل ويسمح تحول العلم الى قوة منتجة مباشرة بالقول ن العلم يصبح فعالا ويقصد بالعلم هنا العلوم الطبيعية مع ان العلوم الانسانية هي أيضا عامل هام في التقدم الاجتماعي

يضم التقدم الاجتماعي الى جانب السيطرة المتزايدة للبشر على قوى الطبيعة أي تطور الانتاج مستوى الحرية الاجتماعية للبشر ايضا ، وروابطها مع وسائل الانتاج ودرجة انخراطهم في حل مسائل الحياة الاجتماعية الى جانب عناصر أخرى تميز حياة الانسان في الانتاج والمجتمع على وجه الاجمال في تاريخ المجتمعات الطبقية ارتبطت سيطرة البشر على الطبيعة دوما بنضال الجماهير الشعبية ضد الاضطهاد وعبودية الانسان للقوى الاجتماعية العفوية وتتطلب تقدم الانسانية تأمين حرية الفرد والمجتمع على طريق اعادة صياغة العلاقات الاجتماعية وفق المبادىء الاشتراكية وهذه عملية تتطلب عملا واعيا للبشر في أساسه معرفة قوانين تطور المجتمع من هنا تنبع الحاجة الى العلوم الانسانية

ان دور العلم في المجتمع يتعاظم بمقدار ما يتغلغل في وعي الجماهير ، ويصبح ملكا للكادحين لقد فصلت الرأسمالية العلم عن العمل المباشر والمعرفة عن المنتجين اما الاشتراكية فهي توحد العلم مع الكادحين وتحمله الى الحياة والوجود اليوميين المتعددي الوجوه للبشر خالقة بذلك امكانات لا حدود لها لتسريع التقدم الاجتماعي

٥ ـ تداخل وتكامل مجالات الوعي الاجتماعي ٠

يرتبط تمييز مجالات خاصة الاجتماعي تاريخيا بفصل الانتاج الفكري الى فرع خاص النشاط ولا وبالحاجات الاجتماعية ثانيا وتتحدد الفروق بين مجالات الوعي بصورة مية عبر وظائفها الرئيسية التي تمارسها في الحياة الاجتماعية وعلى اساس هذه الوظائف يصبح ممكنا وضع بعض المقاييس التي تسمح لنا باعتبار هذا أو ذاك من التكوينات الفكرية تابعا للعلم للايديولوجيا أو للسيكولوجيا الاجتماعية بالنسبة للعلم يعتبر الطموح نحو المعرفة الموضوعية مميزا وبالنسبة للايديولوجيا يعتبر التوافق بين الآراء والنظريات والتعاليم التي تعبر عنها وبين مصالح الجماعات هو العامل المميز في حين تمتاز السيكولوجيا الاجتماعية بتوجهها الشعوري ـ الارادي وفعاليتها

هذه المجالات الثلاثة للوعي الاجتماعي ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لا يظهر فقط في التأثير المتبادل بل أيضا في التمازج والتكامل المتبادلين ابان تحقيق وظائفها ويبدو التمازج المتبادل في ان عناصر احد مجالات الوعي تصبح أحيانا عناصر المجال فايديولوجية الطبقات التقدمية تنحو مثلا وبصورة دائمة نحو الاستناد الى العلم بأن تقتبس اساليب بحثه ونتائجه وتسعى السيكولوجيا الاجتماعية الى دمج الايديولوجيا فيها وجعلها محتوى لها أما تكامل مجالات الوعي فهو يظهر في ان كل مجال يحقق وظائف معينة خاصة بالمجالات الاخرى الى جانب وظيفته الرئيسية التي تمنحه خصوصيته فتحقق الايديولوجيا وظيفة معرفية ويحقق العلم وظيفة ايديولوجية مع ان الوظيفة المعرفية ليست الصفة الخاصة للايديولوجيا والوظيفة الايديولوجية ليست الصفة الخاصة للعلم

ويكمن المبدأ العام للتأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية من جهة في ان الايديولوجيا تنقل الى رؤوس الجماهير العريضة ، وتصبح عنصرا في وعيهم الواقعي ومن جهة اخرى تؤثر

السيكولوجيا الاجتماعية ، بدمج الايديولوجيا فيها وتعميم التجربة الفنية للجماهير الشعبية ، من خلال محتواها على تطور الوعي الذاتي للمجتمع هذا المبدأ يشتمل على اكثر الصفات الخاصة عمومية ، التي تميز الترابط المتبادل لهذين المجالين في الوعي ، دون أن يعكس السمات المميزة لارتباط الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية لهذا المجتمع المشخص او ذاك ، ولطبقاته

في الادبيات العلمية عولج الارتباط بين الايديولوجية الماركسية والسيكولوجية الاجتماعية للطبقة العاملة بصورة مفصلة فالايديولوجية البروليتارية تنبثق من العلم وتنقل الى الطبقة العاملة وفي نفس الوقت تشكل السيكولوجية الاجتماعية ارضية صالحة لاكتساب الايديولوجيا الموضوعة والطبقة العاملة تنجذب حسب كلمة للينين ، بصورة عفوية نحو الايديولوجيا التي تُطابق حاجاتها ومصالحها ويجد الحزب الثوري في صفوف الطبقة العاملة نزوعا غريزيا نحو الاشتراكية يدفع ايديولوجييها الى الصياغة العلمية لنظرتها الطبقية الى العالم

وترتبط مسألة العلاقة المتبادلة بين الايديولوجية والسيكولوجيا الاجتماعية ارتباطا وثيقا مع المسائل السياسية للروابط المتبادلة بين الجماهير والاحزاب لهذا السبب كانت في الحاضر والماضي موضوعا للصراع الايديولوجي داخل صفوف الطبقة العاملة ، الذي تم خوضه منذ مطالع القرن العشرين في الاشتراكية الديمقراطية الروسية فلم يفهم بليخانوف الذي طرح في مؤلفاته مسائل السيكولوجيا الاجتماعية ، جدلية التأثير المرتد (المنعكس) للايديولوجيا على السيكولوجية الطبقية وقد انتقد لينين مفاهيم بليخانوف والاستنتاجات المترتبة عليها بالنسبة لنشاط الحزب بين الجماهير، واشار الى ان الايديولوجيا يجب أن تتوافق مع سيكولوجية الطبقات وان تستند اليها ، دون ان تنبثق من الحركة العفوية **للعمال** بل من **العلم وألح على ان اكثر مهمات الحزب اهمية تكمن في تحويل الحركة العفوية للعمال الى حركة واعية . ولا يستطيع الحزب أن يحقق ذلك دون نقل الايديولوجية الماركسية الى وعي الجماهير العريضة .**

وبالطبع فان الروابط المتبادلة بين الايديولوجيا الماركسية والسيكولوجيا الاجتماعية للكادحين لا تستنفذ سائر امكانات الروابط القائمة بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية بوصفهما مجالين للوعي

الاجتماعي وكما سبق وقلنا ، فان الرابطة بينهما تكتسب طبيعتها المميزة بحسب المجتمع وطبيعة الطبقات نفسها ويعرف التاريخ امثلة كثيرة حول نشوء الآراء الايديولوجية لطبقة ما من سيكولوجيتها وهناك مثال مشهور على ذلك هو « **التولستويوية** » فالنظرات الايديولوجية **لتولستوي** تعكس ، كما قال لينين **التناقضات في سيكولوجية الفلاحين في عصر تغلغل الرأسمالية العاصف في روسيا** وقد عبرت هذه التناقضات عن نفسها في الربط بين الاحتجاج العنيف ضد الاضطهاد الذي تمارسه الدولة البوليسية وبين العجز السياسي والانجذاب الديني وتجلى التعبير عن هذه السيكولوجية في ايديولوجية الكاتب الروسي العظيم كتب **لينين**

> **« ان تولستوي عظيم بقدر ما يعبر عن الافكار والمشاعر التي برزت بين الملايين من جماهير الفلاحين في فجر الثورة البرجوازية بروسيا » (٤٩) .**

وكانت السمة المميزة لسيكولوجية الفلاحين الروس في ذلك العصر هي التشاؤم والخيبة فقد كانت طبقة الفلاحين ترى انهيار العالم القديم (النظام القديم) دون أن تعرف نوع النظام الجديد الذي سيحل محله مع انها كانت تحس بالآلام والمصائب المرتبطة به ولقد عاش تولستوي آلام الفلاحين ، وكان يرى العالم بأعينهم ، ولا يجد مخرجا فعليا من الازمة وفي وعيه اتخذت السيكولوجية الفلاحية شكل استغناء تام عن العنف حيال الشرور ، وعبرت عن نفسها في أطروحته حول الكمال الاخلاقي الذاتي والتحدد المسبق للقدر الانساني

السمة المميزة لسيكولوجية البرجوازية الصغيرة هي ثنائيتها وتناقضها وترددها في آراء وأفعال البشر ، التي تتأرجح دوما بين حدين فتنتقل من أحدهما الى الآخر بصورة مباغتة وبالعكس والسمة الاخرى المميزة لسيكولوجية البرجوازية الصغيرة هي الانانية القومية والتحجر القومي ويمكن بالطبع لمحتوى الايديولوجيا نفسها أن يتغير تحت تأثير السيكولوجية البرجوازية الصغيرة والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. وكل انماط الايديولوجيا السابقة للاشتراكية تملك لدى نشوئها أشياء كثيرة مشتركة ، تتجلى بشكل خاص في ان التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يحدث، معزولا عن العلم وهو ما ينعكس في محتوى الوعي الذاتي والوعي الجماهيري أيضا للطبقات . وتخلق

الاشتراكية نوعا جديدا من هذا التأثير المتبادل تشترك فيه سائر مجالات الـوعي الاجتماعي : السيكولوجيا الاجتماعية ، والايديولوجيا ، والعلم أما أساس هذا التأثير المتبادل فهو النشاط الواقعي العملي للبشر ، بمـا في ذلك النشـاط الفكري ـ العملي ، المنصبّ على تشكيل وعي البشر

ابان اقامة المجتمع الاشتراكي يحدث تغير في وعي سائر الطبقـات والفئات الاجتماعية ويتطلب تغيير وعي طبقة الفلاحين بذل جهود كبيرة ومضنية ويحدث ترسيخ السيكولوجيا الجديدة على أرضية التبـدلات الاشتراكية في الصناعة والزراعة وتلعب هنا التبدلات السياسية دورا هائلا في تغيير سيكولوجية الكادحين فقد سمع المضطهَدون لعدة مئات من السنين ان الطبقات المالكة دون سواها والاقلية المميزة في المجتمع ، بمكنهما أن تقودا الدولة في شروط الاشتراكية وظروفها يتأكد الكادحون بتجربتهم الحسية إنهم يستطيعون قيادة سائر شؤون الدولة وتصريفها

ثمة ، في الاعمال التي تدرس التأثير المتبادل للمجالات المختلفـــة للوعي الاجتماعي ، عناصر بالغة الاهمية حول هذا الموضوع ومع ذلك فان دراسة التأثير المتبادل لا تزال تعاني من نظرة أحادية الجانب ، تعبر عـن نفسها بصورة رئيسية في التصور المبسط للعلاقـة بين الايديولوجيـا والسيكولوجيا الإجتماعية ، الذي يقود بدوره الى مفهوم المستويين الاعلى والادنى لانعكاس الواقع هكذا يكتب **كولبانوفسكي**

« الايديولوجيا هي الصعيد الاعلى للانعكاس ، وهي تملك نفـوذا هائلا يحكم السيكولوجيا الاجتماعية (والفردية) ، ويؤدي الى اعـادة صياغتها جوهريا أما السيكولوجيا الاجتماعية التي تعكس مبـاشرة التغيرات العميقة في الاقتصاد وروابط البشر الاجتماعية المتبادلة ، فهي تخدم الايديولوجيا كموضوع للتحليل والتعميم » (٥٠) .

كما نرى تتلقى الايديولوجيا هنا في التأثير المتبادل دور المبـدأ الفاعل ، بينما تتحول السيكولوجيا الاجتماعية الـى موضوع منفعـل « للتحليل والتعميم

على نفس الصعيد يرى **ألكسييف** التأثير المتبادل بين الايديولوجيـا والسيكولوجيا الاجتماعية وهو يكتب

« يكمن تأثير السيكولوجيا الاجتماعية عـلى الايديولوجيا أساسا في ان المشاعر والامزجة الاجتماعية السائدة في طبقة ما ، والتي تمتـاز

بشيء من الثبات ، تعطي للاشكال الايديولوجية لونا شعوريا مطابقا لها بكلمات اخرى ان السيكولوجيا الاجتماعية تمارس نفوذها قبل كل شيء على شكل التعبير الايديولوجي » (٥١)

هنا يتقلص التاثير المتبادل للايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الى تأثير متبادل بين الشعور والمحتوى في الوعي الاجتماعي حيث تعطي السيكولوجيا للمحتوى شكل التعبير فقط ومن الجلي ان وجهي التأثير هذين ليسا متماثلين من حيث القيمة ما دام تأثير محتوى السيكولوجيا الاجتماعية على الايديولوجيا لا يقام له وزن

فضلا عن ذلك يتحول الوضع غير المتساوي لمجالات الوعي الى قانون يستخدم لتصنيف السيكولوجيا الاجتماعية تحت الايديولوجيا اننا سنتحدث عن ذلك بمزيد من التفصيل لان هذه المسألة تمس جوهر التأثير المتبادل بين مجالات الوعي الاجتماعي

تتشكل سيكولوجية الجماهير في المجتمع الطبقي تحت تأثير الايديولوجيا التي كان وزنها كبيرا على الدوام في الوعي الاجتماعي واذا ما أخذنا المجتمع الاشتراكي فان تأثير الايديولوجيا على السيكولوجيا الاجتماعية كان هنا أيضا كبيرا في مختلف مراحل البناء الاشتراكي فالايديولوجيا ، والعلم أيضا يملكان تأثيرا يعيد صياغة السيكولوجيا الاجتماعية والحال ان تأثير العلم يتعاظم أثناء ذلك مع التعاظم العام لاهميته في حياة المجتمع

بيد انه يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ان السيكولوجيا الاجتماعية ايضا التي تتضمن التجارب العملية للجماهير الشعبية في بناء الاشتراكية ، تحتوي على تصورات علمية وتلعب دورا متزايد التأثير على الايديولوجيا ولا يمكن تقليص مسألة التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الى مجرد مسألة تصنيف هذا المجال من الوعي تحت ذاك

هذه المسألة الاخيرة تبرز فقط حين نفهم السيكولوجيا الاجتماعية كشيء عفوي وغير منظم وحين يزعم ان غريزية ولاوعي الامزجة والافعال تشكلان السمة المميزة للسيكولوجيا الاجتماعية يجب على الايديولوجيا ان تنظم وتنهج عندئذ مجالا لا يمكن الا بصعوبة اعتباره وعيا ولكن حين يفهم المرء السيكولوجيا الاجتماعية والايديولوجيا بالطريقة التي توجدان بها

في ظروف المجتمع الاشتراكي ، فانه لن يمكننا عندئذ حصر دور الايديولوجيا في تنظيم المحتوى الراهن للوعي الجماهيري ، بل يجب توسيع هذا الدور ليشمل تحويل محتوياتها الخاصة الى قناعات جماهيرية ان قوة الايديولوجيا لا تكمن في كونها معرفة نظرية معينة ومعرفة أهم مبادىء وأسس الايديولوجيا يمكن ان يكون واسع الانتشار ، ومع ذلك فان الايديولوجيا لا تحقق وظائفها الا عندما تصبح أفكارها ومبادؤها قناعات للجماهير العريضة ، ومحل تفكيرها وقيمها ، أي عندما تبدأ الايديولوجيا بتحديد محتوى السيكولوجيا الاجتماعية

تبعا لما ذكرناه ، فان التأثير المتبادل بين السيكولوجيا الاجتماعية والايديولوجيا هو أكثر تعقيدا بكثير مما يبدو للوهلة الاولى وينتج فهمها المبسط من الدراسة الاحادية الجانب للظواهر المبحوثة وهي تظهر مرة أخرى ان التحليل المعرفي يجب أن يستكمل بالتحليل السوسيولوجي وليس من الممكن اعادة التأثير المتبادل بين الوعي الذاتي للمجتمع والوعي الجماهيري الى التأثير المتبادل لمستويين من انعكاس الواقع ان السيكولوجيا الاجتماعية تعتبر دون شك الارضية الخاصة التي تتطور الايديولوجيا فوقها ، كما تمنح هذه لعناصر السيكولوجيا الاجتماعية طبيعة وعي أكثر نفوذا وفي نفس الوقت يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ان التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يحدث أولا على أساس اقتصادي وسياسي وثقافي معين ، وان العلاقات الاجتماعية التي تؤثر ببعضها تعين أيضا التأثير المتبادل للتكوينات الفكرية ويجب أن نراعي ثانيا انه يقف دوما خلف التأثير المتبادل للايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية النشاط الفكري ـ العملي للبشر المنصب على انتاج أفكار وآراء ، وعلى حملها الى وعي الجماهير العريضة ، وصياغة السيكولوجيا الاجتماعية وينتج من ذلك ان القضية ليست ، هنا أيضا ، مسألة نفوذ هذه الفكرة على تلك وبالعكس ، بل هي مسألة التغلغل الهادف لهذا الوعي، والتغير الذي يصيب ذاك ويجب ثالثا مراعاة ان الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية يخضعان ، ابان تأثيرهما ببعضهما ، لنفوذ العلم الذي يخضع بدوره لتأثيرهما ان سائر مجالات الوعي الاجتماعي توجد في علاقة تأثير متبادل مع الوجود الاجتماعي وفيما بينها وليس التكامل المتبادل الذي يبرز لدى تحقيق هذا المجال او ذاك لوظيفته الاجتماعية سوى السمة الجوهرية للتأثير المتبادل لمجالات الوعي الاجتماعي.

تشمل المبادىء المصاغة آنفا حول التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية التأثير المتبادل بين العلم والايديولوجيا أيضا ويمكن ايضاح ذلك بمثال الترابط المتبادل بين الفلسفة من جهة والعلوم الطبيعية والانسانية من جهة ثانية

تعتبر الفلسفة في علاقتها مع العلوم الطبيعية والانسانية نهاجية عامة وعلى أساس الصفات الخاصة للبحث العلمي يجد كل عالم بغض النظر عن موضوع اختصاصه مواجها بمسائل فلسفية ومضطرا لاتخاذ هذا الموقف الفلسفي او ذاك فعند دراسة القضايا المادية تهيمن على العالم الافكار المادية وقد قال لينين ان العلم ينجب المادية بصورة عفوية فهو حسب طبيعته مادي غير ان انجاب العلم للمادية لا يعني ان العالم يتشبث في عالم الواقع حتما بأفكار المادية التاريخية ـ الطبيعية وانه يمكن أن سسقط تحت نفوذ نظرة غير علمية الى العالم

ان تعقيد وتناقض عملية المعرفة يؤديان غالبا الى أزمة في هذه او تلك من مجالات العلم ومادية العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تجد مخرجا واقعيا من مثل هذه الازمة والمثال المعروف على ذلك هو ازمة الفيزياء في نهاية القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين وقد اشار لينين في كتابه « المادية ومذهب النقد التجريبي الى ان مادية العلوم الطبيعية ليست قادرة على تفسير أسباب الازمة وتجاوز المصاعب المعرفية الناشئة واثبت ان المادية الجدلية وحدها قادرة حقا على مساعدة العلماء وفي الواقع فان المخارج من الازمة قد اكتشفت من منظورات المادية الجدلية ، التي عللت بصورة موضوعية الاكتشافات الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وكانت ثورة حقيقية في العلوم الطبيعية

يضع الفلاسفة البرجوازيون المثاليون آمالهم في الصعوبات التي تواجهها المعرفة العلمية وهم يفسرونها من مواقع النظرة المثالية الى العالم ويفرضونها على العلماء والعلماء الذين يعتنقون مفهوما تاريخيا وطبيعيا يواجهون مصاعب جمة في مقاومة ضغوط الفلسفة المثالية للمجتمع البرجوازي هذا يفسر التناقضات في مقولاتهم الفلسفية التي تؤثر على النشاط العلمي وعلى مفهوم الوظائف الاجتماعية للعلم وعلى مسؤولية العالم في المجتمع المعاصر

في مثل هذه الحالة تساعد الفلسفة المادية العلماء وكما يدل تاريخ العلم ، فان العلوم الطبيعية قد اقترنت دوما بالفلسفة المادية وتظهر الاهمية المنهجية للفلسفة بالنسبة لسائر العلوم في سلسلة من العوامل فالفلسفة تضع

● **اولا** الشروط الاولية النظرية العامة للنشاط المعرفي البشري ما هي طبيعة بنية العالم ؟ هل يمكن للانسانية ان تعرف عالمها ؟ ما هي امكانات ووسائل مثل هذه المعرفة ؟ ما هي الحقيقة وما هي مقاييسها ؟ ان الحل المعلل نظريا لمسائل من هذا النوع يقدم الشروط الاولية العامة لمقدرة البشر المعرفية

● **ثانيا** تدرس الفلسفة المادية اكثر قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر عمومية وهي تكشف أكثر روابط وعلاقات الواقع عمومية وتصوغ على أساس معرفتها مبادىء معينة لاكتشاف المعرفة ـ الديالكتيك الذاتي وهي تعلل مثلا مبادىء مثل التحليل المشخص للظواهر، ودراستها في سياق نشوئها وتغيرها وتطورها ، وفي ترابطها أيضا وتطالب بتفحص عملي للاستنتاجات النظرية الخ ان العالم الذي يدرس الظواهر الفعلية للواقع ، يستطيع أن يفيد من المبادىء الفلسفية ولا تضمن معرفة هذه المبادىء النجاح في البحث العلمي ، لان هذا يمثل عملية خلاقة تفيد فيها المبادىء الفلسفية العالم ، حين تغدو فعلا قناعة راسخة لديه وتتغلغل حقا الى المعرفة المتخصصة حول المجال المدروس عندما لا يحدث هذا الذوبان بين المبادىء الفلسفية والمعرفة المتخصصة ، فان العالم قد يعرف شيئا حول أسس هذه النظرة الى العالم او تلك ، ويتصرف في نفس الوقت بما يتناقض وهذه الاسس

● **ثالثا** تصوغ الفلسفة المبادىء المرتبطة بالنظرة الى العالم لدى مختلف العلوم ان العلم يتوغل أكثر فأكثر في مجالات من الواقع لم تبحث من قبل وبالارتباط مع ذلك تنشأ الحاجة لحل عدد كبير من القضايا الفلسفية في مجالات علمية جديدة كالسبرانية والسيميوتيك مثلا مثل هذه القضايا لا يمكن حلها الا بالجهود المشتركة للفلاسفة والعلماء ، والنتائج المكتسبة يجب أن تكون ملكا مشتركا للعلوم والفلسفة

لا تملك الفلسفة نفوذا على العلوم المتفرقة من خلال وضعها للشروط الاولية النظرية العامة لمعرفة الواقع فحسب ، بل تمارس نفوذها بصورة

رئيسية من خلال امتلاك العلوم الاخرى لها بوصفها منهجا معرفيا عاما ومعالجتها لمسائل فلسفية بالغة الحيوية بالنسبة للعلوم الاخرى

وتؤثر العلوم من جانبها في الفلسفة هذه الحقيقة متأصلة في وعي علماء العالم سواء فيما يخص تاريخ العلم أم تاريخ الفلسفة ، الذي يدل على ان الفلسفة المادية تستند الى تطور العلم بوصفه الاساس الذي يمكنها من معالجة مسائل النظرة المادية الى العالم وحسب الصيغة المعروفة لانجلز يجب على المادية أن تأخذ بعد كل اكتشاف عظيم في العلوم الطبيعية شكلا جديدا هذا يعني ان فهم القوانين والمقولات التي تعبر عن روابط وعلاقات الواقع الجوهرية ، يتعمق بصورة مستمرة ، وان المبادىء الراهنة للمعرفة تتحدد ، وان مبادىء جديدة تكتشف وتبرر الخ وفي سلسلة من الحالات تصبح مقولات العلوم المتفرقة مقولات عامة وتندمج في الفلسفة مثل مفاهيم « الاعلام و المنظومة و الوظيفة وبالتالي لا تتغلغل الفلسفة فقط في العلوم بل تصبح معارف العلوم المختلفة من محتوى الفلسفة حين ترتفع الى تعميمات تتضمن نظرة الى العالم

يتحقق التكامل والتمازج المتبادل لمجالات الوعي كما أسلفنا من خلال النشاط الفكري ــ العملي للبشر ان النشاط العلمي والايديولوجي والسياسي ــ الجماهيري ، بل وكل نظام التربية والتعليم في مجتمع ما ستهدف الحفاظ على التأثير المتبادل بين مجالات الوعي الاجتماعي وتحقيقه

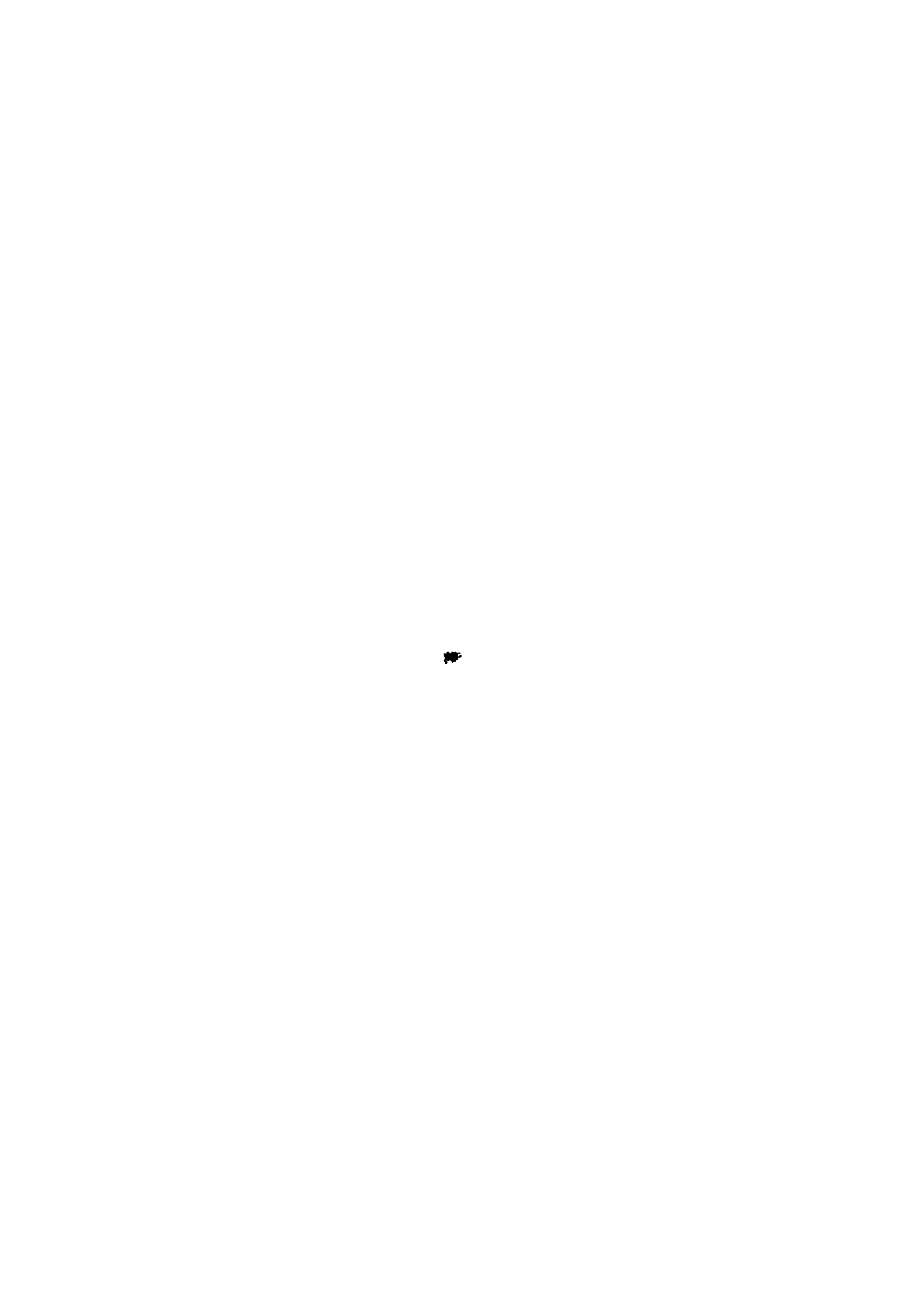
مراجع الفصل الثالث

١ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ٤٠٤ وما يليها
٢ - انتسيفيروفا مسائل العلاقات النفسية موسكو ١٩٦٦ ، ص ٤٤٩
٣ - نقطة انطلاق هذه النظرية هي الاطروحة التي تقول ان نمط الوجود الرئيسي لما هو نفسي يتجلى كنشاط ، كعملية كاملة روبنشتاين الوجود والوعي الطبعة الخامسة ، برلين ١٩٦٨ ، ص ١٩٦
٤ - ليونتيف مشاكل تطور ما هو نفسي برلين ١٩٦٧ ، ص ١٨٥
٥ - نفس المرجع : ص ١٧٩
٦ - نفس المرجع ص ١٨٠
٧ - ماركس - انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ٣٦ ، هامش
٨ - لينين ما العمل المؤلفات ، الجزء الخامس ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٤٢٣
٩ - يمكن للمرء أن يعتبر العلم « نظاما معقدا وديناميكيا للاعلام ، وضعه الانسان لاختيار وتحليل ونشر المعلومات لاكتشاف حقائق جديدة وامكانات استخدام تطبيقية جديدة » . دوبروف العلم . ص ٢٣
١٠ - بروكوب : المادية التاريخية . براغ ١٩٦٥ ، ص ٤٧٩
١١ - لينين : مهمات روابط الشباب في المؤلفات ، الجزء ٣١ ، برلين ١٩٥٩ ص ٢٨٣ وما يليها
١٢ - نفس المرجع ص ٢٨٠
١٣ - ماركس : نقد فلسفة الحق لدى هيغل . مقدمة . الاعمال ، الجزء ١ ، برلين ١٩٥٦ ، ص ٣٨٥
١٤ - شورافيلوف اسس تطور الادراك الاجتماعي الشيوعي . روستوف ١٩٦٦ ، ص ١٢
١٥ - كيله بنية الادراك الاجتماعي موسكو ١٩٦٤ ، ص ١٧
١٦ - بارانوف حول بنية الادراك الاجتماعي فيستنيك ، ١٩٦٠ ، ص ٧٤
١٧ - بليخانوف : حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ . برلين ١٩٥٦ ، ص ١٩٠
١٨ - بليخانوف المفهوم المادي للتاريخ برلين ١٩٤٦ ، ص ١٧
١٩ - بليخانوف القضايا الرئيسية للماركسية برلين ١٩٥٨ ، ص ٨٤ .
٢٠ - بليخانوف نفس المرجع
٢١ - بليخانوف : حول مسألة تطور مفهوم العامل الواحد للتاريخ . ص ١٩٥ .
٢٢ - كالك : قضايا الادراك الاجتماعي ص ٩١
٢٣ - نفس المصدر
٢٤ - انجلز لودفيج فويرباخ ... ص ٢٩٨

٢٥ ـ بورشينيف التاريخ والسيكولوجيا الاجتماعية موسكو ١٩٦٦ ، ص ٦٢
٢٦ ـ لينين حول طبيعة وأهمية جدلنا مع الليبراليين الجزء ١٨ ، برليــن ١٩٦٢ ص ١١٨
٢٧ ـ لينين : التطرف اليساري الجزء ١٢ ، برلين ١٩٥٩ ، ص ٨٣
٢٨ ـ لينين حول دور ومهمات النقابات الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، ص ٤٤
٢٩ ـ لينين خطاب حول الحرب الجزء ٢٥ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ١٦
٣٠ ـ لينين تاكتيكان الجزء ٩ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٥٨
٣١ ـ لينين : الى العمال والجنود الحمر في بتروغراد الاعمال ، الجـزء ٣٠ ، برليــن ١٩٦١ ، ص ٥٢
٣٢ ـ ماركس الثامن عشر من برومير ماركس ـ انجلز المؤلفـات الجـــزء ٨ برلين ١٩٦٠ ، ص ١٢٩
٣٣ ـ سارسينايف العادات والتقاليد والتطور آلما آتا ، ١٩٦٥ ، ص ٨٤
٣٤ ـ ماركس رأس المال ، الجزء الثالث ، ص ٨٠٢
٣٥ ـ سارسينيابيف العادات والتقاليد والتطور آلما ـ آتا ، ١٩٦٥ ، ص ٨٤
٣٦ ـ كيله وكوفالسون أشكال الادراك الاجتماعي ص ١١
٣٧ ـ كاك المرجع السابق
٣٨ ـ يادوف الايديولوجية كشكل للروح الاجتماعية لينينغراد ١٩٦١ ص ٢٠
٣٩ ـ فيتار الايديولوجيا فارصوفيا ١٩٦٦ ، ص ٩٦
٤٠ ـ لينين ما العمل . ص ٣٨٦
٤١ ـ يادوف المرجع السابق
٤٥ ـ فيتار المرجع السابق
٤٣ ـ ماركس ـ انجلز الايديولوجيا الالمانية ص ١٨ ، هامش
٤٤ ـ لينين التحريف السياسي ووجهة النظر الطبقية المؤلفات ، الجزء ٥ ، ص ٣٥٠
٤٥ ـ مجلة كومونيست ، ١٩٥٨ ، الدفتر ٧ ، ص ٢٢
٤٩ ـ لينين : ليو تولستوي كمرآة للثورة الروسية المؤلفات ، الجزء ١٥ ، ص ٢٠١
٥٠ ـ كولبانوفسكي اشكال الادراك الاجتماعي ص ٣٢٦
٥١ ـ الكسيبيف القضايا الفكرية الراهنة للسيكولوجيا الاجتماعية موسكـــو ١٩٦٣ ص ٢٢

الفصل الرابع

انماط الوعي الاجتماعي



١ ـ التناول التاريخي العياني وأنماط الوعي الاجتماعي

تحدثنا فيما سبق وبصورة عامة عن أهمية التناول التاريخي ـ العياني لدراسة الوعي الاجتماعي مثل هـذا التناول ضروري بسبب الحاجة الى دراسة القانونية المميزه للـوعي الاجتماعي وفي سبيل استخدامها عمليا في ظروف الاشتراكية تملك معرفة القانونية المميزه للوعي أهمية استثنائية لان الحاجة الى التوجيه الواعي لتطور الحياة الفكرية للمجتمع لا تقل بأي حال عن الحاجة الى توجيه التطور الاقتصادي والاجتماعي وسواهما من مناحي الحياة الاجتماعية

ويسمح التناول التاريخي ـ العياني لدى بحث القانونية الخاصة والمميزة الوعي الاجتماعي بترجمة المفاهيم العامة التي عالجتها الفلسفة الماركسية مثل الوعي الاجتماعي الايديولوجيا السيكولوجيا الاجتماعية ونوع الوعي الخ الى لغة الوقائع الاجتماعية العيانية والى حقائق للوعي تكوّن محتوى المقولات الفلسفية وهـذه الترجمة ضرورية حتما لاجراء دراسات ميدانية حول ظواهر الوعي. وفي الدراسات الميدانية سيتعامل الباحث مع التعبيرات المادية للوعي التي لا يمكن تطبيق المفاهيم الفلسفية عليها بصوره مباشرة أن المفـاهيم السوسيولوجية واسعة جدا واستخدامها في الدراسات الميدانيـة صعب للغاية ولكن التناول التاريخي ـ العياني يسمح لنا بوضعهـا في مستوى يمكننا من صياغة وتحقيق برامج للبحث الميـداني أي فـي مستوى التعيينات العملياتية

ويملك التعيين العملياتي للوعي الاجتماعي وعنـاصره المكونة أهمية خاصة لدى بحث قوانين التطور الخاصة بالوعي الاجتماعي ولكنه مـع ذلك ليس سوى الجانب الشكلي من الموضوع أي انه شرط فقط للدراسة نفسها الامر الجوهري الذي يجب علينا الوصول اليه هو كشف قوانين التطور الخاصة بالجانب الفكري من حياة المجتمع ، من خلال بحث الوعي

الاجتماعي وحسب الافكار ومنظومات الآراء الموجودة في مجتمع ما ، فانه لن يكون بوسع المرء حين لا ينصرف الى الوعي الجماهيري الواقعي ، أن يكوّن أي تصور حول الوعي الاجتماعي واتجاهات تطوره وعلى هذا بالضبط التناول للاقتراب التاريخي ـ العياني لدى دراسة الحياة الفكرية للمجتمع

ويحتم التناول التاريخي ـ العياني دراسة المسائل الاكثر تخصصا ، والهامة في نفس الوقت وتكمن واحدة من هذه المسائل ، بالنسبة للمجتمع الاشتراكي في تفسير أسباب استمرارية مخلفات الماضي في وعي البشر ، واكتشاف طرق التغلب عليها وفي الظروف الراهنة غدا من الضروري ، لحل هذه المسألة معرفة ما كان يمثله وعي المجتمع القديم ، وماذا كانت عليه أوضاع الجماهير الاجتماعية ، وعاداتها واعرافها وتقاليدها ، بل وكل بنيتها النفسية وعلى المرء أن يأخذ ما لا يزال موجودا من العالم القديم بعين الاعتبار وتأثيره على وعي البشر في الاشتراكية الذي يتجلى في الجملة القائلة « **ان الاموات لا زالوا يمسكون بالاحياء** » . ومن المهم أيضا تحليل جملة العلاقات السائدة في المجتمع الاشتراكي لمعرفة العلاقات التي تنتج أفكارا وآراء جديدة ، وتلك التي تقنن الافكار القديمة. ويجب أيضا دراسة فاعلية النشاط الفكري ـ العملي في ترسيخ الوعي الاشتراكي وتجاوز بقايا انماط الوعي السابق للاشتراكية

يوجهنا التناول التاريخي ـ العياني اذن نحو بحث وعي مجتمع معطى وشرح بنيته وقوانين تطوره الخاصة ، اي نحو بحث نمط معين من الوعي الاجتماعي

وتعتبر طريقة انتاج السلع المادية أساسا للتفريق بين الانماط التاريخية للوعي الاجتماعي وتحدد طريقة الانتاج سائر جوانب الحياة الاجتماعية ، بما في ذلك الحياة الفكرية للمجتمع وهي التي تمنح الوعي الاجتماعي سماته المميزة من هنا تتطابق أنماط الانتاج المادي المعروفة تاريخيا مع أنماط معينة من الوعي الاجتماعي وبالنسبة للتشكيلات الاجتماعية الطبقية (مجتمع ملاك العبيد ، المجتمع الاقطاعي والمجتمع الراسمالي) فانه سيكون غير كاف مراعاة الاساس العام فقط لتفريق انماط الوعي الاجتماعي ، لان ذلك سيبرز انماط الوعي السائدة فقط ، أي المنتجات الفكرية للطبقات السائدة اقتصاديا وسياسيا . ويجب على

الباحث ، عند دراسة وعي مثل هذه التشكيلات ، مراعاة الاساس الخاص الى جانب الاساس العام لتفريق أنمـــاط الوعي ، وهو البنية الطبقيـة للمجتمع وهذا يسمح بكشف الخصائص العامة لوعي الطبقات المضطهدة والمضطهَدة في عصور تاريخية مختلفة ، والوصول الـى الاشكال العامة التي برزت ايديولوجيتها وسيكولوجيتها الاجتماعية فيهـا وفي نفس الوقت تحول مراعاة البنية الطبقيـة دون الصاق سمات وعي الطبقـات السائدة الخاصة بوعي الطبقات المضطهَدة

لا يكفي أن ندرس أنماط الوعي الاجتماعي في تبعيتها لانماط انعكاس الواقع هذا ما يظهر من الطريقة التي يصف بها **شورافلوف** أنماط الوعي. فهو يرى الفروق بين وعي كل من المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة في ان

« الوعي الاجتماعي لمجتمع ملاك العبيد كان ذا طبيعة ميثولوجية ، وكـان وعي المرحلة الاقطاعية في علاقته بالعالم دينيا ، في حين كانت للوعـي السائد في المجتمع البرجوازي طبيعة صنمية » (١)

عندما ينظر المرء الى الفروق في انماط الوعي بهذه الطريقة ، فانـه يؤكد العام في وعي المراحل المذكورة بأكثر مما يؤكد الخاص ، فالطبيعـة الميثولوجية والدينية والصنمية للانعكاس تصنع جميعا وعيا وهميا زائفا ، لا يمتاز في مرحلة ما عنه في أخرى الا بمظهره الخارجي فقط ان الصفات الخاصة لطريقة الانعكاس لا تسمح بفهم تلك الفروق في محتواها ، بل تظل مقتصرة على شكلها فقط لقد كان للوعي الديني في المجتمـع الاقطاعي طابع ديني ، ولكن ذلك لا يعني ان هـذا الوعي « كان دينيـا في علاقته بالعالم فقد كانت المصالح الدنيوية للبشر، وروابطهم الواقعية ببعضهم وحيال العالم ، تعبر عن نفسها من خلال الغلالة الدينية التي تغلف الوعي.

تتمايز الانماط التاريخية للوعي عـن بعضها بحسب المحتوى والبنية وخصوصيات التطور وغيرها من السمات ويوجد بين وعي مجتمع ملاك العبيد والمجتمع الاقطاعي والرأسمالي فروق في المحتوى وبما ان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج قد شكلت الاساس لهذه المجتمعات ، فانه يوجد في محتوى أنماط الوعي التابعة أشياء كثيرة مشتركة ونحن سنعتبرها، لهذا السبب ، نمطا خاصا للوعي بالقياس الى وعي المجتمـع الاول ، أو المجتمع الشيوعي

راينا فيمـا سبق ان ليونتيف يعلل ، لـدى دراسة السيكولوجيا

الاجتماعية مبدأ التناول التاريخي بصورة مقنعة وهو يستخدم لدى كشف محتوى الوعي وبدرجة كبيرة مفهوم المعنى الذي يصف به الروابط والعلاقات الموجودة موضوعيا في الاشياء والظواهر « فالمعاني هي الشكل الفكري لتمحور التجربة الاجتماعيـــة ، وللممارسة البشرية وهي تشكل لهذا السبب محتوى الوعي الاجتماعي (٢) الـــذي لا يلبث الوعي الفردي بدوره أن يأخـــذ به فيما بعد و المعاني هي بالنسبة للفرد الانعكاسات المعممة للواقع التي صنعتها البشرية ، والتي ترسخت في شكل مفاهيم ومعارف ومبادىء سلوكية

ويستند ليونتيف الى التصريحات المعروفة لماركس وانجلز حول ان انتاج الوعي كان بالاصل مندمجا مباشرة بالنشاط المادي للبشر وبعلاقاتهم، ليميز في وعي المجتمع الاول البدائي) ابان مراحل تطوره المبكـــرة ، ثلاث خصائص أو سمات تكمن أولاها في ان مجال المعاني اللغوية لتلك الفترة كان يوجد الى جانب المجال الاكثر اتساعـــا للاحاسيس الفريزية والبيولوجية تماما كما كانت لا تزال توجد الـــى جانب روابط البشر الاجتماعية مع الطبيعة علاقاتغريزية كثيرة. ويرىليونتيف الخاصة الثانية في انه حتى المجال الضيق لما صير الى وعيه لم يكن قد تم وعيه بشكل كامل بعد (٣) في المرحلة المبكرة من التاريخ البشري أما الخاصة الثالثة فهي ان البشر « لم يكونوا يعون روابطهم مع الجماعة (٣)

مع تطور نظام المجتمع البـــدائي تغير ــ أيضا ــ محتـــوى وعيه فعكست المعاني اللغوية التي تشكلت خلال العمل ، روابط البشر مـــع الطبيعة وفيما بينهم ومع ذلك فقد بقيت خصوصية وعي المجتمعالبدائي كنمط خاص للوعي مستمرة طوال تاريخ هذا المجتمع فجعلت الملكيـــة العامة روابط البشر مع أدوات ومنتجات الانتـــاج متماثلة لذا انعكست هذه الروابط بصورة متماثلة أيضا في وعي الجماعة ووعي الفرد وكان لنتاج العمل المشترك معنى مشتركا بالنسبة للجماعة ككل ، ولكل عضـــو فيها ومن هنا فان نظام المعاني اللغوية ، الذي تجسد فيه مدلول الظواهر بصورة موضوعية ــ تاريخية وشكّل وعي الجماعـــــة كان هو نفســـه أيضا شكل الوعي الفردي للظواهر ، وتماثل مدلول الظـــاهرة التي تمت معرفتها من قبل الفرد مع مدلولها بالنسبة للجماعة ككل هو الذي ترسخ في معان لغوية هذا التوافق بين المدلول والمعنى هو أهم صفات الوعي البدائي ، كما يكتب ليونتيف

أفسح التمايز المفقود بين المعنى والمدلول في الوعي المكان لبنية وعي جديد بقدر ما تهاوى المجتمع البدائي وهـذه البنية الجديدة للوعي مميزة بعلاقات أخرى لمحتويات المعاني والمدلولات المكونة أساسا للوعي ويصف ليونتيف هذه البنية بأنها غير مدمجة (٣) وهو يتابع كيف ينتج التقسيم الاجتماعي للعمل والملكية الخاصة لوسائل الانتاج علاقات غربة بين مدلول ومعنى النشاط البشري مع الفصل بين المنتج ووسائل الانتاج ، مع هذا الاغتراب الذي ظهر في أشكال كثيره اقلع نشاط البشر عن أن يكون بالنسبة لهم ما هو في الواقع فعلا و «نتيجة» لاغتراب الحياة البشرية نقطع النتاج الموضوعي للنشاط البشري عن يتطابق مع بواعثه وبكلمات أخرى ان المحتوى الموضوعي للنشاط لم يعد نتوافق مع محتواه السلبي أي مع ما يعنيه النشـاط للانسان (٣)

هنا تثب واحدة من اكثر خصائص الوعي في المجتمعات الطبقية التناحرية أهمية وفي الواقع فان العامل نخلق مثلا في ظروف الراسمالية من خلال عمله قيما معينة ويستطيع أن يعرف على الاهمية الاجتماعية لما أنتجه بيد ان ظروف الحياة مرتبطة بطريقه لا تتمكن معها من الانتاج ارضاء لحاجات اجتماعية بل هو ينتج في سبيل أجر العمل فحسب فالاجر هو بالنسبة له الدافع الذي يدفعه الى العمل والذي يحدد لفعاليته العملية مدلولها ان المعنى الاجتماعي لنتاج عمله غريب عن المعنى الذي يملكه هذا النتاج بالنسبة له نفس هذا الاغتراب يميز وعي البرجوازي الذي يستنفد الانتاج بالنسبة له معناه في جني الر. متعارضا بذلك مع المدلول الموضوعي للمنتجات الذي تتحدد بارضـا حاجات الشعب

تنتج سيطرة علاقات الملكية الخاصة في المجتمع انقساما في الفعالية الخاصة للبشر وفي عالم الاشياء المحيطة بها وهي تنتج ايضا تمزق الوعي هذه العلاقات تتوضع أيضا في الوعي البشري ويعبر ذلك عن نفسه من الناحية النفسية في انفصام بنيته العامة ويغترب المعنى والمدلول اللذين يعرض فيهما الانسان عالمه وحيـاته الخاصة عن بعضهمـا (٣)

هذه الخاصة تنطبق قبل كل شيء على الوعي الاجتماعي ومدلول ظواهر العالم يتجسد في معان تكوّن محتوى الـوعي الاجتماعي ولكن

الانسان الفرد يجب أن يعكس الواقع من خلال موشور المدلولات ـ المعارف، والتصورات ، والمبادىء ، والمعايير ، والقيم الخ الموضوعة اجتماعيا وهو يتبنى بالضرورة محتوى الوعي الاجتماعي في المجتمع الطبقي تعتبر الايديولوجية السائدة هي ايديولوجية الطبقات السائدة ، وهذه تتبناها الجماهير بصورة رئيسية غير ان ايديولوجية الطبقات المستغلة السائدة تمثل وعيا زائفا والمدلولات التي تضع محتوى ايديولوجية الطبقات المستغلة غريبة عن المعنى الواقعي للروابط الاجتماعية الموجودة يعبر ذلك عن نفسه بأوضح الصور في عدم تطابق التصورات والآراء الايديولوجية التي تنشرها الطبقات المستغلة في صفوف الكادحين مع المصالح الموضوعية لهؤلاء ويدعي الايديولوجيون البرجوازيون ان مفاهيم الحرية و المساواة و الديمقراطية تتضمن أسمى القيم وتعبر عن مصالح المجتمع بأسره ولكن محتوياتها تتوافق في الواقع مع مصالح الطبقة السائدة دون سواها فتتقلص الحرية عمليا الى حرية رجل الاعمال وتنمسخ المساواة الى مجرد مساواة صورية أمام القانون وتصبح الديمقراطية مجرد شكل للسيطرة السياسية للبرجوازية

ان ازاحة الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والتحرير الفعلي للعمل يؤديان الى اعادة اندماج » وعي البشر ، والى بروز نمط جديد من الوعي وبنية وعي مطابقة له في هذا النمط الجديد من الوعي يتم تجاوز التفكك والتناقض بين محتوى النشاط الموضوعي ومعنى هذا النشاط بالنسبة للانسان وبالنسبة للعامل في المصنع الاشتراكي يتوافق النتاج الموضوعي لفعاليته مع بواعثه لان العامل ينتج لنفسه وللمجتمع بأسره ويتلقى العمل في الوعي الاجتماعي (ووعي الفرد على السواء) معنى جديدا نوعيا ، وهو (العمل) يبدأ بالتطابق مع محتواه الموضوعي ومن خلال ذلك تنشأ في الوعي علاقة جديدة بين المدلول الموضوعي للعمل ومعناه بالنسبة للفرد

« وتتميز البنية المتغيرة للوعي قبل كل شيء بهذه العلاقة الجديدة بين المعنى والمدلول ، دون أن يعني ذلك العودة الى تطابق بسيط ان الوعي البشري ينضمج مجددا في بنيته » (٣) .

تمكننا دراسة ليونتيف السوسيولوجية للوعي التي تشمل محتواه وبنيته من أن نفهم فهما ماديا معمقا أطروحة **هيغل** حول تطور الوعي من وضع الوحدة ؛ الى التمزق الى وحدة جديدة لجوانبه المختلفة . في

أدبياتنا تفسر هذه الاطروحة عادة على صعيد تحليل أشكال (أو أنواع الوعي فيقال مثلا ان وعي المجتمع البدائي لم يكن متمايزا الى أشكال مختلفة وان الوعي يتجزأ في المجتمع الطبقي الى اشكال معزولة عن بعضها ليتوحد في الاشتراكية من جديد

في الواقع يحدث داخل المجتمع الطبقي على اساس تنوع الروابط الاجتماعية ومع ترسخ الانتاج الفكري كفرع خاص للعمل انقسام للوعي الاجتماعي الى أنواع مختلفة ولكنه من غير الصحيح ان هذا الانفصال مميز لعلاقاتها المتبادلة فالتصورات والنظرات السياسية والقانونية والاخلاقية والفلسفية .الخ التي تكون بمحملها ايديولوجية طبقات معينة تترابط دوما مع بعضها وينبع ترابطها من الحاجة الموضوعية للدفاع عن المصالح الطبقية وتبريرها ومن الضروري ن يوجد في نفس النوع من الوعي محتوى فكريا متباينا بتباين المصالح الطبقية المختلفة وهذا سيؤدي مثلا الى تعارض النظرات السياسية لطبقة ما مع نظرات سواها من الطبقات ويمكن للمرء أن يقول بهذا المعنى ان نوع الوعي السياسي لطبقة ما يقترب من نفس نوع الوعي السياسي لطبقة أخرى غير ان هذه الروابط خارجية لا تعبر عن جوهر تمزق الوعي في المجتمع التناحري الذي يكمن في ان التقسيم الطبقي للمجتمع قد مزق الوعي الاجتماعي الى وعي طبقات مختلفة وتترسخ ازدواجية محتوى الوعي الى محتوى موضوعي وآخر زائف من خلال مصالح الطبقات المستغلة اما بخصوص أنواع الوعي في ارتباطها مع تفسير خصوصية انماطه المختلفة فان السؤال عن الاساس الموضوعي الذي تظهر فوقه ويمنحها خصوصيتها يكتسب أهمية من الدرجة الاولى وقد أشار ماركس وانجلز الى هذه النقطة بالضبط

> **« ان تاريخ كل المجتمعات السابقة قد تحرك داخل تناقضات اجتماعية اتخذت في العصور المختلفة صيغا مختلفة وبغض النظر عن الشكل الذي اتخذته فان استغلال جزء من المجتمع بواسطة جزء آخر هو الحقيقة المشتركة لسائر القرون الماضية ليس مستغربا اذن ان الوعي الاجتماعي لكل القرون ، بالرغم من كل التنوع والاختلاف ، قد تحرك في صيغ مشتركة معينة ، في اشكال وعي لن تنحل تماما الا بالاختفاء الكامل للتناقض الاجتماعي » (٤)**

ان المجتمع الطبقي سيخلي مكانه لمجتمع غير طبقي وسيكون نمط وعي جديد ببنية مطابقة . فما هي خصائص هذا النمط من الوعي ؟ قبل

الاجابة على هذا السؤال ، سنقول بضع كلمات أخرى في وصفه

ستمر التشكيلة الاجتماعيـــة الشيوعية في تطورهـا بمرحلتين الاشتراكية والشيوعية بالتوافق مع ذلك نتحدث عن الوعي الاشتراكي الذي ينشأ في ظروف الرأسمالية ويتطور مع البنـــاء الاشتراكي ، كما نتحدث عن الوعي الشيوعي الذي يترسخ مع انتقال المجتمع الى مرحلتـه العليا مثل هذا التقسيم للوعي الى نوعين يبدو مـــع ذلك غير صحيح تماما من المحق أن نسمي النظـــام الاقتصادي الذي يقوم علـى الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ولم يتطور بعد بصورة كافية بالنسبة للنظام الشيوعي الكامل اشتراكية ولكن عند وصف الوعي ، فان الوضع يصبح أكثر تعقيدا

ان الوعي لا يعكس الحـــاضر فقط بل هو يتنبأ على أساسه بالمستقبل ويتضمن حتما تصورات حول المثل والاهداف والمهمات والمعايير السلوكية التي تتطابق ومرحلة التطور الاعلى لهذا السبب اعتبر كلاسيكيا الماركسية الوعي المتكون للبروليتاريا والمتعارض مع تصورات ونظـرات البرجوازية ، وعيا شيوعيا (٥) وتقسيم الوعـي الجماهيري الى وعـي اشتراكي وشيوعي يقتضي تقسيم الايديولوجية الماركسية ــ اللينينية الى اشتراكية وشيوعية ، وهذا ليس ممكنا وليس من قبيل الصدف اننـا نعتبر المحتوى نفسه ايديولوجية اشتراكية مرة وشيوعية مرة أخرى

٢ ـ الوعي الاشتراكي كنمط خاص للوعي الاجتماعي

تتمثل الصفة النوعية المميزة لوعي المجتمع الاشتراكي في انه يعبر عن الوحدة الاجتماعي بافكار ونظرات ومشاعر وأمزجة تشترك فيها سائر طبقات وفئات المجتمع. وتتجلى هذه الصفة بأوضح الصور حين يقارن المرء المجتمع الاشتراكي مع المجتمعات الطبقية التناحرية. حيث تملك كل طبقة ايديولوجيتها وسيكولوجيتها الخاصة. وتمايز محتوى وعي الطبقات الرئيسية لهذه المجتمعات بسبب تضارب مصالحها. فيتفتت وعي المجتمع الى انواع من الوعي الطبقي المتمايز. برغم ان وعي الطبقة السائدة يدعي انه يمثل وعي المجتمع بأسره.

ويمثل الوعي الاجتماعي في الرأسمالية وعي البرجوازية بالدرجة الاولى. صحيح أن لكل طبقة وعيها الخاص. ولكن البرجوازية تنجح بفضل امتلاكها لوسائل الانتاج الفكري والمادي في فرض أفكارها ونظراتها وأمزجتها وآرائها على المجتمع. وهذا أمر يتعزز عبر مجمل نظام العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج.

يعبر وعي البرجوازية السائد في الرأسمالية تعبيرا حيا عن الطبيعة الطبقية للوعي الاجتماعي. وتعكس الاخلاق البرجوازية والسياسة والحقوق والفلسفة وسواها من أنواع الوعي البرجوازي الواقع من وجهة نظر الطبقة المستغلة. وهي تدافع عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وأشكال الاضطهاد الاجتماعي والقومي ومجمل نظام العلاقات الاجتماعية الرأسمالية. ويتعارض وعي البرجوازية بالطبع مع وعي الطبقة العاملة. وينذر الصراع فيما بينهما بدوره على الطبيعة الطبقية للوعي الاجتماعي في الرأسمالية.

ويعني انتصار الاشتراكية اقامة علاقات اشتراكية في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وسواها. فيصل وعي الطبقة العاملة الى مرتبة قيادية داخل الوعي الاجتماعي. ولا تلغي الوحدة الاجتماعية ـ السياسية والفكرية للمجتمع الاشتراكي مسألة الطبيعة الطبقية للوعي

الاجتماعي ، الذي يعكس الواقع من مواقع الطبقة العاملة بوصفها اكثر طبقات المجتمع تقدما ويعكس في نفس الوقت الوجود الاجتماعي ايضا من منظورات الفلاحين التعاونيين والمثقفين الكادحين هؤلاء الذين تتوافق مصالحهم الجوهرية مع مصالح الطبقة العاملة والطبيعة الطبقية للوعي الاجتماعي لا تعبر عن نفسها ، في الاشتراكية ، بتعارض وعي الطبقة العاملة مع وعي الفلاحين التعاونيين والمثقفين بل بتعارضه مع **مخلفات الماضي** في وعي البشر ومع الوعي البرجوازي الذي يمثل العالم القديم ان الوعي الاجتماعي للمجتمع الاشتراكي متحدد طبقيا بمعنى انه يعبر عن الاشتراكية ، ويدافع عنها كنظام اجتماعي هو من صنع الطبقة العاملة ، ويتعارض مع نظام الراسمالية وتجسده البرجوازي

والوعي الاشتراكي هو وعي لكل الطبقات والفئات وعي شعبي عام وهذه هي صفته النوعية المميزة وهو يتصف بانعتاقه المتزايد من الاحكام المسبقة والاوهام والاخطاء التي تميز وعي سائر المراحل التاريخية المنصرفة للمجتمع البشري وتخلق الاشتراكية ظروفا للنشاط البشري تجعل الروابط بين البشر تتخذ شكلا واضحا ومفتوحا هنا في الاشتراكية ، تنتفي الارضية التي تعيش عليها الصنمية (الفتشية السلعية والحقوقية والدينية وغيرها

مع تحرره من الاوهام والاخطاء وتبنيه للافكار والتصورات التقدمية التي تلازم الاشتراكية يتلقى الوعي الاجتماعي نوعية جديدة في الماضي كان محتما ان ينطبع الوعي بطابع أفكار ومشاعر النزعة الفردية، والانانية الطبقية والقومية المتزمتة التي ينتجها نظام الملكية الخاصة بتدميرها للعلاقات البشرية وتغذيتها للشك المتبادل بين الناس اما في الاشتراكية فانالوعي يتميز بصفات مثل النزعة الجماعية والوطنية والاممية والانسانية وهذه السمات تكون جوهر المحتوى الجديد نوعيا للوعي

وتبرز نوعية الوعي الجديدة في نظرة الشعب الى الملكية العامة والدولة كقيم ايجابية وفي الاحترام الذي يلقاه الانسان العامل في الماضي لم تكن للجماهير الكادحة علاقة ايجابية بالدولة ، لانها كانت في سائر مجتمعات التناحر الطبقي اداة لاضطهاد واستغلال الجماهير في مجريات الثورة الاشتراكية تخلق الطبقة العاملة دولة جديدة وتستخدمها كأكثر الادوات أهمية في بناء الاشتراكية وهي تعي ان انتصار النظام

الحديد ليس ممكنا دون هذه الدوله والاسهام الفعال لسائر الكادحين في قيادتها ودون انخراطهم في نشاطها

هذا التحول في الموقف من الدولة كان واحـدة من أولى وأهم التغيرات في الوعي الاجتماعي للمجتمع الحديد المتطور

وفي الوعي الاجتماعي للعصور الماضية لم يكن هناك علاقـة ايجابية بالعمل فقد كان العمل في مجال الانتاج المادي يعد أمرا ذميما وفرضت انضباطية العمل بالجوع والاكراه لقد ترك الموقف السلبي من العمل غير الحر خلال التشكيلات الاجتماعية الثـلاث ـ العبودية والاقطاعيـة والراسمالية ـ آثارا عميقة في وعي الجماهير وسيكولوجيتها المترسخـة في عادات وأعراف وتقاليد والثوره الاشتراكية تزيل هذا الموقفالسلبي حيال العمل ويأخذ المرء في مجتمع الاشتراكية بالعمل لنفسه ولمجتمعه. والفارق بين الموقفين من العمل ينعكس في الوعي فارقا نوعيا يميز الوعي الاشتراكي عن وعي العصور السابقة ان الوعي الحديد يصبح مصـدرا للنشاط الخلاق للجماهير

وهناك دراسات سوسيولوجية ميدانية كثيرة حول علاقة الانسـان بالعمل وموقفه منه . ونود هنا أن نسوق مثالا معبرا حول دراسة جرت في مصانع لينينغراد بقصد معرفـة موقف العمـال من العمـل وقد كانت الاجوبة على الشكل التالي ، مع العلم بان الدراسة شملت ٢٦٦٥ عاملا

١ ـ يكون العمل الجيد ، حيث يكون المرء مفيداً (اجابة ٦١٧ عاملا)

٢ ـ لا يجوز أن ننسى الاجر ، ولكن المعنى الرئيسي للعمل يكمـن في فائدته الاجتماعية (اجابة ٨٣٠ عاملا)

٣ ـ الاجر هو الشيء الرئيسي ، ولكنه يجب على المرء أن يفكـر بغاية عمله (اجابة ٨١٩ عاملا)

٤ ـ كل عمل جيد ، حين يكون اجره جيداً (اجابة ٣٩٩ عاملا)

ان الاجابات هي خير دليل على الوعي الجـديد الذي تخلقـه الاشتراكيـة حيال العمل .

وتفتح الاشتراكية مجالات واسعة لتطبيق قانون تغيير العمل الذي يدعم رابطة العمل الفكري والجسدي في النشـاط البشري ويسمـح بتطوير شامل للشخصية وهذا يؤدي الى نمو الدوافع الاخلاقية والفكرية حيال العمل وزيادة عناصر الابداع العلمي ـ التقني فيـه . وفي نفس

الوقت يزيد تأثير قانون تغيير العمل المتطلبات المطروحة على محتوى وطبيعة العمل وتنظيمه

مع تغير العلاقة بالعمل بصفته التزام اجتماعي لاعضاء المجتمع تغير أيضا سلوك البشر حيال الملكية الاجتماعية فلا ينظر اليها كمجرد ثروة « للدولة » غريبة عنا بل هي تصبح ملكيتنا ملكية الكادحين أنفسهم وكل اعتداء على الملكية العامة يصبح بالنسبة للوعي الاجتماعي اعتداء على المجتمع نفسه

ان التغير يصيب العمل والملكية العامة والدولة في جوهرها الاجتماعي ويجعلها تبدو في الوعي كقيم ايجابية وهذا يعني ان الوعي الاجتماعي قد اكتسب حقا نوعية جديدة

وتعتبر مرحلة الثورة الاشتراكية بأكملها مرحلة تربية ذاتية للمجتمع، ولتنظيفه من أوحال العالم القديم وترتبط التربية الذاتية عضويا مع تربية الجماهير بواسطة الطليعة المنظمة من الطبقة العاملة أي الحزب فبدون عمل الحزب الايديولوجي الذي يتحقق من خلال الدولة ومنظماتها وأجهزتها يصبح من غير الممكن احداث التغيير الجذري في حياة المجتمع الفكرية ويكمن دور الحزب في وضع الايديولوجيا العلمية التي تعتبر جوهر الوعي الاجتماعي وفي نقلها الى عقول الجماهير الشعبية

ويتكون الوعي الجديد في صراع حاد ضد الايديولوجيا والسيكولوجيا البرجوازية والبرجوازية الصغيرة وقد أشار لينين مرات عديدة الى تعقيد وصعوبة النضال لتغيير سيكولوجية ملايين البشر

« ان عادات النظام الرأسمالي قوية جدا واعادة تربية الشعب ، الذي ربي مئات السنين بهذه العادات ، هي عمل صعب يتطلب وقتا طويلا » (٦)

وتمتاز بصعوبة خاصة تربية الجماهير بروح العمل الاشتراكي ، وخلق موقف صحيح لديها حيال الملكية الاجتماعية

« ان خلق انضباطية جديدة للعمل ، وأشكال جديدة للارتباط الاجتماعي بين البشر ، وطرق جديدة لتقريب البشر من العمل ، هو مهمة تستغرق سنوات وعقودا » (٧)

٣ ـ بنية الوعي في المجتمع الاشتراكي

الوعي في المجتمع الاشتراكي هو تكـــوين فكري متماسك الاجزاء لا يمكن أن تفرز بداخله وعي الطبقات كتكوين بنيوي خاص لان مصالحها متماثلة ولان وحده فكرية واجتماعية ـ سياسية تنشأ فيما بينها ان التكوين البنيوي الخاص في الوعـــي الاجتماعي هو وعي الجماعـــات الاشتراكية

يمثل المجتمع الاشتراكي منظومة من الجماعات تدور فيها حيـاه الانسان الفرد هذه الجماعات مختلفة التركيب تنفذ وظائف مختلفة وتملك أفكارها وأمزجتها وتقاليدها وتتحدد عالمها الفكري من خـــلال الظروف العامة لحياة المجتمع ولهذا نجد الوعي الاجتماعي تعبيره فيها غير ان الوعي يتنوع في كل جماعة بنوع الشروط الخاصة التي تعيشهـا. والتي تمنحها صفاتها الخاصة

يتحرر الوعي في المجتمع الاشتراكي من الاحكام المسبقة والاوهـام والاخطاء التي كانت لصيقة بسائر أنماط الوعي فـي العصور الماضيـة وهذا ينعكس في بنيته وبشكل خاص في ان بعض انواع الوعي السابقه لا توجد فيه اما التغير المميز الذي يصيب بنية الوعي الاجتماعي فيكمن في ان سائر أنواعه تأخذ بتحقيق وظائف معرفية وتشتمل بالتالي العلوم المطابقة لكل فرع من المعرفة فالوعي السياسي والحقوقي يشملان على علم الدولة والحقوق والوعي الاخلاقي على علم الاخلاق والفن على علم الجمال الخ في الماضي اقتصرت أنواع الوعي على تحقيق مهمـــة ايديولوجية بالدرجة الاولى ولم تتضمن العلم

ويعبر تغير بنية الوعي الاجتماعي في الاشتراكية عن نفسه أيضا في التبدل الذي يصيب الرابطة المتبادلة بين الوعي العلمي ـ النظري والوعـي اليومي في وعي المجتمع الاشتراكي يرجح الوعي العلمـي ـ النظري بينما كان الوعي اليومي هو السائد في وعي التشكيلات الاجتماعية السابقة. وهذا يفسر بأن أغلبية الجماهير الكادحة كانت في الماضي غير متعلمة .

ولم يكن بوسعها بالتالي ان تشترك في المعارف النظرية للمجتمع وكانت النظريات الفلسفية والسياسية وسواها من المنظومات الفكرية بعيدة عنها ، ومن الصعب عليها تمثلها لبعدها عن المعارف العلمية ، التي كانت امتيازا مقصورا على الاقلية المميزة اجتماعيا حتى في هذه الايام يعيش في العالم الراسمالي ملايين الناس دون تعليم وتغلق في وجوههم مسالك الحصول على المعارف النظرية والعلمية بعكس ذلك تستهدف **الثورة الثقافية** ، التي تجري في البلدان الاشتراكية التربية الجذرية للشعب واكتساب الشعب للمعارف العلمية والقيم الفكرية للمجتمع

ان بناء وتوطيد الاشتراكية هو في نفس الوقت بداية الانتقال الى الشيوعية فالاشتراكية تتطور بالضرورة الى الشيوعية ويترتب على ذلك تطور وعي المجتمع الاشتراكي الى وعي للمجتمع الشيوعي وهو ما يحدث تغيرا آخر في بنيته فتطور الوعي الاشتراكي يمكن ان يتحقق فقط على أساس اقامة الوجود الشيوعي خلال صراع حاد وحاسم ضد بقايا القديم في وعي البشر وضد الايديولوجية البرجوازية الراهنة ان التغيرات التي تحدث في الوعي الاجتماعي تسمح بتمييز وعي المرحلة الثانية ، الشيوعية عن وعي المرحلة الاشتراكية الاولى وستمتد الفروق بين نمطي الوعي الى المحتويات ايضا لذا يجب الانصراف الى شرحها وتفسيرها وللاسف فانه يتم غالبا اللجوء الى اكثر الطرق بساطة، دون أن يكون الطريق الصحيح ان مبادىء الاشتراكية توسع لتشمل الشيوعية أيضا ثم يشرح كيف ستصبح في مستقبل الايام يقول **ستيبانيان** مثلا

> **« ان الوعي الاشتراكي للجماهير ، الذي تطور في صراع عنيف بين الاشتراكية الصاعدة والراسمالية المحتضرة ، يتطلب اخضاع المصالح الشخصية للمصالح الاجتماعية وهذا يتحقق باستخدام اساليب الاقناع والاكراه ايضا في حين يقوم الوعي الشيوعي على ارتباط متناسق للمصالح الشخصية والاجتماعية » (٨)**

ان ستيبانيان لا ينتبه الى ان الارتباط المتناسق للمصالح الشخصية والاجتماعية (وليس اخضاع واحدة منها للاخرى) هي المبدأ السائد في الاشتراكية ايضا اما عملية الاخضاع ، فهي لا تحدث الا عندما ينشأ تضارب بين المصالح الشخصية والاجتماعية ومثل هذا التضارب يمكن ان ينشأ في الشيوعية ايضا

لكشف الفروق بين وعي المجتمع الاشتراكي ووعي المجتمع الشيوعي

يجب علينا ان ندرس تلك التغيرات العميقة في وعي البشر التي تحدث خلال بناء الشيوعية وأن نعممها في الوقت الراهن تعمل الاشتراكية من اجل خلق نظرة علمية الى العالم لدى مواطنيها في هذه العملية يجب على كل انسان أن يحصل على معارف كافية في مجال الماركسية ـ اللينينية وفي المجالات العلمية وعليه ان يرفع أيضا مستواه الثقافي العام كيف يؤثر حل هذه المهمة على بنية الوعي الاجتماعي ؟ الا يعني ذلك ان الوعي النظري يغدو قياديا في حياة البشر وان الوعي اليومي يختفي ؟ ثمة من يقول بوجهة النظر هذه وعلى كل حال فان مهمة تقريب الوعي النظري والوعي اليومي من بعضهما تطرح كمهمة واقعية ولكنه ليس من الممكن ان نحاول رفع الوعي اليومي الى سوية الوعي النظري وان نتجاوز الوعي الاول بهذه الطريقة. الشيء الهام هو ان يعكس الوعي النظري الواقع من حيث جوهره بينما يعكس الوعي اليومي الظواهر ، ويعرضها كما تبدو للعين غير المدربة ولن تنتهي في يوم من الايام حاجة البشر الى تركيز اهتمامهم على الظواهر على الروابط المباشرة التي يتعاملون من خلالها مع الواقع اليومي والى كشف جوهر الاشياء ايضا وفي الاشتراكية تعبر الحاجات اليومية للبشر وشروط حياتهم المباشرة عن نفسها في الوعي اليومي هذا النوع من الوعي يرتبط بصورة تزداد وثوقا مع الوعي النظري وهو يؤثر عليه ولكنه لا يمتصه وهذا لن يحدث في المستقبل ايضا لان التوغل الى جوهر الاشياء يشترط بالضرورة انعكاسها من الجانب الخارجي للظاهرة ومن جانب التصورات المكتسبة في الحياة اليومية ومع ذلك فان العلاقة المتبادلة بين الوعي النظري واليومي ستتغير لمصلحة الاول

يمثل الوعي اليومي مجالا للعلم وبصورة رئيسية ايضا مجالا للايديولوجيا وبخصوص العلم ثمة توافق في الآراء حول تطوره الشامل واهميته المتعاظمة في الوعي الاجتماعي الشيوعية اما مستقبل الايديولوجيا فهناك خلافات في الراي حوله

في المجتمع الطبقي تعتبر الايديولوجيا وعيا طبقيا وبما انه لا يوجد في الشيوعية طبقات فان الايديولوجيا نفسها ستتلاشى نحن لا نوافق على هذا الراي فاختفاء الطبقات والمصالح الطبقية لا يعني اختفاء المصالح عموما ان مصالح المجتمع ستبقى وستبقى معها الحاجة الى صياغتها والتعبير عنها والى تبرير الاساليب والطرق لتحقيقها وشرح مثل البشر ومعنى حياتهم في كل مرحلة من التطور التاريخي

وهذه مهمات ستقوم بها الايديولوجيا التي ستفقد شكلهـــا التاريخي وطبيعتها الطبقية اللذين لازماها خلال عدة آلاف من السنين انها ستفقد ارتباطها الطبقي لتكتسب بدلا منه ارتباطا انسانيا عاما ولكنها ستحافظ على خصوصيتها كوعي ذاتي للمجتمع ان العلم نعكس الـــواقع ويصوغ القوانين ولكنه لا يطرح مهمات ولا نبرر المثل والاهداف وهــذا مــا تفعله الايديولوجيا بالاستناد الى العلم والى القوانين التي يكتشفها ان العلم والايديولوجيا هما وعي أو بالاحرى الوعي الذاتي للمجتمع الذي لا نمكن أن يستغني عنهما في أية مرحلة من تطوره التاريخي

ما هي التغيرات التي ستصيب أنـــواع الوعي المعروفة للمجتمـع الاشتراكي ؟ في المؤلفات التي تدرس آفاق تغير الوعي الاجتماعي تقسم أنواع الوعي في العادة الى ثلاث فئات مختلفة المصير وتتكون المجموعـة الاولى من العلم (وهو يعتبر غالبا شكلا خاصا للوعي وليس مجالا خاصا له والفلسفة والفن والاخلاق هذه الانواع لا تتلاشى في سياق التطور نحو الشيوعية بل هي تتطور تطورا شاملا وينتسب الى الفئة الثانية الوعي السياسي والحقوقي وبما انه لا يوجـــد في الشيوعية سياسة وحقوق فان التكوينات المرتبطة بهما كالـوعي السياسي والحقوقي ستتلاشى اما الفئة الثالثة فتتكون من أنواع الوعي الزائف التيستختفي تماما بوصفها من مخلفات الماضي مع انتصار الشيوعية

هذا التصور حول تغير أنواع الوعي الاجتماعي صحيح بصورة عامة ولكنه ليس مرض لانـــه يترك انطباعا بأن محتـــوى وأشكال تعبير وعي المجتمع الشيوعي ستكون أفقر منها في العصور السابقـــة ان معرفـة مصير انواع الوعي الاجتماعي تتطلب دراسة من نوع آخر ونحن على ثقة من ان وعي المجتمع الشيوعي لن يكون اكثر فقرا من وعي العصور السابقة، بل سيكون بعكس ذلك اكثر غنى وتنوعا وأغنى محتوى

ان غنى وتنوع وامتلاء محتوى الوعي الاجتماعي للشيوعية ستتحدد بغنى وتنوع الروابط الاجتماعية للبشر ان تاريخ البشر الاصلي نبدأ مع الشيوعية فبعد أن كانت جهود البشر تنصب على تأمين السلع المادية الضرورية للحياة وكانت الحياة الفكرية للبشر لا تمثل بالنسبة للمجتمع هدفا بذاته ، يصبح ، في الشيوعية ، ليس فقط تطـوير الحياة المادية ، بل والفكرية أيضا شرطا لا بد منه مع ان الانتاج المادي لا ينقطع عن أن يكون اساس المجتمع والحال ، ان هدف الشيوعية الرئيسي هو التطوير الشامل للحياة الفكرية للبشر وهذا يشترط التطوير الشامل للشخصية.

مراجع الفصل الرابع

- شورافلوف المرجع السابق
- ليوسيف مسائل تطور ما هو نفسي ص ١٨٦

٣ ـ نفس المرجع

٤ ـ ماركس ـ انجلز البيان الشيوعي ، المؤلفات ، الجزء ٤ ، برلين ١٩٥٩ ص ٤٨.

٥ ـ ماركس ـ انجلز الايديولوجية الالمانية ص ٧٠.

٦ ـ لينين تقرير مجلس مفوضي الشعب الاعمال الكاملة ، الجزء ٢٧ برلين ١٩٦٠. ص ٥١٧

٧ ـ لينين من تحطيم نظام عمره مئات السنين الى خلق نظام جديد . الاعمال الجزء ٣٠. برلين ١٩٦١ ، ص ٥١١

٨ ـ سيبانيان : مشاكل فلسفية . ١٩٦٤ ، الدفتر ٤ ، ص ٦٦ .

الفصل الخامس

اوضاع الوعي الاجتماعي

من الضروري دراسة الوعي الاجتماعي على صعيد أوضاعه المشخصة، لتأثيره على حياة البشر ككل موحد ، وليس بحسب الاجزاء المكونة له وتعترف الفلسفة الماركسية بوجود رابطـــة متبادلة وثيقة بيـن أنـواع ومجالات الوعي وتعترف ايضا ، بنفس القدر ، بوجـود قوانين تطور داخلية للوعي ، اي بكليته ولكن أدبياتنا لا تراعي بما فيه الكفاية التماسك الداخلي للوعي الاجتماعي ويدل على ذلك حقيقـة ان دراسـة الرابطة المتبادلة بين أنواعه لا تتجاوز تحليل الروابط بين هذه أو تلك من فئاته وتبقى فعالية الوعي الاجتماعي ككل غير مشروحة أو مفسرة

وليس هناك من شك في ان شرح آلية عمل الوعي الاجتماعي تعترضه صعوبات كبيرة وهذا يرتبط بتنوع مستوياته ، وأصعدته ، وانواعه ومجالاته ، وببروزه داخل المجتمعات الطبقيـة المتناحرة كوعـي خاص بالطبقات في مجتمع من هذا الطراز تملك كلية الوعـي معنى مزدوجا فهي من جهة كلية وعي طبقات متفرقة بما يميزه من وحدة الوعي النظري واليومي ، ووحـدة الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية والنظرات والآراء السياسية ، والاخلاقية والفلسفية وسواها وهي من جهة ثانية كلية وعي المجتمع عموما بهذا المعنى ، ان وحدة الوعي للمجتمعات الطبقية جد نسبية الا ان وعي الطبقات المختلفة يمكن أن يتوافق مرحليا فـي مراحل تاريخية متفرقة ، لان مصالح الطبقات قد تتطابق عندئذ يمثـل وعي المجتمع تكوينا بالغ التعقيد ، وان كان يملك ديمومة وكلية نسبيتين وعلى سبيل المثال كان وعي المجتمع البرجوازي في عصر الرأسمالية المبكرة (فجر الرأسمالية) تكوينا كليا نسبيا ومع تطور الرأسمالية تغير الوضع بمقدار ما تعرفت الطبقة العاملة والجماهير الكادحة عموما على مصالحهـا الرئيسية وأدركت تناقضها مع مصالح البرجوازية وبالتطابق مع هذه البنية الاجتماعية المتكونة للمجتمع البرجوازي انقسم وعيه أيضـا الـى تكوينات فكرية ذات طبيعة طبقية متعارضة

ويظهر وعي المجتمع البرجوازي ، شأنه شأن سواه مـن التشكيلات

الاجتماعية التناحرية ، كوعي طبقي ممزق ومتصارع داخليا هذا يبرهن على أهمية وضرورة تحليل الوعي الطبقي قبل كل شيء ، وان كان لا يؤدي الى الاستغناء عن دراسة الـــوعي الاجتماعي ككل موحد ويملك وعـي المجتمعات ذات الطبقات المتناحرة ، في كل زمن ، وبرغم التناقضات التي تمزقه ، صفات نوعية محددة وعندما يريد المرء كشف مثل هذا المجتمع واعادة تشكيله ، يجب عليه ان يعرف خصائص وعيه ، والروابط المتبادلة لوعي طبقاته ، وهيمنة اتجاهات تطور معينة فيه الخ

وتكتسب مسألة كلية الوعي الاجتماعي أهمية خاصة في الاشتراكية، حيث تخلق وحدة اجتماعية للمجتمع بأسره ، وتتوافق المصالح الرئيسية للطبقات التي لا تزال قائمـــة ، وتنشأ عـــلى ارضية التوافق وحدتها السياسية والايديولوجية ان الوعيالاشتراكي يعمل ككلموحد ومنسجم.

ويمكننا مفهوم الوعي الاجتماعي كظاهرة موحدة ، تتحدد بمصـــالح من يحملونها ، من الكشف الاعمق والاشمل لدوره في حيـــاة المجتمع ويعبر الوعي الاجتماعي عن نفسه ، بصفته تكوينا متماسكا ، في كل مرحلة من مراحل وجوده الفعلي بأوضاع معينة يتخذها وهذه تعطي ، بحسب راينا ، تصورا مشخصا حول الوعـــي الاجتماعي كتكـــوين فكري ذي طبيعة كلية

ان مبدأ دراسة الوعي الاجتماعي ككلية معينة لم يجد تعليله الكـافي بعد في الادبيات التي تدرسه ، ولم يدخل مصطلح « وضع » الوعي بعد الى لغة الاستخدام العلمي ، لذا فاننا سنكتفي باثارة هذه المشكلة فحسب

مفهوم « اوضاع الوعي الاجتماعي »

في الادبيات التي تدرس مسائل الوعي الاجتماعي ، كثيرا ما يصطدم المرء بزعم يقول ان مصطلح « وضع الوعي » قد وضعه وصاغ معناه فلاسفة وعلماء نفس برجوازيون ، ولا يجوز استخدامه الواقع ان هذا المصطلح واسع الانتشار في علم النفس والفلسفة البرجوازيين ، ولكنه ليس من اكتشافهما فقد استخدمه أرسطو وغيره من فلاسفة الماضي ، وتستخدمه اليوم نظريات علم النفس في الاتحاد السوفياتي

يملك مصطلح « وضع » معان مختلفة وهو يستخدم في علم النفس في البلدان الاشتراكية لوصف العالم الداخلي للشخصية ، وبخاصة مشاعرها وميولها ولواعجها الخ ويفهم تحت كلمة الوضع النفسي لانسان ما نشاطه النفسي من جهة ، ومعاناته الداخلية من جهة أخرى

ويستخدم علماء النفس مصطلح « وضع » لوصف الوعي الفردي وان كان لا زال يستخدم أيضا لدى تحليل الوعي الاجتماعي بهذا المعنى استخدمه ايضا **بليخانوف**

« لا توجد حقيقة تاريخية واحدة لا تدين باصلها للاقتصاد الاجتماعي . ولكن من الصحيح ايضا انه لا توجد حقيقة تاريخية واحدة لم يسبقها وضع معين للوعي ، ولم يرافقها او يحل محلها وضع معين للوعي » (١) .

ان المرء يصف بهذا المفهوم مصفوفة من ظواهر علم النفس الاجتماعي ، وخاصة الامزجة

في رأينا يجب استخدام مصطلح « وضع » بالنسبة لظواهر السيكولوجيا الاجتماعية ، ولاشكال التعبير الاخرى عن الوعي الاجتماعي . ونحن نؤكد ذلك ، لان الوعي الاجتماعي ، عموما وفي اشكال ظهوره الخاصة ، اما أن يقيّم شيئا ، او يختبره أو يعاينه ، اي انه يتخذ اوضاعا معينة . وهذه تؤثر على بواعث السلوك لدى البشر ، وعلى القرارات

العيانية التي يتخذونها ، فتدفعهم الىالقيام بفعالية ما والسوسيولوجيا، هذا العلم الذي يدرس الدور الناشط للوعي الاجتماعي في حياة المجتمع تجابه أيضا مسألة أوضاعه هذه

عندما ندرس الوعي الاجتماعي على صعيد نظريـة المعرفة فحسب ، فان السؤال عن أوضاعه لا يطرح نفسه أصلا وهذا مفهوم لان الوعي الاجتماعي يدرس عندئذ في روابطه مع الوجود الاجتماعي ، وينظر اليـه كانعكاس له وعلى صعيد الدراسة السوسيولوجية ينطلق الباحث مـن مفهوم الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي ويتعامل مع الوعي كنتاج ونتيجة معينة ، ويركز اهتمامه على الرابطـة المتبادلة للوعي مـع نشاط البشر المنصبّ على تغيير واعادة صياغـة الوجود الاجتماعي وتعتبر هنا أوضاع الوعي موضوعا للدراسة بوصفهـا أشكالا خاصة للظواهر تتميز عن بعضها بعمق تأثيرها عـلى سلوك البشر ، وبايجابية أو سلبية التأثير .وبطوله أو قصر مداه

وتسمح الدراسة التاريخية ـ العيانيه للوعي الاجتماعي على الصعيد السوسيولوجي بالاستنتاج .التالي لا تؤثر الافكار السياسية والحقوقية والاخلاقية الخ ولا التصورات والاحاسيس متفرقـة وبصورة مباشرة على نشاط البشر ، بل الذي يحدث التأثير هو **اندماجها** ، أي تلك التكوينات التي تنشأ نتيجة للتأثير المتبادل بين الافكار والآراء والتصورات والمشاعر المختلفة وهذه التكوينات هي أوضاع الوعي الاجتماعي

ان وضع الوعي الاجتماعي ليس في العادة مجموع هذه أو تلك من الافكار والنظرات والتصورات والمشاعر ، بل حـالة من حالات هذه العناصر يسيطر فيها بعضها داخل الوعي ويطبع محتواه بأسره بطابعه الخاص والواقع ان وعي مجتمع معين يكون في الحالات العادية مطبوعا بأفكار معينة (قانونية ، فلسفية أو سياسية الخ) ونقدم وعـي مجتمع العصر الوسيط مثالا على ذلك ، فقد كانت الحياة الفكرية بأسرها مطبوعة بطابع الايديولوجية الدينية التي قدمت للوعي الاجتماعي للطبقة السائدة الاتجاه والصبغة المعينـة (٢) وفـي عصر الثورات البرجوازية المبكرة في أوروبا الغربية احتلت الايديولوجيا السياسية مكانا مهيمنا في الوعي الاجتماعي فصبغت الوعي بصبغتها ، .وأثرت عـلى أوضـاعه المشخصـة .

ان تضبيط الوعي وتوجيهه تحت نفوذ أفكـــار ونظرات وتصورات ومشاعر مهيمنة يشكل الصفة النوعية المميزة لاوضاع الوعي الاجتماعي وتسمح هذه الصفة بالتمييز بين الافكار والمشاعر المهيمنة في زمن معيـن داخل الوعي الاجتماعي ، وبين محتواه ـ الافكار والنظريات وسواها من التكوينات الموجودة فيه ـ وأشكال تعبيره المشخصة

ان عزل محتوى الوعي الاجتماعي وأوضاعه ، وتحـديدها بدقـة هام جدا لدى تحليل نشاطه ولا نستطيع القول ان نفس محتوى الوعي يملك دوما تأثيرا واحدا على سلوك ونشاط البشر ويتضـح ذلك حين نقارن أوضاع النهوض والتدهور الاجتماعي بعضهـــا ببعض فالوعي الاجتماعي يملك عادة في فترات النهوض طبيعة تفاؤلية ، في حين يمتاز تدهور الحياة الفكرية بمسحة تشاؤمية. هذان القطبان المتعارضان لاشكال التعبير عن اوضاع الوعي يملكان في الواقع عتبات وسيطة كثيرة ، يتجلى تأثيرها على الحياة الاجتماعية في ان وضع النهوض يدفع البشر الىالقيام بسلوك فعال ، بينما يدمر التدهور معنوياتهم ويدفعهم الى السكون ان دور الوعي ، الذي يمر بأوضاع مختلفة ، ليس واحدا ، مع ان محتـــواه يمكن أن لا يتغير قط

الوضع هو التعبير المنسجم عن الوعي الاجتماعي ويكمن الانسجام في هيمنة أفكار وآراء وتصورات ومشاعر معينة عــلى الوعي الاجتماعي بأسره ، ومنحه بالتالي نوعية معينة وهو ، اي الانسجام ، لا يعني بأي حال الوحدة القائمة على عامل واحد باعتبارها علاقة نوعية ممكنة للوعي فعلامة الوعي تتجلى في وجود صفة نوعية معينة ، لا تستثنى من الفروق بين جوانبه المختلفة ، ولا من الروابط المتناقضة لهذه الجوانب

في مجتمع الطبقات المتناحرة تعتبر كلية أوضاع الوعي جد نسبية ، مع انه يمكن لوعي الطبقات المختلفة ان يتوافق هنا أيضا في مراحل تاريخية موقتة ، وان يظهر وعي المجتمع عموما اوضاعا معينة مشتركة مثل هذه الاوضاع ممكنة أيضا ، عندما تنجح الطبقة السائدة في فرض ايديولوجيتها على الطبقات الاخرى هكذا تنظم الطبقات السائدة في المجتمـع الطبقي « انتاج وتوزيع أفكار عصرها بحيث تصبح افكارها الافكار السائـدة للعصر » (٣) وهي تنقل الوعي الاجتماعي الى وضع معين هو ، في المجتمع الطبقي ، تكوين متناقض ، وان كان يملك صفة نوعية مميزة

وتوجد أيضا أوضاع عامة للوعي حين تكـــون ثمة فواصل طبقية حادة له ان المجتمع الطبقي هو كل احتماعي ترتبط فيــه الطبقات مــع بعضها ويتبادل فيه وعيها التأثير وتمكننا كلية أوضاع الوعي الاجتماعي من وصف جانبها النوعي في حـــين يصف انتشار الافـــكار والآراء والتصورات والمشاعر والامزجة السائدة في الوعـــي الاجتماعي الجانب الكمي لاوضاع الوعي الذي يجب ان يولى الاهتمام عـــد شرح خصائص أوضاع الوعي ان الافكار والنظرات المهيمنة في ايديولوجية ما لا تنتشر في نفس الوقت بين الجماهير ولا تشكل دليلا للعمل بالنسبة لها وحين لا تجد الانتشار الجماهيري وتستحوذ على عقـــول الجماهير فان السيكولوجية الاجتماعية لا تستحوذ بدورها على الجماهير عند دراسة الاوضاع العيانية للوعي يجب قبل كل شيء الانتباه الى مدى انتشارها جماهيريـــا

وتعبر الصفة النوعية لاوضاع الوعي الاجتماعي عن نفسها أيضا في انها تصطبغ عادة بصبغة شعورية الامر الـــذي يظهره انتشار الامزجة الاجتماعية في وقت من الاوقات

ليست الامزجة الاجتماعية علامة خارجية على وجود أوضاع الوعي فقط فكل شيء مما يعبر عن نفسه في الـــوعي الاجتماعي يمس حاجات ومصالح البشر ويستدعي روابط شعورية ــ ارادية حيال ظواهر وحقائق الواقع ويؤدي الى أنواع معينة من المعاناة وهذه لا تصبــغ فقط وبساطة أوضاع الوعي بصبغة شعورية بل تعبر أيضا عـــن جوهره وتمركزه على هدف معين واستعداده للعمل أو فقدان هـــذا الاستعداد بكلمات أخرى انها تعبر عـــن موقف الجماهير العريضة ومن الاهمية بمكان مراعاة الامزجة الاجتماعية لـــدى دراسة خصـــائص أوضاع الوعي

تسمح التعيينات المعطاة حول مفهوم وضع الوعي بفهم الاوضاع كشكل تعبير مميز للوعي الاجتماعي وفي الواقع فانه من الصعب انكار وجود عوامل مهيمنة في الوعي الاجتماعي تمنحه طابعا وتوجهـــا معينين وصبغة شعورية وليس من الممكن أيضا انكـــار ان اكتساب الوعـــي الاجتماعي لنوعية معينة يجعله قادرا على السيطرة على البشر عن طريـــق دفعهم الى هذا النشاط أو ذاك

ان المفاهيم المستخدمة على نطـاق واسع مثـــل الجو الفكري و روح العصر » و اتجاهات الفكر » تعكس ، الى حد ما ، الاوضـــاع الموجودة في المجتمع للوعي بوصفها أشكالا يعبر الوعي الاجتماعي عن نفسه من خلالها ومع ذلك فانها لم تكن حتى الآن موضوع دراسة علمية ، ولم ينظر اليها كتكوينات بنيوية خاصـــة للوعي الاجتماعي وربما كمن احد أسباب هذا التقصير في قصر حياة وسرعة تغير أوضاع الوعي ان ذلك ليس بالمبرر الكافي لعدم دراسة أوضاع الوعي الاجتماعي ، خاصــة وان استمراريتها ومدى وجودها يتوقفان على العوامل التي أنجبتهـا هكذا يمكن للرأي الاجتماعي ، وهو واحد مـــــن أكثر أوضاع الوعي الاجتماعي انتشارا وجماهيرية ، أن يعيش فترة قصيرة فقط ، عندما تجد المسائل ، التي تكوّن بصددها حلا سريعا ولكن عندما تبقى المسائل معلقة ، فـان الرأي الاجتماعي حولها يمكن أن يبقى لفترة طويلة ، أن يستمر

من هنا نعتقد ان أوضاع الوعي الاجتماعي لا تتطـــابق مع الانــواع الاخلاقية والفلسفية والجمالية وسواها من أنواع الوعي ، كما لا تتطابـق مع الايديولوجيا والعلم والسيكولوجية الاجتماعية كعناصر لمحتوى بنيـة الوعي الاجتماعي ان الوعي الاجتماعي يتخذ ، من خلال تأثيره على سلوك الفئات والطبقات الاجتماعية عموما ، أوضاعا تتميز بصفات نوعية وكمية ونحن نعتبر أوضاع الوعي عناصر في البنية الديناميكية للوعي الاجتماعي.

أوضاع بنية الوعي الاجتماعي وسبل معرفتها

تنجم ضرورة تحديد مكان أوضاع الوعي الاجتماعي داخل بنيته من دراسة محتوى مفهوم وضع الوعي ويمل ذلك بالنتائج التالية

● **اولا** ان ترتيب أوضاع الوعي هام لفهم العمليات الواقعية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والتحليل الذي ينصبّ على الاوضاع المشخصة للوعي الاجتماعي سمح لنا بفهم افضل لمجرى الاحداث وسلوك هذه أو تلك من الطبقات وهذا أو ذاك من الاحزاب السياسية الخ ويقدم لنا كلاسيكيو الماركسية ــ اللينينية أمثلة رائعة على مراعاة أوضاع الوعي لدى دراسة ظواهر الحياة الاجتماعية. فقد تابع كارل ماركس مثلا في مؤلفه ١٨ بروميير لويس بونابرت مراحل تطور الثورة الفرنسية من ١٨٤٨ واصفا أوضاع وعي المجتمع ككل من جهة ومختلف الطبقات بفئاتها المتنوعة وبالاخص الطبقة البرجوازية. وهو يرى مثلا ضعف أحزاب النظام البرجوازية وافلاسها في الصراع مع السلطة التنفيذية في أحد أوضاع الوعي وهو الخبل البرلماني (٤) وينسب لينين في أعماله هل سيحافظ البلاشفة على سلطة الدولة و رسالة الى الرفاق وسواها من الاعمال التي كتبت عشية الثورة اهمية كبيرة جدا لموقف ومزاج الطبقات في الصراع الثوري فكتب في الرسالة الى الرفاق ان الوقت قد نضج في روسيا للانتفاضة المسلحة. وتكونت أيضا الشروط الموضوعية والذاتية الضرورية لذلك وقد اعتبر لينين مزاج الجماهير من العوامل الذاتية وتابع تغيراته من نيسان الى تشرين ١٩١٧ وأشار الى انه قد وصل مستوى يمكن معه للانتفاضة المسلحة ان تكون ناجحة (٥)

● **ثانيا** ان دراسة أوضاع الوعي هامة لفهم عمليات انعكاس الواقع في أذهان البشر وترتبط بأوضاع الوعي والى درجة كبيرة الاشكال التي تنعكس بها العلاقات الاجتماعية ومصالح البشر وقد عرّف بليخانوف ذلك بصورة صحيحة، عندما عالج مسألة تطور الحقوق . كتب **بليخانوف** :

« ان المصالح التي تحميها الحقوق ، لا تبعث الى الحياة من خلال وعي البشر ، وبالتالي فان محتوى الحقوق لا يتعين عبر الوعي البشري ، بل يعين عبر وضع الوعي الاجتماعي ، وفي عصر معطى ، ذلك الشكل الذي يأخذه انعكاس المصلحة المعطاة في أذهان البشر بدون مراعاة وضع الوعي الاجتماعي ، لن يكون بوسعنا مطلقا شرح تاريخ الحقوق » (٦)

ويمكن أن نقول نفس الشيء حول الفن والادب والاخلاق وسواها من ظواهر البنية الفوقية الاجتماعية

● **ثالثا** ان العمل الايديولوجي ، الذي يجب على النشاط العملي للبشر أن يحققه على أفضل وجه ، يجب أن يقام على مراعاة الاوضاع المعطية للوعي الاجتماعي وعليه أن يعمل على ابراز أوضاع معينة للوعي ، تلازم النشاط الفعلي للبشر ولكي يخلق المرء وضعا مناسبا للوعي الاجتماعي ، فان عليه أن يعرف قوانين تكوينه ، وخاصة تلك التي تعبر عن الارتباط بين العناصر الايديولوجية والسيكولوجية الاجتماعية للوعي وبين الوعي النظري والوعي اليومي أيضا ومن المعروف ان ثمة أفكارا معينة يمكن أن تجد انتشارا في المجتمع ومع ذلك فانه لا يترتب عليها دوما وضع مناسب للوعي الاجتماعي ان الافكار تعين أوضاعا للوعي وتغدو دليلا للعمل الفعلي ، فقط عندما تشمل أيضا مجال السيكولوجية الاجتماعية ، ويعرفها البشر ، ويعانونها ان وضع الوعي هو ، كما ذكرنا ، موقف فكري ومن مهمات أحزاب الطبقة العاملة أن تخلق مواقف فكرية اجتماعية

● **رابعا:** يرتبط نجاح النضال ضد الايديولوجية البرجوازية من وجوه متعددة ، بالتصور الصحيح لاوضاع الوعي الاجتماعي ومن المعروف ان الايديولوجيين البرجوازيين يطلعون علينا باستمرار بتصورات جديدة » ، دون أن يكون لمعظمها أي تأثير على وضع الوعي الاجتماعي وهي تختفي من مسرح الحياة الايديولوجية بالسرعة التي تظهر بها والحال اننا لا نستطيع أن نقع فعلا على مواضيع الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية ، ونخوض هذا الصراع بأكبر قدر ممكن من الفاعلية ، الا اذا عرفنا حقا أوضاع الوعي في هذين النظامين

● **خامسا :** ان تحديد المكان الذي تحتله أوضاع الوعي يجعلنا نفهم آلية تأثير التكوينات الفكرية على سلوك البشر ، والدور الفاعل للوعي في

حياة المجتمع وأوضاع الوعي هي صلة الوصل بين الوعي كعملية انعكاس للواقع والفعالية العملية للبشر لتغيير هذا الواقع وبالارتباط مـع ما قاله لينين حول الشعور كرابطـة مباشرة بين الوعي والعالم الخارجي نستطيع القول ان أوضاع الوعي هي بدورها روابط مباشرة ، ولكن ليس في عملية انعكاس العالم الخارجي بل في عملية تغييره وبقدر ما تمثل المعرفة وتغيير العالم جوانب لعمل البشر بقدر ما تكون أوضاع الـوعي صـلات وصل بين الوعي والحيـاة الواقعية للبشر أي لممارستهم الاجتماعية ان الوعي الاجتماعي بمروره عبر أوضاع معينة يلعب ، بوصفه قوة فكرية فعالة دورا كيرا في المجتمع

بعض الفلاسفة ينكرون وجود أوضاع للوعي وبالتالي دورها فـي سلوك البشر فينكر كوفالسون مثلا الدور الفعال الذي يلعبه وضعالوعي الجماهيري الذي سميه الرأي الاحتماعي يكتب **كوفالسون :**

« وللاسف ينظر كثير من الفلاسفة والعلماء عندنا الـى الرأي الاجتماعي بصفته وضعا للوعي وقوة فكرية وهم لا يلاحظون التناقضات التي يتورطون بها فلو كانت أوضاع الوعي قادرة حقا عـلى لعب دور قوة واقعية ، لما احتاجت الاخلاق مثلا أن تلجأ الى الرأي الاجتماعي من أجل فرض معاييرها واذا كان الوعي قوة فعلية ، فلماذا اذن لا يفرض الوعي الاخلاقي نفسه بقواه الخاصة ، وهو أمر غير ممكن ، كمـا يبـدو بجـلاء ؟! » (٧)

لماذا يعتبر ذلك غير ممكن أليس وعي وشعـور الضمير البشري قوة فكرية تدفع البشر الى التقيد بالمعايير الاخلاقية ؟ هـذه حقيقة لا يمكن نكرانها وتؤكدها أيضا التجربة الاخلاقيـة للبشر المعممة فـي النظريات الاخلاقية ان من الصعب الوقوع على نظرية اخلاقية لا تعـالج دور الضمير البشري في الحفاظ على المعايير الاخلاقية ومن الطبيعي انه لن يتبع سائر الناس وحتى في الاشتراكية معـايير ضميرهم لذا يجب على المجتمع أن يستخدم الرأي الاجتماعي ليتمكن من تحقيق مطالبه لدى أفراده ولكن بقدر ما ينمو الضمير الواعي للبشر بقدر ما تتضاءل استخدام المجتمع لقوة الرأي الاحتماعي مع العلم بأن هذا يبقى رغم ذلك حافظا للمعايير الاخلاقية

حسب رأي كوفالسون لا يعتبر الرأي الاجتماعي بوصفه وضعـا للوعي قوة اجتماعية فهو لا يتجاوز حدود الوعي ولا يستطيع انيلعب دورا هاما في حياة البشر يقول كوفالسون :

« ليس من الصعب ان نفهم ان الراي الغريب لا يصبح فعـــالا بالنسبة لنا ، ولا يدفعنا لاخذه بعين الاعتبار ، الا اذا اقترن بقوة ما ، بقوة السلطة وسلطة القوة » (٨)

ان كوفالسون على حق في رأيه ، فالبشر يخضعون للراي الاجتماعي لانه يمثل قوة السلطة و سلطة القوة

ويقول كوفالسون

« ان الراي الاجتماعي لا يملك كوضع للوعي مثـــل هذه القوة الفعلية ، بل مظهرها فقط وبما ان أعمال فعلية تترتب في العادة على الراي الاجتماعي ، فانه يتجاوز اطار الوعي ، لانه لا يتضمن فقط تقييما للعمل المعطى من منظور الاخلاق ، بل كذلك روابط واقعية معينـــة تتكون بالتوافق مع هذا الوعي ، وأعمال فعلية معينة تتجلى فيها الرابطـــة مع الانسان الذي قام بعمل الخير او الشر » (٨)

لتفسير الدور الفعال للتكوينات الفكرية ، بما فيها الراي الاجتماعي ، لا يحتاج المرء الى مماثلة ما هو فكري مع العمل الفعلي للبشر مثل هذه المماثلة تؤدي الى ازالة ســـائر الفوارق بين التكوينات الفكرية والممارسة الاجتماعية للبشر بين الذاتي والموضوعي عندما يتشكل محتوى الراي الاجتماعي ايضا من روابط واقعية ونشاط فعلي للبشر فانه ينقطع عـن أن يكون ظاهرة فكرية صحيح ان الروابط الواقعيـــة والسلوك العملي للبشر يوصفان كرأي ولكن الراي اعتبر حتى في العصور القديمة مـن مجالات الوعي

يطرح المفهوم الذي عرضناه سلسلة من الاسئلة هل يستطيع المرء ان يتحدث فعلا عن دور الظواهر الفكرية في حيـــاة المجتمع ؟ واذا كـان يستطيع اين يعبر هذا الدور عن نفسه ؟

نحن نتمسك بزعمنا حول ممارسة الوعي الاجتماعي لتأثير هام على المجتمع من خلال الاوضاع التي يتخذها ونعرف جيدا ان الافكار بذاتهـا ولذاتها لا تحقق اي عمل كان ، بل تحتاج من أجل ذلك للجهود الفعليـــة للبشر وقد غدت أطروحة ماركس حول تحول الافكار الـى قوة مادية ، حين تستحوذ على الجماهير ، مشهورة بما فيه الكفاية ومع ذلك فاننـا لا نريدها أن تفهم حرفيا فالافكار تنتشر وتحرك فئـــات بشرية كبيرة للقيام بأعمال معينة وهذه (الفئات) تمثل ، حيـن تنشط متفرقـة او مجتمعة ، قوة مادية واقعية والفكرة التي تدفع البشر نحو الفعل هـي

أيضا ــ بتعبير مجازي ــ قوة مادية ، لا تفقد أثناء ذلك طبيعتها الفكرية وتتضمن أفعالا وروابط بشرية ان أوضاع الــوعي بما فيهـا الرأي الاجتماعي تشكل الجانب الذاتي للروابط الواقعيــة وللفعالية البشرية اللتان تلعبان دور القوة المحركة

ان فرز أوضاع للوعي الاجتماعي وبشكل خاص اعتبــــار الرأي الاجتماعي وضعا للوعــي ، يهاجمان من مـــواقع أخرى أيضا فيرفض جروشين مثلا أن نكون هنــــاك الى جانب التقسيم التقليدي للوعــي الاحتماعي ــ الى أشكال ومستويات (أصعدة) ــ تقسيم جــديد يضيف أوضاع الوعي فقط من أحل فهم خصائص الرأي الاجتماعي (٩)

ويعتقد جروشين أولا ان دراسة الوعي الاجتماعي وفق أشكاله واصعدته تغطي تماما دوره الفعال في المجتمع ولا تترك مجالا للحديث عن اية أوضاع للوعي غير ان فعالية الوعي لا تعبر عن نفسها الا مـــن خلال أوضاعه ، وخاصة الرأي الاحتماعي وقد سبق أن أشرنا الى ذلك

ويعارض جروشين ثانيا فرز وابراز أوضاع الوعي لانها ليست جوهرا قائما بذاته الى جانب الحواهر الاخرى المتمثلة في أشكال وأصعدة الوعي يقول جروشين ان وضع الوعي هو **محصلة** لســائر الجواهر الاخرى (٩) والمؤلفات التي يستند اليها لا تنظر الى وضع الوعي كجوهر قائم بذاته ان جوهر مسألة أوضاع الوعــي الاجتماعي ينحصر في انــه لا يوجد أوضاع للوعي تقوم الى جانب أنواع الوعي السياسيــة والاخلاقية والجمالية وسواها والى جانب مجالات وأنمـــاط الوعي بل تتجسد سائر هذه التكوينات في أوضاع معينة وتمر بأوضاع معينة

ان سائر العناصر السابقة تسمح بالتحــــدث عن أصعـــدة وانواع ومجالات وأنماط وعن أوضاع معينة للوعي فما هي السبــل الموجودة لمعرفة هذه الاوضاع ؟

تصلح السبل والطرق والاساليب التي وضعتهـا الفلسفة الماركسية حول دراسة محتوى الوعي الاجتماعي وبحث بنيتـــه لدراسة أوضـاع الوعي أيضا لذا فاننا نحتاج فقط للتعرض الى العناصر ذات الاهمية في بحث أوضاع الوعي

لمعرفة اوضاع الوعي تكتسب اهمية بالغة مسألة الطريقة التي نشأت بها والعناصر التي بعثتها الى الحياة وهذه باظهارها أوضاع معينـة

للوعي ، تفسر ، من وجوه عديدة ، تعيين محتـــوى وضع ما ، وزخمه ونفوذه السلبي أو الايجابي الذي يمارسه على البشر الخ

يرتبط وضع ما للوعي ، في السياق النهـــائي ، بالعلاقات الماديــة للمجتمع وتعبر هذه التبعية عن نفسها عبر البنية الاجتماعية والنظـام السياسي ومنظومة التنظيمات الاجتماعية وغيرها من العناصر وعلى المرء أن ينتبه لمجمل تأثير هذه العناصر ، حين يدرس أوضاع الوعي وقد أشار لينين لدى شرح مسألة تكوّن المواقف لدى الجماهير الى « ان الخط الثابت للحزب ، وحزمه الذي لا يلين **هما ايضا عنصر من عناصر الموقف ،** خاصة في الفترات الثورية الحاسمة » (١٠) هنا يؤكد لينين بالحاح على ضرورة التكوين الواعي للامزجـــة الجماهيرية وسلوك الحزب وموقفه نفسه يحددان الى حد كبير ، ومن وجوه كثيرة ، مزاج الجماهير العريضة.

ترتبط الصبغة النوعية لاوضاع الوعي ، في الغالب ، بالعنصر المسيطر ضمن الوعي الاجتماعي ويجب التركيز ، لـــدى دراسة هـــذا التكوين الفكري ، على اكتشاف هذه العناصر المهيمنة على الوعي عندئذ يتمكـن المرء من فهم وتصنيف المحتوى الايديولوجي والسيكولوجي لاوضاع الوعي. وفي العادة ينطلق المرء من الافكار والآراء السياسية والقانونية والاخلاقية والفلسفية وسواها من الافكار المهيمنة داخل الوعي الاجتماعي ، للوصـول الى محتوى أوضاع الوعي وهو يصنفها أيضا كوعي أخـــلاقي ، وروح مواطنة الخ

و روح المواطنة كأحد أوضاع الوعي الاجتماعي ليست ســوى معرفة المواطنين لكونهم جزء من كل واحد (دولة ، امة أو مجتمع) وهي تعبر عن نفسها في أفكار ومشاعر الوطنية والامية ، وبالشعور بالانتمـاء لجماعة معينة الخ وسيطرة هـــذه الافكار والمشاعر فـي الوعي الاجتماعي تطبعه بصبغة معينة ، وتتمتع بأهمية خاصة ، وتتغلغل فـــي الوعي بأسره ، وخاصة في مرحلة حروب التحرير القومي وعصر الثورات هكذا تتحقق في عصرنا حركات التحرر القومي في بلدان كثيرة من آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية تحت راية القومية وقوميـــة الامم المضطهـدة والتابعة توحد الجماهير في النضال ضد الامبريالية ، ومن أجل الاستقلال القومي ، وتبدو « كروح مواطنة » تهيمن على وعي الشعـــوب التي تحرر نفسهـــا

تستطيع النظرات الفلسفية أيضا أن تكسب الوعـي وضعا معينا .

وقد أشار انجلز الى ان الثورات البرجوازية في أوروبا قد سبقتها ثورات فلسفية في مثل هذه العصور حددت قضايا النظرة الى العالم كل الجو الفكري للمجتمع ولا يجوز للمرء أن يربط بالطبع مثل هذا الوضع للوعي الاجتماعي بالعصور السابقة للثورة فقط ففي روسيا مطالع القرن العشرين لم تبرز قضايا النظرة الى العالم قبل ثورة ١٩٠٥ الديمقراطية ـ البرجوازية بل بعد هزيمتها وكان السبب في ذلك كامنا في الشروط التاريخية ـ العيانية لتطور روسيا في تلك المرحلة ان النظرة الى العالم تتسبب بتكون وضع معين للوعي الاجتماعي في هذه المرحلة التاريخية أو تلك

الى جانب النظرات الفلسفية يؤثر العلم أيضا على أوضاع الوعي الاجتماعي وفي الظروف الراهنة ينمو نفوذ العلم على سائر جوانب الحياه الفكرية بصوره مضطردة ويتغير دوره ومكانه في حياة المجتمع ويتحول بصورة متزايدة الى قوة انتاجية مباشرة والى قوة أقتصادية وأخلاقية.. واجتماعية ويغدو العلم قوة اجتماعية لان الوعي الاجتماعي اجمالا يكون قد وصل الى مستوى معين بدأ العلم يهيمن بداخله هذا يحدث أيضا في الوعي الاشتراكي

ويستطيع المرء أن يصنف أوضاع الوعي الاجتماعي ليس فقط وفق الافكار والآراء المهيمنة فيها بل أيضا بحسب آليات عملها وصبغتها الشعورية وتتميز أوضاع الوعي في وظيفتيها بحسب استمراريتها قبل كل شيء فمنها ما يعيش فترة قصيرة كالرأي الاجتماعي في حين تستمر أوضاع أخرى لفتره طويلة مثل الاعراف والتقاليد والمعايير الاجتماعية التي تمثل تركيزا لاوضاع منصرمة قصيرة الاجل وتؤثر على الدوام بالاوضاع الجديدة المشابهة لها وتتميز اوضاع الوعي أيضا بزخم ظهورها وما اذا كانت تمر بمرحلة صعود أم هبوط

وتقوم الصبغة الشعورية التي تميز أوضاع الوعي الاجتماعي أساسا لتقسيم هذه الاوضاع التي هي طابع الحياة الفكرية للمجتمع ان الوعي الاجتماعي يمكن ان يكون مشبعا بالتفاؤل أو التشاؤم أن يخضع لعذاب الضمير أو يشحن بالغضب الخ باختصار ان أوضاع الوعي يمكن ان تتمايز حسب اكثر العناصر اختلافا ولكن اكثرها أهمية هي العناصر المرتبطة بالمحتوى فهي تسمح لنا بتصنيف اوضاع الوعي حسب الافكار السياسية والقانونية والاخلاقية الخ المهيمنة فيها .

لدى بحث أوضاع الوعي الاجتماعي وتنميطها يجب الانطلاق دوما من انها تمثل تكوينات كلية يجب دراسة سيرورتها في سائر مجالات الوعي على سبيل المثال يجب على من يدرس الوضع المتأزم للوعـــي البرجوازي المعاصر أن يدرسه في مجالي الايديولوجيا والوعي الجماهيري وسنحاول فيما يلي عرض صورة لأزمة هذا الوعي البرجوازي

تتجى أزمة الوعي البرجوازي في رفضه للمكتسبات التقدمية للفكر السياسي ـ الاجتماعي الذي وصلت اليه البرجوازية حين كانت لا تزال طبقة ثورية هذا ينطبق أيضا عـــلى الفلسفة حيث تحللت البرجوازية من المفاهيم المادية وتسلحت بالمثالية كما ينطبق أيضا على علم الاجتماع حيث رفضت تلك المفاهيم الاجتماعية المتميـــزة بروح ثورية ـ نقديـــة والمعللة للمثل السياسية ـ الاجتماعية وينطبق على علم الجمال الـــذي شهد افراغا لسائر مفاهيمه الاساسية ورفضا لاتجاهاته الواقعية وتتجسد الازمة أيضا في مجال الاخلاق وفي الاتجاهات المختلفة للتفكير السياسي وسائر مناحي الحياة الفكرية للمجتمع في الحياة الفكريـــة للمجتمع الراسمالي ثمة عملية ناشطة لاعادة تقييم القيم من مواقـــع البرجوازية التي صارت اليـــوم بمطامحها الاقتصادية والسياسية طبقة رجعيـــة

وأدت عملية اعادة تقييم القيم بالضرورة الى ان البرجوازية قد فقدت الافق التاريخي ومثلها الاجتماعية انها تتنكر للتقاليد التقدمية التي خلقتها وتسلب المفاهيم الجمالية والفلسفية والاخلاقية وسواها مـــن مفاهيم الوعي الاجتماعي محتـــواها الموضوعي في مطـــالع الراسمالية وضع ايديولوجيو البرجوازية وعللوا مثلا سياسية ـ اجتماعيـــة تجسدت فـــي المطلب المعروف للحرية والمساواة والاخاء وفـــي الظروف الراهنة لم تعد البرجوازية تستطيع نحات أفكار هامة تستخدمها كسلاح في معركتها حول عقول البشر في عصر صعود الرأسمالية كانت افكـــار البرجوازية مشبعة بوجه الاجمال بالايمان بالتقدم التاريخي وتحمل طابعا تفاؤليا بيد ان ايديولوجيتها مشبعة اليوم بعدم الايمان بالمستقبل وبالامكانات الخلاقة للبشر وهي متشائمة الى أبعد حد

كان حلول التشاؤم محل التفـــاؤل مشروطا في كـــل بلد برجوازي بظروف تطوره التاريخية المشخصة وبالكوارث الاجتماعية التي حلت به

ويكتب جوركو الذي درس وتابع التحول الذي أصاب اميركا من التفاؤل الى التشاؤم ان التفاؤل كان الوضع الاكثر تمييزا لمجتمع الولايات المتحدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وقد وصل الى ذروته في مرحلة الازدهار خلال العشرينات ثم انهار مرة، واحده مع انهيار البورصة في ١٩٢٩ وحولته السنوات الاربع التالية الى درجة لم يعد بالامكان معها التعرف عليه هذه الكارثة التي هزت الولايات المتحدة جابهت التفاؤل القديم بوضع من القلق والخوف وخلقت مزاجا جديدا تماما تجلى في التساؤم (١١) وانعكس الوضع الجديد على أمزجة مختلف الفئات والطبقات وتجلى اثره في الادبيات الفنية والفلسفية والاخلاقية وفي الفن أيضا

احتلت اليوتوبيات الرجعية حول الرأسمالية التي تزيف العلاقات الواقعية مكان الافكار التقدمية الآفلة فيوعي المجتمع البرجوازيالمعاصر. فقدمت الرأسمالية كنظام اجتماعي تحققت فيه الحرية الشخصية الكاملة، وستختفي منه الفوارق الطبقية وصارت الرأسمالية تعرض كمجتمع تعمل الدولة فيه لصالح الشعب فقط بعد انقطاعها عن أن تكون النظام التقليدي للاستغلال والاضطهاد لقد صارت رأسمالية شعبية الى جانب هذه الطوباويات حول الرأسمالية ثمة في المجتمع البرجوازي تصورات زائفة حول الاشتراكية كمجتمع مغلق ويزعم انه لا توجد في الاشتراكية الحريات الديمقراطية الاساسية بل سيطرة شاملة الدولة وتنصب هذه الطوباويات الرجعية على تحييد النفوذ الذي تمارسه افكار الاشتراكية على الجماهير وتجميل الرأسمالية واصطياد الشعب بأفكار وصور الوعي البرجوازي

تبذل الدعاية البرجوازية جهودا كبيره لنشر طوباوياتها الرجعية في اوساط الشعب بيد ان هذه الطوباويات لن تمكن الرأسمالية من تجاوز الوضع المتأزم لوعيها البرجوازي وفي البلدان الرأسمالية هناك شعور قوي بنقص الافكار العظيمة البناءة والنظرة الشاملة الى العالم ، والمثل الاجتماعية التي تمكن الطبقة البرجوازية السائدة من السيطرة على المجتمع، وكسب تأييد الجماهير

في مثل هذه الظروف يلجأ الايديولوجيون البرجوازيون الى التقاط مبادىء غريبة عنهم فينسبونها لانفسهم كما فعلوا بشعار المجتمع

العظيم ومن جهة أخرى يحـــاول ايديولوجيو البرجوازية لتغطية عجزهم في المعركة التي يخوضونها حول عقول البشر الحط من قـــدر الفهم والذكاء ويركزون اطراءهم على الفريزة و الرغبة والايمـــان الاعمى وتنتشر في الوعي البرجوازي نزعة اللاعقلانية والعداء للثقافة التي تنكر الدور الايجابي للافكار التقدمية والعلم في تاريخ الانسانية ان نشر مثل هذه الافكار هو برهان قاطع على الانحطاط الذي وصل اليه الوعي البرجوازي في عصر يجنّح العلم فيه خيال البشر ويدلل على الطاقـــة الخلاقة للعقل البشري

احمالا ان وضع الوعي البرحوازي الراهن لا يمكن ان يفهم الا في المحال الايديولوجي ويظهر وضع هـــذا المحال وبصورة مشخصة ، الوضع في السياسة والقانون والفن الخ هكذا تعتبر اللااخلاقيـة السمة المميزة للاخلاق البرحوازية وتتم مراعاة المعايير السلوكية المعترف بها عموما في الكلمات في حين يداس عليها بالافعال في الحياة الواقعية، وتفقد المفاهيم الاخلاقية الاساسية كالواجب والشرف والضمير معانيها وتنكر المقاييس الموضوعية لتقييم سلوك البشر الخ هـذا الوضع الذي يميز الوعي الاخلاقي يعبر عن نفسه في انتشار الجريمة والنفاق والقسوة في المجتمع البرجوازي ومن البدهي ان وضع الاخلاق الفعلية يعكس النظرية الاخلاقية البرحوازية التي لم تعـــد مدارسها المتنوعـة تختلف حول المعايير التي ترشد الانسان في خياراته الاخلاقية بل حول وجود مثل هذه المعايير في مجالالاخلاق ويقف نظريو أخلاق برجوازيون كثيرون موقفا عدميا من مسائل جوهر الاخـــلاق والطبيعة التاريخيـة لمعاييره والمسؤولية الاخلاقية وسواها من المسائل الرئيسية لنظريـــة الاخلاق انهم يعتبرون هذه القضايا نوعا مـــــن الميتافيزيك الذي لا يستحق الاهتمام

من الدلائل على الوضع المتأزم للوعي البرجوازي في مجالالسيكولوجيا الاجتماعية ذلك الشعور بالخوف والوحدة والقلق وتنبعث هذه المشاعر بفعل القوى العفوية للرأسمالية وسياستها وقد صار الخوف هو العامل الذي يحدد بصورة عامة سيكولوجية فئات احتماعية كبيرة ويدعي ايديولوجيو البرجوازية ان هذا الوضع هو السببالرئيسي للتوتر الدولي. فليست سياسة القوة للدول الامبريالية مسؤولة عـن الخوف فـي رايهم بل يكمن جذر هذه السياسه في السيكولوجيا الاجتماعية لشعوب

البلدان الرأسمالية يقول ليناربرجر أحد اخصائيي اميركا في الحرب النفسية ان مصاعب الحياة الحديثة تجلب القلق والخوف للفرد وهذان يتحولان الى فزع لا يلبث ان يصبح حقدا يتخذ بدوره اشكالا سياسية. والحقد السياسي يساعد فينشوء الاخطار الفعلية» (١٢)

ان تلاعب العالم الرأسمالي بالخوف وسواه من العواطف البشرية قد وصل الى حد وضع نظريات تبرر التوتر الدولي به من جهة وتعتبره عاملا في حفظ السلام من جهة أخرى ومثال مفهوم توازن الرعب معروف جدا وهو يقوم على ان تخزين الاسلحة النووية سيكون عامل اعتدال حين يتوازن الرعب في الشرق والغرب

ويتشكل في مجال السيكولوجيا الاجتماعية وضع يتطابق مع هذا الوضع السائد في الايديولوجيا فالعوده عن أفكار التقدم الاجتماعي قد ادت الى اشباع الوعي الجماهيري أيضا باليأس من المستقبل بكلمات أخرى ان البرجوازية الراهنة تحط في نظرياتها من قيمة العقل فتنتشر في الوعي الجماهيري النزعة اللاعقلانية والاتجاهات الصوفية والشعور بالوحدة والقلق المستديم ان وضع الوعي البرجوازي في المجال الايديولوجي ووضعه في مجال السيكولوجيا الاجتماعية يشكلان كلا لا ينفصل

يمثل شعور الخوف الذي وصفناه سمة أساسية للوعي البرجوازي المعاصر وقد نتج عن ان الطبقة البرجوازية نفسها مرشحة للاندثار ولكنه يمسك أيضا بفئات معينة من طبقات اخرى نتيجة لتداخل انواع الوعي المختلفة وهذا امر يمكن ملاحظته في أوضاع أخرى للوعي ولهذا يجب لدى دراسة مسألة كلية أوضاع الوعي الاجتماعي مراعاة التقيد الكامل للروابط المتبادلة في وعي الطبقات المختلفة

ويسمح الوعي التاريخي ـ العياني بتحليل تطور وعي المجتمع الاشتراكي وأوضاعه المختلفة وهي تعبير عن الوجود الاجتماعي يتجسد في افكار ونظريات ومشاعر وامزجة وسواها من التكوينات الفكرية التي تصنعها طبقات وفئات اجتماعية كاملة

ويتغير وعي المجتمع الاشتراكي شأنه في ذلك شأن وعي المجتمع البرجوازي بتغير المجتمع نفسه خلال تطوره سلسلة من المراحل .

وتعتبر الصفة النوعية لكل مرحلة وضعا نوعيا معينا للوعي وبالطبع يجتاز الوعي في كل مرحلة من تطوره أوضاعا كثيره مختلفة وفي هذا التنوع تبرز أكثر الاوضاع استمرارية والتي تسمح بتمييز مرحلة سواها وفهم الدور الفعال للوعي في حياة المجتمع بصورة اكثر عمقا

في المرحلة الانتقاليـــــة بين الرأسمالية والاشتراكية تهيمن الافكار السياسية داخل الوعي الاجتماعي ويعود ذلك الى ان بناء الاشتراكيـه يتطلب وعيا سياسيا رفيعا لدى الجماهير الشعبية ان الكادحين يأخذون. ولاول مرة في تاريخ المجتمعات الطبقية زمام الدولة بأيديهم ويبرزون كمنظمين للعمل الاجتماعي فيحققون الوظائف التي كانت الطبقات المستغله تمارسها في السابق والواقع ان الجماهير الكادحة ما كانت تملك فـي بدء التجربة لا المهارات ولا الخبرة الضرورية لحل هـذه المهمات فمـن المعروف ان الطبقات المستغلة حاولت خلال آلاف السنين حقن الشغيلـه بفكرة ان القيادة هي أمر من اختصاص الصفـــوة المختاره وقد تطلب الشروع في بناء المجتمع الجديد رفع سوية الوعي السياسي لدى الجماهير

ويعبر لينين عن هذه الحاجة في الكلمات التاليــة ان الجماهير الكادحة تأخذ خلال الثورة زمام السياسة أي عمليـة بناء المجتمع الجديد بأيديها (١٣) وقد أدى اشباع هذه الحاجة الى ان الافكـار السياسية التي تشكل ماهية الدولة الجديدة وسياستها الاقتصادية وتحالف عمالها مع فلاحيها وروابطها القومية تلعب الدور القائد فــي وعي المجتمع

ولا يحول الوضع المهيمن للوعي السياسي دون وجود أفكار ونظريات أخرى بيد ان هذه وهي تعبر أيضا عن الوجود الاجتماعي تمر أيضا والى حد ما بموشور الوعي السياسي وهذا ما يمنح الوعي الاجتماعي صفته النوعية المميزة

الى جانب الاوضاع المستمرة الموجودة في سائر مراحل تطور الوعي الاشتراكي هناك أيضا أوضاع قصيرة الحياة على سبيل المثال صبغت عبادة الفرد الى درجة ما وبقدر معين وضع الوعي الاجتماعي ومـع التغلب عليها حدثت عملية اعادة تقييم لبعض ظواهر الواقع في الوعـي الاجتماعي وتحرر وعي البشر شيئا فشيئا من ترسبات زمن عبادة الفرد. وتغير وضعه

هذا الوصف الموجز لاوضاع الوعي الاجتماعي في المجتمع البرجوازي

والاشتراكي دلل على تنوعه وتعقيده وعلى فروقه النوعية قبل كل شيء وكما اتضح لنا فان أوضاع الوعي تتعين قبل كل شيء وفق الافكار والآراء المهيمنة لطبقة ما أو للمجتمع بأسره

وتعبر أوضاع الوعي عن نفسها دوما في سلوك ونشاط البشر وعلى كل حال فان الوضع وتعبيره الخارجي ليسا دوما متطابقين ومن الممكن مثلا أن تتأخر التعبيرات عن وضع ما للوعي تحدث لينين في حالات كهذه ـ وبخصوص الامزجة والاجواء ـ عن جواء مرتقبة ويمكن لاوضاع الوعي أيضا أن تعبر عن نفسها بصورة ناقصة في سلوك البشر هذا الاختلال في التطابق بين محتوى أوضاع الوعي والتعبير الذي يتخذه في سلوك البشر يجب أن يؤخذ بالاعتبار عندما نحلل هذا أو ذاك من التكوينات الفكرية

وتشكل أوضاع وعي الطبقات وسواها من الهيئات الاجتماعية صلة الوصل بين الوعي كعملية انعكاس للواقع وبين النشاط الواقعي الذي يستهدف تغيير هذا الواقع وبهذا المعنى تشكل أوضاع الوعي البنية النوعية الدينامية للوعي الاجتماعي

مراجع الفصل الخامس

- بليخانوف حول المفهوم المادي للتاريخ برلين ١٩٤٦ ، ص ١٨
- انجلز حرب الفلاحين الالمانية المؤلفات ، الجزء ٧ ، برلين ١٩٦٠ ، ص ٣٤٣

٣ - ماركس - انجلز الايديولوجية الالمانية ص ٤٦

ماركس ١٨ برومير ص ١٧٣

٥ - لينين رسالة الى الرفاق ، الاعمال ، جزء ٢٦ ، برلين ١٩٦١ ، ص ١٩٧ وما يليها

بليخانوف حول المفهوم المادي للتاريخ ص ٣٢

٧ - كوفالسون النظرة الى العالم والاخلاق ص ٢٦

٨ - نفس المرجع

٩ - جروشه الاسس الرئيسية لتطور الادراك الاجتماعي ص ١٦٣

- لينين رسالة الى الرفاق ص ١٩٦

جوركو أزمة الاخلاق الاميركية موسكو ١٩٥٨ ، ص ٢٧٦

- لينابرجر معارك دون فعلى فرانكفورت على الماين ١٩٦٠ ، ص ٣٠٦
- لينين يوم المرأة العالمي المؤلفات ، الجزء ٣٢ ، برلين ١٩٦١ ، ص ١٥٩

الفصل السادس

الروابط المتبادلة للوعي الاجتماعي

تشترط معرفة بنية الوعي الاجتماعي الى جانب شرح العناصر المكونة له وتحليل روابطها المتبادلة دراسة قوانين تطوره أي بنيته الاجمالية في الادبيات الفلسفية عولجت بصورة مفصلة قضايا الدور المعين للوجود الاجتماعي بالقياس الى الوعي الاجتماعي ومسائل الاستقلالية النسبية للايديولوجيا واستمرارية تطور الظواهر الفكرية.
وسواها من القضايا وفي نفس الوقت ليس هناك من وضوح منهجي بخصوص مسألة تصنيف الارتباطات المختلفة للوعي الاجتماعي وروابطها المتبادلة. وهذا عائق لا يستهان به لدى الحصول على صورة متماسكة لبنية الوعي الاجتماعي فضلا عن ذلك يؤثر النقص في تأسيس مبدأ التصنيف المنهجي لهذه الارتباطات على فهم الاشكالية العامة للوعي الاجتماعي ان مفاهيم القانون و النسق القانوني لا تستخدم بدقة كافية عند تطبيقها على الظواهر الفكرية ولهذا يعتبر كل واحد من الارتباطات القائمة. وبصورة دائمة تقريبا معبرا النسق القانوني لتطور الوعي الاجتماعي

يملك الوعي الاجتماعي ارتباطات وروابط متنوعة وعلى المرء ان يتعامل مع هذه الارتباطات المختلفة بحثا وتحليلا وفي رأينا ان هناك حاجة لتأسيس مبدأ التصنيف المنهجي لمختلف أنواع الارتباطات وروابطها المتبادلة اذا كنا نريد حقا دراسة الوعي الاجتماعي

١ ـ الارتباطات القانونية للوعي والوجود الاجتماعيين

توصف القانونيه القائله بأولويه دور الوجود حيال الوعي الاجتماعي وبالاستقلال النسبي للايديولوجيا وباستمرارية تطور الافكار على انها قوانين سوسيولوجية عامة لتطور الوعي الاجتماعي ويبدو لنا ان تطبيق هذا المصطلح على القانونية المذكورة ليس كافيا لسببين اولا لان صفة السوسيولوجي العام تطلق على تلك القوانين التي تنطبق على تطور المجتمع بوصفه عضوية اجتماعية كاملة وليس على جوانب متفرعة منه ومع ذلك فان قوانين تطور الوعي الاجتماعي توصف هنا كقوانين سوسيولوجية عامة ثانيا ليس هذا المصطلح مناسبا لانه يحمل قوانين من انواع مختلفة فهناك حقا قوانين لتطور الوعي الاجتماعي والوجود الاجتماعي كذلك مثل قانون اولوية الوجود الاجتماعي ودوره المعين بالقياس الى الوعي الاجتماعي وهذا النوع من القوانين يصعب اعتباره قوانين تطور للوعي الاجتماعي

ثمة محاولات في الادبيات السوسيولوجية تنصب على ايضاح مسألة تصنيف قوانين الوعي الاجتماعي من خلال تقسيم القوانين السوسيولوجية العامة لتطور الوعي الاجتماعي الى نوعين وتعتبر من النوع الاول تلك القوانين التي تنظم (تحكم) تطور الوعي ، ومن النوع الثاني قوانين التطور النوعية المميزة لتطور الوعي الاجتماعي بوصفه ظاهرة فكرية هذا التقسيم يسمح لنا بالتمييز بين قوانين نوعية مميزة لتطور الوعي بوصفه ظاهرة فكرية وبين القوانين التي تتحكم بتطور الوعي وعلى كل حال فانه لا يوضح بصورة كافية تصنيف القوانين ، لان مصطلح القوانين النوعية المميزة » يستخدم هنا بمعنى مختلف عما هو شائع فمن المعروف ان صفة « نوعي مميز تطلق على تلك القوانين الخاصة بأنماط متفرقة للوعي الاجتماعي وقد استخدم شيرشونوف هذا المفهوم لوصف الارتباطات الجوهرية التي يملكها الوعي كظاهرة فكرية تمييزا لها عن تلك القوانين التي تعبر عن الارتباطات الجوهرية بين الوجود والوعي

الاجتماعيين وهو يدرس الوعي الاجتماعي وقوانينه على صعيد معرفي ويصل من ذلك الى استنتاج مجرد يقول ان هذه الظاهرة يمكن أن تحلـل على الاصعدة الاخرى أيضا ولهذا فهو يعطي لمصطلح القوانين النوعية المميزة لتطور الوعي معنى مختلفا وينظر اليهـا كقوانين تطور للوعي ذاته ان استخدام المفهوم بهذا المعنى المختلف لا يخدم العلم بل يصعب الاحاطة بالمشكلة المطروحة

يحتاج استخدام مصطلح القوانين النوعيـة المميزة بخصوص الارتباطات الجوهرية الخاصة بالوعي كظاهره فكرية الـى التحديد عندما يكتب شيرشوبوف ان بعض القوانين تحكم تطور الوعي اي انهـا ارتباطات خارجية بالقياس الى الوعي الاجتماعي فهذا يعني ان القوانين الاخرى التي تصلح فقط لتطور الوعي ليست قوانين نوعية مميزة بل ارتباطات داخلية فحسب

ويحتاج وصف القوانين التي تعبر عن الارتباط المتبادل بين الوجود والوعي الاجتماعيين الى التحديد أيضا فليس بوسع المرء أن يعتبرها قوانين تحكم تطور الوعي الاجتماعي كما يقترح شيرشوبوف انها لا تحكم فقط تطور الوعي بل هي تعبر أيضا عن جوانب جوهرية لهذا الوعي نفسه ان الوعي الاجتماعي يعكس الوجود الاجتماعي ويكسب من خـلال ذلك بالضبط محتواه ويحدد تغير الوجـود الاجتماعي وتطوره فـي المحصلة النهائية تطور وتغير الوعي الاجتماعي هذه التبعية بين الوجود والوعي الاجتماعيين هي شيء اكثر من مجرد احكام للوعي بواسطـة الوجـود

وحين نصف الروابط المتبـادلة القائمة بين الـوعي والوجـود الاجتماعيين كقوانين سوسيولوجية عامة لتطور الوعي الاجتماعي فاننا نتهم عن حق بعدم الدقة ، لان هذه القوانين تميز تطـور الوعي والوجود أيضا ومن المعلوم ان الوجود لا يحدد الوعي فحسب ، بل ان هذا ينعكس بدوره عليه ان الوجود يتطور أيضا تحت نفوذ الوعي الاجتماعي

يجب علينا ان نميز بدقة اكبر الروابط المتبادلة بين الوجود والوعي الاجتماعيين بحسب المجال الذي يظهران به فمنها ما يظهر في سائر التشكيلات الاجتماعية في حين يقتصر ظهور بعضها على تشكيلة واحدة فقط لذا فان النوع الاول من الروابط ذو صفـة عامة ، والثانـي ذو صفـة خاصـة .

ومن الضروري قبل كل شيء لدى تحليل بنية الوعي الاجتماعي ابراز الروابط ذات النسق القانوني بين الوجود والوعي الاجتماعيين هذا هام لان الوعي يملك كما هو معروف تاريخا قائمـــا بذاته ويتعين محتواه بواسطة الوجود الاجتماعي هذه هي المسألة المركزية في اطروحه ماركس وانجلز حول الدور المهيمن للوجـــود الاجتماعي حيـــال الوعي ويحلل سيرشوبوف بالاسناد الى أطروحـــة ماركس وانجلز أسس تبعية الوعي للوجود الاجتماعي ويؤكد ان هـــذا القانون يتصف بضرورة تحتم على البشر أن يفكروا بهذه الطريقة وليس بتلك وان درجة عمق الانعكاس يرتبط بنضج العـــلاقات الاجتماعية والوجود الاجتماعي للبشر ان وعي البشر هو نتيجه لتأثير هذا القانون وجودهم الذي صار وعيه

يعبر قانون الدور المهيمن للوجود الاجتماعي حيال الوعي عن رابطة الوجود بالوعي فقط في حين تتم الاحاطة بالرابطة المتبادلة بين الوعـي والوجود عبر قانون التاثير العكسي للوعي على الوجود الاجتماعي ويبدو لنا ان هذين القانونين يجب ان يصاغا في قانون واحد لانه مـن الصعب تحليلهما كقانونين مستقلين

الى جانب القانون السابق هـــناك قانون الاستقلالية النسبيـــه للايديولوجيا فما هو محتوى هـــذا القانون عندما نلقي نظرة عـــلى الادبيات التي تدرسه سيتضح لنا انه يشمل سائر الروابط القائمة بيـــن الوجود والوعي الاجتماعيين وروابط داخلية كثيرة للوعي الاجتماعي مثل استمرارية تطور الافكار أو الروابط المتبادلة لانواع الوعي يقول ستيبانيان

« ان مفهوم الاستقلالية النسبية للوعي يعبر قبل كل شيء عـــن تبعية الحيـــــاة الفكرية للبشر لحياتهم المادية » (٢) « ويعبر المفهوم أيضا عن خصوصية تطور وتكون الاشكال الايديولوجية بالقياس الـــى تطور وتكون الظروف الاقتصادية للمجتمع » (٢)

ويحلل المؤلف هذه الخصوصية ، ويلفت الاهتمام الى التأثير المتبادل لاشكال الايديولوجية واستمرارية الارتباط في تطور هذه الاشكال وبقاء وعي البشر خلف وجـودهم الاجتماعي وقدره الوعي الاجتماعي عـلى استباق مجرى تطور الواقع ثم يضيف

« ان مفهوم « الاستقلالية النسبية للايديولوجية يعكس في الختام قدرة الوعي الاجتماعي على التأثير العكسي على الوجود الاجتماعي ، وعلى تطور الحياة المادية للمجتمع وسير العمليه التاريخية » (٢)

هنا يطرح نفسه السؤال التالي اذا كان التأثير العكسي للوعي على الحياة الماديه للمجتمع والارتباط المستمر في تطور اشكال الايديولوجيا وتخلف وعي البشر عن الوجود الاجتماعي وسواها تعبيرات عن الاستقلاليه النسبيه للايديولوجيا وقوانين لتطورها ألا تصبح الاستقلاليه النسبية للايديولوجيا قانونا خاصا الى جانب القوانين المذكوره

في رأينا الاستقلاليه النسبيه للايديولوجيا ليست قانونا على الاقل حين نطلق مفهوم القانون بدقة بل هي تعبر عن خصائص الظاهرات الفكرية فيما يخص نشوءها وتغيرها وطراز عملها

عندما عارض كلاسيكيا الماركسيه نظراتهم حول اتجاه الفكر المجتمع نظرات المثالية فانما عللا الفكر التي تقول بأولوية الوجود الاجتماعي على الوعي الاجتماعي وتشتقه بالتالي منه أي انهما برزا امتلاك الوعي الاجتماعي لاستقلالية نسبيه وغير كاملة حيال الوجود الاجتماعي وفي نفس الوقت اكدا ـ في مواجهة تناول مادي سوقي لمسأله العلاقة المتبادله بين الوجود والوعي الاجتماعيين ـ فكرة الاستقلالية النسبيه للظواهر الفكريه وقد الحا على ان الوعي ينبع فعلا الوجود الاجتماعي غير انه يتطور ويتغير بقوانينه الداخلية واكدا على الدور الفعال الذي تلعبه بالتالي التكوينات الفكرية في حياة البشر ان الكشف عن استقلالية الايديولوجية النسبيه يعني ايضاح خصائص هذه الظاهره بما في ذلك قوانين تطورها الداخلي ومن غير المبرر اعتبار الاستقلالية النسبيه للإيديولوجية قانونا لتطور الوعي الاجتماعي

تتطلب الاستقلالية النسبيه الخاصه بالوعي الاجتماعي كشف الروابط القانونيه القائمة بين الوجود والوعي الاجتماعيين أي تلك القوانين التي تسمح لنا بصياغة **مفاهيم** حول نشوء الوعي والتأثير المتبادل بين الوجود والوعي ونتائجه المتجلية في تطورهما والامر الرئيسي في هذا السياق هو **اكتشاف قوانين تطابق الوجود والوعي الاجتماعيين** . هذه القوانين

لا تذكر في العادة لانها تطمس بالقانون العام الذي يقول بالاستقلالية النسبية للايديولوجيا بيد انها توجد في الواقع العملي ويعود طموح الوعي نحو التواؤم مع الوجود الاجتماعي الى فعلها

ويرتبط فعل قانون التطابق بين الوعي والوجود الاجتماعيين بفعل تلك الاتجاهات من مثل تخلف وعي البشر وراء وجودهم تفاوت تطور هذا الجانب أو ذاك من جوانب الوعي و السبق الذي يحرزه الوعي النظري المتقدم حيال سير تطور الواقع

في سائر التشكيلات الاجتماعية ما قبل الاشتراكية كان وعي البشر لا يعبر تماما عن وجودهم بل كان يحتوي دائما على كمية من الاوهام والاخطاء ذلك كان يعود الى ان وعي الطبقة السائدة كان يفرض على المجتمع بأسره مثل هذا الوعي الذي ظهر كوعي للمجتمع اجمالا لم نكن قادرا على تمثيل الروابط الواقعية بين البشر بصورة صحيحة وبقي بهذا المعنى وراء الوجود الاجتماعي

لقد عزز الطبقات السائدة اذن تخلف الوعي عن الوجود الاجتماعي. بان حال دون الوصول الى معرفة حقيقية للعلاقات الاجتماعية الواقعية. وفي ظروف التشكيلات الاجتماعية السابقة للاشتراكية لا يتطابق الوعي باي حال مع العلاقات المادية وقد أضفى ممثلو مصالح المجتمعالبرجوازي مسحة من المثالية على هذا النظام الجديد في فترة نشوئه وازدهاره

ويبدو تخلف الوعي عن الوجود الاجتماعي في وعي بعض أفراد المجتمع الاشتراكي ممن لا زالوا يحتفظون بتصورات وآراء تميز المجتمع القديم وفي الواقع فان الوعي الموروث عن الماضي لا يتوافق مع العلاقات الاجتماعية التي تشكلت في الاشتراكية

تضع الثوره الاشتراكية الاساس لتكون الوجود الاجتماعي الجديد وبعكس سائر انماط الانتاج السابقة فان الانتاجالاشتراكي لا ينشأ عفويا، بل هو يتطلب النشاط الواعي للبشر واقامة علاقات انتاج تتوافق مع حاجات القوانين الاجتماعية الموضوعية ان اقامة الوجود الاجتماعي الجديد يعني بنفس الوقت تكوّن وعي اشتراكي لدى البشر

وتشكل مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية مرحلة تكوّن الوجود والوعي الاجتماعي الجديدين ووجهة تطابقهما الضروري أيضا ؛

الذي يملك وجهين فمن جهة تتحقق أفكار الاشتراكية العلمية في الوجود الواقعي للمجتمع اي ان العلاقات الاجتماعيه تتكون تحت تأثير سياسة معللة علميا ومن جهة أخرى تتحدد التصورات النظريه حول الاشتراكيه على اساس البناء الفعلي للمجتمع الجديد فيغني انتصار الاشتراكية في الاقتصاد والحياة السياسيه والاجتماعيه انتشارهـا يضا في الحياة الفكرية وحلق التوافق الضروري بين الوجــود الاجتماعي الاشتراكي والوعي الاشتراكي

تتطلب مسألة طبيعه ودرجه التواؤم بين الوجود والوعي الاجتماعيين لهـذه او تلك من مراحل تطور المجتمع الاشتراكي دراسة عيانيه وتدل الابحاث على ان هذا التواؤم لا يكون تاما في كل الاحوال ومن المعــروف مثلا ان بعض العلماء كانوا ينكرون وجود الانتـــاج السلعي وتأثير قانون القيمة مع انهما موجودان في الواقع العملي كما كانت نظرية انعدام الصراعات منتشرة في الادب والفن مع ان الواقع كان غنيا بالتناقضات. هذا يدل على ان ثمة حالات تنتشر فيها تصورات كثيرة حول اشتراكية من صنع الفكر وليست من فعل الواقع هنا كان التوافق بين الوجــود والوعي الاجتماعيين مختلا

وفي رأينا انه توجد حالات لا يتخلف فيها وعي القسم المتقدم مـــن المجتمع عن الوجود الاجتماعي بل تتخلف فيها العلاقات الواقعية فـــي الانتاج وسواه من مجالات الحياة عن مستوى متقدم للوعي من الممكــن اذن ان يحدث في الاشتراكيه أيضا تخلف الوعي الوجود والعلاقات الاجتماعية عن الوعي الجماهيري ان بناء الاشتراكية هو عملية معقـــده تستهدف اعادة صياغة العلاقات الاجتماعيه ووعـــي والروابط المتبادلة بين الوجود والوعي الاجتماعيين هي بالضرورة معقدة ومتناقضه. ويؤدي اضفاء طابع مثالي على التواؤم بينهما الى احتقار اهمية الدور الذي يلعبه العمل الايديولوجي والتنظيمي بين الجماهير

تطرح قضية تخلف الوعي الاجتماعي عن الوجود الاجتماعي عادة بالارتباط مع تحليل اسباب استمرارية مخلفات الماضـــي في وعي بعض أفراد المجتمع الاشتراكي وينطلق الباحثون الذين يدرسون آثار الماضي من ان الوجود الاجتماعي ذو طبيعة اشتراكية بينما لا تزال توجد فـــي وعي البشر تصورات وآراء سابقـــة للاشتراكية . ويستنتجون عادة ان

بقاء هذه المخلفات هو تعبير عـــن تخلف الوعي وراء الوجود الاجتماعــي الاشتراكي وان السبيل الوحيد للخلاص منها هو طريقالتنوير والتربية.

والحـــال ان تصورات وآراء البشر لا تستمر بفعل النزعة المحافظـة للتقاليد والعادات بل هي تملك أساسا في مجال الاقتصاد وفي نمط الحياة اللذين تتركهما الرأسمالية للاشتراكية ويجب على عملية التغلب على مخلفات الماضي في وعي البشر بواسطة العمل التربوي الكثيف ، أن تقترن أيضا بازالة مخلفات العلاقات الاجتماعية القديمة

ويتضح مما قلناه حول الخصائص التي يظهر تخلف الوعي عنالوجود الاجتماعي في ظلها أن الاتجاه نحو تخلف الوعي السائد في التشكيلات الاجتماعية قبل الاشتراكية ليس مهيمنا في النظـــام الاشتراكي ان التوافق بين الوجود والوعي الاجتماعيين هو هنا وبالمقارنة مع التشكيلات الاجتماعية السابقة ذو طبيعة مستقرة

في سائر التشكيلات الاجتماعية السابقة للاشتراكية يمكن ملاحظة تطور غير متسق لجوانب الوعي الاجتماعي المختلفة ويتحدد تأثير هـذا الاتجاه بالارتباط غير المتساوي للعناصر التي تكوّن الوعي الاجتماعــي مع الوجود الاجتماعي وتوجد بعض هذه العنـــاصر في ارتباط مباشر مع الوجود الاجتماعي وهي تعكسه بالتالي ، فيحين تتعين العناصر الاخرى، وفي السياق النهائي فقط بالوجود الاجتماعي

هكذا يمثل الوعي السياسي ـ والسياسة اجمـالا ـ التعبير الاكثر تركيزا عن الاقتصاد ومن الجلي ان هذا النوع من الوعي يعكس بسرعـة كبيرة التبدلات التي تصيب الوجود الاجتماعي ويبدأ النهوض الجـذري في وعي البشر الذين يعيشون في مجتمع طبقي دومـا بتغيرات في وعيهم السيـاسي

تمتاز سائر أنماط الوعي الاجتماعي بتفاوت تطـورها ويشمل ذلك الوعي الاشتراكي أيضا الى جانب الاسس المعرفية توجد أيضـا اسس اجتماعية منها التفـــاوت في عملية نضج انواع معينـــة من العلاقات الاجتماعية التي ترتبط بها أنواع مطابقة من الوعي وتؤكد مقارنة الاخلاق والحقوق في مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هذه التبعيـة بصورة مقنعة . ففي مرحلة الانتقال تترسخ علاقات الانتاج الجديدة قبـل

كل شيء بواسطة القوانين بعد ذلك تتكون المعايير الاخلاقية المطلوبة بقدر ما يزداد النضج الفكري والاقتصادي المجتمع الجديد ومع انتصار الاشتراكية تتبدل العلاقة المتبادلة بين الحقوق والاخلاق فيبقى الاتجاه المذكور لتخلف الاخلاق عن الحقوق بيد انه يظهر اتجاه جديد يتجلى في ان الحقوق نفسها تبدأ في التخلف جزئيا عن مواكبة التغير الذي يصيب العلاقات الاجتماعية ، كما تتخلف عن المعايير الاخلاقية التي تأخذ بالتأصل. والتي تطرح متطلبات أعلى من المتطلبات الحقوقية على سلوك الافراد

ويرتبط التفاوت في تطور الوعي الاجتماعي بالشروط الذاتية أيضا. فيؤدي اهمال هذا الجانب أو ذاك من الحياة الاجتماعية في العمل الايديولوجي والتنظيمي الى تخلف الوعي في التعبير عنها وانقطاعه بالتالي عن التطابق مع مستوى التطور الذي بلغته العلاقات الاجتماعية

ويعبر التفاوت في تطور الوعي عن نفسه في امتلاك الفئات المختلفة. المتفاوت لمكتسبات الوعي الاجتماعي فمن المعروف ان الافكار تفهم غالبا بصورة متفاوتة من قبل البشر والفئات الاجتماعية المختلفة تملك عادات وتقاليد نوعية مميز الى جانب العادات والتقاليد المشتركة الشعب بأسره وهذا أمر منطقي فالطبقات والفئات الاجتماعية تتشكل تاريخيا والفروق القائمة بينها في مجال الوعي كما في سواه لا يمكن تختفي بضربة واحدة من المهم اذن دراسة هذه الفروق ومراعاتها في عملية التربية

هذا التفاوت في تطور الوعي يرتبط في الاشتراكية بعوامل ذاتية اكثر مما يرتبط بعوامل موضوعية ولا شك ان معرفة العناصر الموضوعية والذاتية التي تتسبب بهذا التفاوت تمكننا من تجاوزه بواسطة العمل التنظيمي والايديولوجي الخ

ويملك استباق الوعي للوجود الاجتماعي خصائصه المميز في الاشتراكية أيضا في السابق كان الوعي النظري للطبقات التقدمية فقط قادرا على التجاوز الفكري للنظام الاجتماعي القائم وبمقدار ما كانت مصالح هذه الطبقات تتناقض مع المصالح الاجتماعية أي مع الضرورات الموضوعية بقدر ما كانت عملية الاستباق تفقد تأثيرها وتنقطع مثل هذا العائق سقط في الاشتراكية لان المصالح الطبقية الاشتراكية تتطابق مع المصالح الاجتماعية وتعبر خاصية الاستباق عن نفسها في

ظروف الاشتراكية من خــلال الفنى والعمق اللذين تكتسبهما ، فتحتــل الايديولوجية العلميـــة والعلم المكان الرئيسي ضمــن الوعي الاجتماعي ويصبح الاستباق الفكري للتطور الاجتماعي ممكنا ، وتصاغ فعالية البشر بالتوافق مع خطط معللــة نظريا ، لتوجيه التطـــور الاجتماعي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وهذا الاستشراف يكون ماهية « الاستباق » العقلاني الذي يقوم به الوعي حيال الوجود الاجتماعي

٢ ـ الروابط القانونية الداخلية للوعي الاجتماعي

ثمة وجهة نظر تعتبر الاستقلالية النسبية للايديولوجيا قانونا داخليا لتطور الوعي وهناك من لا ينظر الى هذه « الاستقلالية النسبية » بوصفها قانونا داخليا ان شورافلوف ، على سبيل المثال ، يعتبرها واحدا من اهم القوانين السوسيولوجية العامة لتطور الوعي الاجتماعي وهو يقسم سائر القوانين السوسيولوجية العامة الى فئتين تجمع في الاولى القوانين التي تؤثر مباشرة على الوعي وفي الثانية قوانين تطور الاساس المادي للمجتمع كقانون وحدة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج وغيره من القوانين التي تحتاج الى واسطة لكي تؤثر على الوعي الاجتماعي أما بخصوص القوانين الداخلية الخاصة فانها قوانين تعكس الوجود قوانين وعي المحتوى المشيىء للعالم الموضوعي وايضا قوانين تمثل التطور الداخلي لاشكال الوعي قوانين صياغة الواقع المنعكس (٣) السؤال الآن لماذا سمي شورافلوف هذه القوانين «داخلية» و «خاصة» ؟ اذا كان نقيسها بالقوانين السوسيولوجية العامة فمن البدهي انها داخلية وعندئذ نتساءل عن القوانين التي تعتبر هذه خاصة بالمقارنة معها فضلا عن ذلك تمثل القوانين الداخلية الخاصة حسب التعريف قوانين انعكاس الواقع هل ترى لا تمثل قوانين الترابط المتبادل بين الوجود والوعي الاجتماعيين مثل هذا الانعكاس الوجود واين تكمن خاصية النوع الاول من القوانين بالقياس الى هذه

ثمة اسئلة اخرى كثيرة تطرح نفسها حين نتأمل شورافلوف آلية التأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة قوانين التطور الداخلي الوعي الاجتماعي وهو يقول ان سائر القوانين السوسيولوجية العامة تؤثر على الوعي الاجتماعي من خلال قوانينه الداخلية الخاصة (٣) في حين تحرز القوانين الداخلية بدورها تأثيرها على ارضية القوانين السوسيولوجية العامة هنا ينشأ سؤال كيف تؤثر بعض القوانين من خلال بعضها الآخر ؟ اذا كان الامر على هذه

الصورة فان القوانين الداخلية لن تكون سوى الشكل الظاهري للقوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية لا يمكن أن تكون مثل هذا الشكل الخارجي لانها تنسحب فقط على مجال الوعي بينما تشمل القوانين السوسيولوجية العامة سائر جوانب الحياة الاجتماعية

ترتبط المصاعب الناشئة لدى فهم التأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية للوعي الاجتماعي بتفسير شورافلوف للقوانين الداخلية بوصفها قوانين انعكاس الوجود انه يزعم أن القوانين الداخلية تندرج فقط على خصائص انعكاس الوجود عبر الوعي ويحاول بمساعدة هذه الخصائص أن يكشف النوعية المميزة للتأثير المتبادل بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية وهو يعتقد ان نمط الانعكاس اللصيق بهذا أو ذاك من أشكال الانعكاس هو السر الاساسي والحاسم ان أشكال الوعي الاجتماعي تعكس الوجود الاجتماعي وتتعين في السياق النهائي بفعل قوانينه ومع ذلك فان لتبعية محتوى أشكال الوعي المختلفة للعمليات الاجتماعية الموضوعية وفي طليعتها التطور الاقتصادي حدودها التي ليست فيما يخص كل شكل من أشكال الوعي مجرد شيء ظاهري بل تتعين من خلال النوع والطراز المميز لكل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي الذي تعكس به الواقع (٣) ننتج عن ذلك ان محتوى أشكال الوعي تابع في حدود ما لطراز الانعكاس أليس ذلك مبالغة ؟ يبدو لنا ان محتوى كل شكل من أشكال الوعي نوع الوعي) يتعين تماما من قبل الواقع نفسه حتى لو كان اكتمال وعمق الانعكاس مختلفا في الاشكال المختلفة للمعرفة

والصفة النوعية المميزه للانعكاس كما تظهر لدى تحليل أشكال المعرفة يجب أن تراعى أيضا لدى شرح التأثير المتبادل بين الانواع المختلفة للانساق القانونية غير انه من الصعب ايضاح الخصائص المميزة للقوانين الداخلية عبر وجود أنماط انعكاس مختلفة دون مراعاة ان الوعي الاجتماعي يلعب دورا فعالا وان سائر أنواعه ومجالاته تحقق وظائف مختلفة ان كل محاولة لدراسة القوانين الداخلية دون اعتبار لهذه الحقائق تؤدي الى مفهوم يعتبرها أشكالا ظاهرية فقط للقوانين « السوسيولوجية العامة بصفتها القوانين الوحيدة الفعالة والمؤثرة .

يجب أن نكون الارتباط بين القوانين السوسيولوجية العامة والقوانين الداخلية موضوعا لدراسة مستقلة ويمكننا القول في هذه العجالة ان تأثير القوانين السوسيولوجية لا يمكن أن يمسح الى مجرد تأثير من خلال القوانين الداخلية كما ان هذه ليست مجرد أشكال ظاهرية لتلك ونحن نتعامل هنا مع نوعين من القوانين ننصب نوعها الاول على دراسة التأثير المتبادل للوجود والوعي الاجتماعيين ويركز نوعها الثاني على دراسة الوحدة المختلفة للوعي الاجتماعي نفسه ولا يجوز لنا أن نربط هذين النوعين من القوانين ربطا جامدا فهما يملكان استقلاليه نسبيه عن بعضهما فضلا عن ذلك فاننا لسنا امام نوعين بل أمام ثلاثه انواع من السياق القانونيه ذات الطبيعة المتبادل فهناك الى جانب القوانين العامة للروابط المتبادل الوجود والوعي الاجتماعيين والقوانين الداخليه العامـه التي تعبر عن الروابط الجوهريه بين جوانب الوعي الاجتماعي خاصة بالانماط التاريخيـة للوعي هذا يعني انه لا يوجد هناك خط واحد يربط القوانين السوسيولوجية العامة بالقوانين الداخلية بل خطوط متعددة القوانين العامة للروابط المتبادلة بين الوجود والوعي من جهة والقوانين الداخلية العامة من جهة ثانية وبين القوانين العامة للوجود والوعي والقوانين النوعيه المميزة المطابقـة لهذه الروابط في تشكيلة اجتماعية معطاه وبين القوانين الداخلية العامـه والقوانين الداخلية الخاصة وهناك روابط كثيرة من هـذا النوع يجب على الباحث ان لا يقع في محذ تبسيطها

تعرض قوانين التطور الداخلي للوعي الاجتماعي الارتباطات والروابط الجوهرية بين عناصره ونحن نصفها كقوانين داخلية لان تأثيرها يقتصر على مجال الوعي دون سواه

وتكمن الصفة النوعية المميزة لقوانين الوعي الداخلية في انهـا تعبر جدليا عن الروابط بين أنواع نشاط البشر وأنواع علاقاتهم وبشكل عام يمكن تمييز ثلاث فئات من هـذه القوانين أولا قـوانين الروابط المتبادلة بين انواع الوعي الاجتماعي وتبدو بشكل خاص في عملية تشكل أوضاع الوعي ثانيا قوانين الروابط المتبادلة بين مجالات الوعي وتظهر في التمازج المتبادل لمحتواها والتكامل المتبادل لوظائفها ثالثا الروابط المتبادلة بين الانماط التاريخية الوعي الاجتماعي وتعبر عن نفسهـا فـي استمرارية الافكار والآراء وسواها من التكوينات الفكريـة لقد أبرزنا

لدى معالجة اوضاع الوعي ونشوئها خصائص الروابط المتبادلة لانواع الوعي ومررنا على الروابط المتبادلة لمجالات الوعي الاجتماعي وهنا نود فقط أن نشير الى قانون داخلي يتجلى في قابلية وظائف مجالات ـ وانواع ـ الوعي الاجتماعي للتبادل فمن المعروف ان وظيفة العلم هي معرفة العالم. ولكن بعض الانواع الاخرى للايديولوجيا تملك ايضا هذه الوظيفة هذا يعني انه تصاغ في الايديولوجيا ايضا معارف حقيقية حول الواقع وبالاصل فان الايديولوجيا تعبر بهذا القدر او ذاك تعبيرا صادقا عن المصالح الطبقية والا لما كان بوسعها أن تخدم الطبقات ولما قبلتها هذه كوعي خاص بها ومميز لها

وتصلح مقاييس الحقيقة التي تعتبر أساسية بالنسبة للعلم للتطبيق على المبادىء النظرية التي تشكل جزءا من كيان الايديولوجيا غير ان الايديولوجيا تشتمل أيضا على مبادىء معينة ونظام للقيم المعمول بها وشروط تحققها وتعليل برامج العمل الخ

ان الايديولوجيا والعلم هما مجالان مختلفان للوعي الاجتماعي ذلك لا يعني انهما لا يترابطان مع بعضهما فالعالم يتخذ دوما نظرة الى العالم هي نظرة طبقية معينة وتفتح النظرة الماركسية الى العالم آفاقا غير محدودة لامكانية المعرفة وفي نفس الوقت تمثل المبادىء العلمية بدورها المكون الجوهري للايديولوجية الماركسية

ان العلمية هي العلامة الجوهرية وان لم تكن العلامة الوحيدة للايديولوجيا أي ان الدور التقدمي أو الرجعي للايديولوجيا لا يرتبط فقط بمدى الفائدة التي قدمها واضعوها للعلم وتتحدد درجة استخدام العلم في بناء ايديولوجية ما بمدى تقدمية او رجعية المصالح الطبقية الموضوعية التي تعكسها

يمكن للعلم ومبادئه المتفرقة أن يمارسا اذن وظيفة ايديولوجية وهما يمارسان هذه الوظيفة فعلا ولكنهما لا يفعلان ذلك بما هما علم بل فقط عندما يندمجان في نظام ايديولوجي معين أي حين يستخدم العلم من طبقات معينة ولمصلحتها

لا يمكن لنا أن نوافق على ما يذهب اليه بعض العلماء من ان كل ايديولوجية تمثل وعيا زائفا ان عالم الاجتماع اليوغوسلافي لوكيك يفهم الايديولوجيا على هذا النحو وهو يعتقد ان البرجوازية لا تنفرد في امتلاك

وعي زائف بل ان البروليتاريا مثل هذا الوعي البروليتاريا في صيغة الاشتراكية الطوباوية ويضيف ان الاشتراكية العلمية تمثل تحرير البروليتاريا من قيود اي تفكير ايديولوجي ان الايديولوجيا تبدأ بالتلاشي مع تلاشي الطبقات وقد انتقد تصور لوكيك كاوتوبيا لانه يفترض ان سائر التناقضات ستختفي من المجتمع سيما فشيئا وعلى كل حال فان آراء لوكيك تعيد احياء التصورات البرجوازية حول الايديولوجيا كما سبق لكارل مانهايم أن صاغها في حينه فقد كان يعتقد ان الايديولوجيا هي النظر الضيقة والمحدودة الى العالم لطبقة ما وهي عاجزة عن أن تعكس موضوعيا الواقع

لدى التصدي لنقد مانهايم يجب التأكيد على ان الماركسية هي ايديولوجية علمية وانها بعكس الايديولوجيات البرجوازية غير العلمية انعكاس حقيقي للواقع وعلى المرء ان يؤكد ايضا ان الايديولوجيا تمارس كظاهرة فكرية وظائف نوعية مميزة يمكننا تحليلها من فهم وتقييم هذه الظاهرة بصورة صحيحة ان مانهايم يفترض في أطروحته حول النظرة الضيقة والمحدودة الى العالم ان المصالح الطبقية معزولة وانها لا ترتبط مع المصلحة الاجتماعية الخ وان المصلحة الاجتماعية لا توجد بالاساس على الاطلاق ولكنه يوجد في الواقع ترابط بين هذه الانواع من المصالح وتتعين المصلحة الاجتماعية قبل كل شيء بضرورة تطوير القوى المنتجة وتتطابق مصلحة البرجوازية في مرحلة صعودها تطابقا جزئيا مع مصلحة المجتمع هذه غير انها في مرحلة لاحقة تعارضت معها أما مصلحة البروليتاريا فهي منذ البداية متطابقة مع مصلحة الاغلبية لان البروليتاريا لا تحرر نفسها كطبقة فقط من الاستغلال بل تحرر معها المجتمع ايضا وهي تسيطر على السلطة السياسية ليس من أجل اضطهاد الطبقات الاخرى بل من اجل الغاء السيطرة الطبقية برمتها

وتنشأ ايديولوجية البروليتاريا كنظرية علمية أو كتعبير نظري عن الحركة البروليتارية الموجودة عن الصراع الطبقي للبروليتاريا وينبع الطابع العلمي للماركسية من ان علاقات الانتاج الاشتراكية لا يمكن أن تنشأ عفويا داخل المجتمع البرجوازي بل يجب عرضها نظريا واكتشاف قوانين التطور الموضوعي للمجتمع وتحديد الاتجاه الذي تتحرك الراسمالية فيه موضوعيا

وتتعارض ايديولوجية البروليتاريا بمحتواها مع سائر ايديولوجيات

الطبقات المستغلة التي كان هدفها تخليد الاستغلال والسيطرة الطبقية انها السلاح النظري في النضال ضد البرجوازية والردات الفكرية لتنظيم البناء الاشتراكي وتوحيد الكادحين هـــذه هي وظائفها في المجتمع الاشتراكي وهي تحققها بقدر ما تستند الى العلم

لدى دراسة مسألة التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية أكدنا على انه أوسع من مجرد النفوذ المتبادل للافكار والمشاعر وانه يمتد الى تكامل وظائف الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية الذي تتجلى في تأثيرها المتبادل مع الوجود الاجتماعي هذهالاطروحة جوهرية. ولهذا فاننا سنقدم بعض الشروح لها

تنتشر الايديولوجيا بين الجماهير ويمثل امتلاك هذه الطبقة أو تلك لتصورات وأفكار ايديولوجية وقـــولها لها كبرنامج عمل وتجسيد وتحقيق هذا البرنامج عمليـــة موضعة للايديولوجية عمليـة فحص تاريخي لمدى تطابقها مع التطور الاجتماعي

وتتبنى طبقة أو فئة اجتماعية ما ايديولوجية ما حين تتوافق هذه بدرجة معينة مع تجربتهـــا التاريخية ومشاعرها الاجتماعية ويرافق امتلاك الايديولوجية مع تجسيدها وفق الظروف المعطاة وحسب الخصائص السيكولوجية للمجموعة الاجتماعية المعنية حيث يحدث تمازج متبـادل للعناصر الايديولوجية والسيكولوجية تتحول على أساسه المواقف والمثـل والمبادىء والشعارات العامة الى دليل عمل للمجموعة الاجتماعية المعنية

ويتجلى الترابط بين الايديولوجية والسيكولوجية الاجتماعية منـذ نشوء الايديولوجيا فـضمن كأحد عناصرها المكونـــة تعبيرا أكثر وضوحا عن ذلك التقييم للواقـــع وعن تلك التجربـة التاريخية للصراع الطبقي اللذين يكون قد سبق لهما أن تكـــونا في الواقع بصورة عفويـــة الاحتجاج مفهوم العدالة الطموح نحو مستقبل أفضل

وفي سياق التأثير المتبادل لمحالي الوعي هذين يحدث اختيار نوعي تأخذ الايديولوجيا في مجراه ما هو جوهري بالنسبة للطبقة المعنية ونضالها الاجتماعي من بين القضـــايا الكثيرة التي تكوّن محتوى السيكولوجيـــا الاجتماعية وعلى سبيل المثال تتجاوز الايديولوجيا الثورية للطبقة العاملة العناصر التريديينونية في سيكولوجية البروليتاريا . آخـــذة في نفس

الوقت أفضل سماتها كالسلوك الثوري والتماسك والتنظيم والحسم في الصراع وتعبر عنها

ويعبر الترابط بين مجالي الوعي هذين عن نفسه في تغير الايديولوجيا تحت نفوذ السيكولوجية الاجتماعية هذا يمكن أن يكون نتاجا للتغيير الذي يصيب الظروف الاجتماعية وبنية المجتمع والذي يتجلى أولا في السيكولوجية الاجتماعية وهذا التغير يتوضع في أوضاع الوعي الاجتماعي مثل الامزجة الشعبية والرأي الاجتماعي

ويتحقق التأثير المتبادل بين الايديولوجية والسيكولوجية الاجتماعية في الانواع المختلفة للوعي الاجتماعي التي تمارس وظائف ايديولوجية وسيكولوجية ويملك كل نوع من الوعي الاجتماعي على كل حال أنماطا نوعية مميزة للارتباط مع الواقع أدوات ذهنية مؤسسات وتنظيمات يرتبط النوع المعين من الوعي بها يحقق وظائفه بمساعدتها من هذه الادوات الفكرية يمكن أن نذكر السلطة العرف التقاليد المعايير الاخلاقية الرأي الاجتماعي الخ

وتملك السلطة داخل الوعي الاجتماعي استقلالية نسبية وخاصة ابان عملية تشكل الرأي الاجتماعي ومن المؤكد مثلا ان السلطة تلعب دورا معينا في عملية نشر الاخبار عبر وسائل الاعلام الجماهيري وتغدو مادة الاعلام غالبا موضوعا للمناقشة حين تطرحها سلطة ما التداول الشفوي.

ان الظواهر المسماه للوعي الاجتماعي يمكن أن تعتبر عوامل فكرية تحقق بمساعدتها التأثير المتبادل بين الايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية كما تعتبر في نفس الوقت نتاجا ويمكن اعتبار وسائل الاعلام المعروفة جزءا من الادوات التي يتحقق بمساعدتها التأثير المتبادل للظواهر التي ذكرناها

مما قلناه حول قابلية تبادل أدوار التكوينات الفكرية وتكاملها كسمة جوهرية لتأثيرها المتبادل نستنتج ان الوعي الاجتماعي ربما انقسم الى مجالات وأنواع مختلفة الا انه يحقق وظائفه في العادة كوحدة واحدة

ويمكن الارتباط الاستمراري للافكار والنظرات في تطور الانماط التاريخية للوعي الاجتماعي في ان الثقافة الفكرية لأي مجتمع جديد لا تتطور في فراغ بل تقتبس من الماضي كل ما يوافق ومصالح الطبقات السائدة في هذا المجتمع . خلال ذلك تحدث عملية « اعادة تقييم للقيم

يكون سيحمها التناول النقدي لكثير مما خلفته العصور الماضيه ومواءمته مع الوضع الجديد

وتسمح استمراريه تطور الانمــاط التاريخية للوعي بفهم صحيح لكثير من ظواهر الحياة الفكرية التي ما كان ايضاحها بالامر السهل عند الانطلاق من المقوله الخام حول عكس الوعي للوجود وعلى سبيــل المثــال فانه لا يكفي لايضاح وقائع تاريخية كتطور الفلسفة الالمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في هذه البــلاد المتأخرة اقتصاديا وسياسيا فهم اسباب الازدهار الفكري لروسيــا المتاخرة في القرن التاسع عشر معرفة الظروف الداخليــة لهذين البلدين فهي لوحدهــا لا توضح الوقائع المذكورة في اعمال ماركس وانجلز ولينين ثمة براهين دامغــة على ان بلدانا متأخرة اقتصاديــا تستطــيع بتاثير التواصـــل الاستمرارية التاريخي للافكار تلعب في مراحــل تاريخية معينــة دورا طليعيا في تطور التفكير الاجتماعي

ان الاستمراريه التواصل التاريخيه في تطــور الثقافة الفكريه تملك خصائص تجعلها تتجلى في سائر التشكيلات الاجتماعيه هكـــذا تتذبذب تطور التشكيلات الاجتماعية ذات الطبيعه التناحرية بين صعــود وهبوط وهو امر ينعكس على أشكال ظهور استمرارية الثقافة الفكرية خلال فترات الصعود تطمح الطبقات السائدة الى الاستناد على ما هو تقدمي ومتقدم في ثقافة الماضي في حين تتسلح بكل ما هو رجعي في الماضي عندما ينهار مجتمعها ان المجتمع البرجوازي براهن بظهر هذا الميل في الفلسفة والفن والاخلاق وسواها من مجالات الحياة الفكرية

٣ ـ الروابط القانونية النوعيه للانماط التاريخية للوعي الاجتماعي

كل نمط تاريخي للوعي الاجتماعي تخضع لتأثير قوانين عامه وصفات نوعيه مميزه وتتحدد القوانين النوعية من خلال نمط الانتاج السائد والعلاقات الاجتماعية المشكلة المعطاه وتبرز كقوانين نوعية مميزة الروابط بين الوجود والوعي الاجتماعيين والقوانين الداخلية التي تعبر عن الروابط المتبادلة عناصر الوعي الاجتماعي في كلتا الحالتين تعتبر القوانين نوعية ومميزه بالمقارنة مع الروابط القانونية العامة الوجود والوعي وفيما يخص الروابط القانونية العامة لعناصر الوعي الموجوده في كل أنماط الوعي الاجتماعي

ما هي القوانين النوعيه المميز لنمط الوعي الاشتراكي في كتاب قضايا تطور الوعي الاشتراكي تم التمييز بين ثلاثة قوانين قانون التطور الهادف والمخطط للوعي الاشتراكي وقانون التقارب بين الوعي النظري واليومي وقانون وحده اشكال الوعي الاجتماعي (٤) وفي كتاب تاريخ الفلسفة تذكر قوانين التطور النوعية المميزة التالية قانون ثوره الاشتراكية في مجال الايديولوجيا والثقافه لخلق وعي المجتمعالجديد وقانون انعكاس الوحده السياسية ـ الاجتماعية والفكريه للمجتمع الجديد في الوعي وقانون نمو الدور الخلاق للجماهير الشعبية. وممارسته في الحياة الفكرية للمجتمع وقانون تقارب مختلف أشكال الوعي الاجتماعي العلم الفلسفة الفن الخ من حياة الشعب والدور المتعاظم للعلم في الوعي الاجتماعي وتقارب الامم الاشتراكية وحياتها الفكرية الذي يؤدي الى صبغ الوعي الاجتماعي وسائر أشكال الحياة الفكرية بصبغة أممية وانسانية متزايده

تنصب القوانين المذكوره كما يرى المرء على شروط خلق الوعي الاشتراكي من جهة وعلى الموضوع الذي تعكسه من جهة أخرى وعلى

دور الجماهير الشعبية في تطور الحيـــاة الفكرية للمجتمع والخصائص النوعية للوعي الاجتماعي الذي تصبح أكثر فأكثر أمميا وانسانيا شاملا.

يبدو لنا انه من غير المبرر النظر الى سائر القوانين المذكورة بوصفها قوانين نوعية مميزة للنمط الاشتراكي من الوعي والا فانه يجب علينا أن نعتبر سائر الروابط والعلاقات المباشرة وغير المباشرة للوعي الاجتماعي وسواها من الظواهر الفكرية للحياة الاجتماعية جزءا من هذه القوانين ان المرء يحتاج الى مقاييس تفرز على أساسهـــا الظواهر ويبدو لنا ان المقياس المطلوب ليس سوى الروابط والعلاقات الجـــوهرية والضرورية المتبادلة بين الوحود والوعي الاجتماعيين والروابط الداخلية بين عناصر الوعي الاجتماعي التي تنتج عن طبيعة النظام الاجتماعي الجديد وتعبر عن ماهية الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي الجديدين وفي الاشتراكية تخلق بين الوجود والوعي وبين الجوانب والانواع والمجالات المختلفـــة للوعي روابط متبادلة أوثق تملك خصائصها النوعية المميزة التي تنتـج بدورها تلك الفئة من القوانين النوعية المميزة التي نعتبرها قوانين التطور الداخلي للوعي

تكمن خاصية الوعي في المحتمع الاشتراكي كما أكدنا سابقا في انه تعبير عن الوجود الاجتماعي الاشتراكي في أفكار ونظريات ومشـــاعر وامزجة وسواها من التكوينات الفكرية التي تشترك فيها سائر طبقـــات المجتمع وفئاته هذا الوعي هو تكوين فكري موحد يميز المجتمعالاشتراكي دون سواه

وتكتسب الروابط المتبادلة بين عناصر الوعي الاجتماعي طبيعة اخرى أيضا في الاشتراكية ، لان قانون تطور الوعي في المجتمع لم يعد محكومـــا بالصراع بين أشكال الوعي الطبقي ننفي أحدها سواه بل بالاعتناء المتبادل بين سائر أنواع ومجالات وجوانب وأصعدة الوعي ككل موحد هذا لا يعني طبعا ان الحياة الفكرية لا تعرف الخلافات في الرأي والصراع بينالافكار والآراء الجديدة ومخلفات الماضي في الوعي والنضال الذي لا يلين ضـــد الايديولوجية البرجوازية

ان معرفة قوانين التطور النوعية المميزة للوعـــي الاجتماعي ترتبط من وجوه مختلفة باجراء دراسات نظرية واسعة حول الوجود الاجتماعي الاشتراكي ونشاط الجماهير الشعبية وطبيعـــة الوعي الاجتماعي ،

وفهم خصائص وبنية وأدوار الوعي الاجتماعي نفسه بهذا الاسلوب فقط يصبح بالامكان تحليل التبعية بين التكوينات البنيوية المختلفة للوعي والوجود الاجتماعيين بكلمات أخرى ان الانتقال من معرفة القوانين العامة لتطور الوعي ، الى معرفة القوانين النوعية المميزة المرتبطة بالوجود الاجتماعي الاشتراكي وخصائص الوعي الاجتماعي ككل موحد يصبح قيد الامكان

٤ ـ جدلية الوعي الاجتماعي والفردي

من أشكال الروابط الهامة للوعي الاجتماعي رباطه مع الوعي الفردي. وقد غدا هذا الرباط في السنوات الاخيرة موضوعا لبحث خاص يدرس العلاقات العامة للوعيين الاجتماعي والفردي وخصائصهما وتأثيرهما ببعضهما وطرقه ومع ذلك فان هناك قضايا كثيرة لم تحل حتى الآن وان كانت قد طرحت المرة الاولى ومن القضايا التي لم تحل بعد مسألة الميكانيزم (الآلية) التي نتوغل بها الوعي الاجتماعي الى الوعي الفردي ان الكشف عن هذا الميكانيزم سيساعد كثيرا في تحسين مجمل نظام تربية الشخصية ، كما هو معروف

ولا تتعين الخصائص الفردية لامتلاك محتوى الوعي الاجتماعي ، في الغالب ، بواسطة هذا المحتوى نفسه ، ولا بأهميته الموضوعية ، بل بظروف حياة الانسان الفرد ، اي بالمكان الذي يحتله الفرد في نظام العلاقات الاجتماعية ، وبتجربته الحياتية وثقافته وتربيته الخ ويرتبط بظروف حياة الانسان وخصائص طريقه فيها عملية الامتلاك الفردي للوعي الاجتماعي وتحويل محتوى الوعي الاجتماعي الى ملكية لوعي الفرد وهي (ظروف الحياة) تحدد أيضا روابط الفرد بالتكوينات الفكرية المختلفة السائدة في المجتمع والطبيعة الانتقائية لروابط الوعي الفردي مع الوعي الاجتماعي

يملك الوعي الفردي رابطة فعالة مع الوعي الاجتماعي ويفتش الانسان في الوعي الاجتماعي عن أجوبة هادفة للاسئلة التي تهمه هذه الطبيعة المميزة لرابطة الوعي ترتبط بالعلاقة الناشطة للانسان مع عالمه المحيط به وبحسب ماهيتها ، فان علاقة الوعي الاجتماعي بالفردي هي بدورها أيضا علاقة فعالة وانتقائية ويدل تاريخ تطور العلم والتفكير الاجتماعي على ان بعض الافكار المعينة التي نشأت في وعي بعض الافراد لم تتحول مرة واحدة الى وعي جماعي وحتى عندما تكون للاكتشافات

أهمية اجتماعيه كبيره فانها لا تعدو ملكيـــة عامه الا بعد انقضاء وقت طويل ويكمن سبب ذلك في شروط الحياة الاجتماعية للمجتمع

ويحتل الوعي الاجتماعي المكان المسيطر في عملية التأثير المتبادلالتي تربطه بالوعي الفردي فهو يتوغل اليه بصورة مباشرة وغير مبــاشرة يحدث في سياق عملية التعليم والتربية وخاصة عبر وسائل الاعلام الجماهيري تأثير مباشر اذ تقام احتكاك مباشر بيـن الاطراف المختلفة الداخلة هنا في تاثير متبادل وثمة طريق آخر لخلق هذا الاحتاك هو طريق ارتباطها عبر صلات وصل فكريــة مثل وعي الفئــات الاجتماعية والجماعات المختلفــة ويملك وعي الجماعات الاشتراكية أهميـــة كبيرة بالنسبة للمجتمع الاشتراكي فهي تمثلصلة الوصل بين المجتمع والفرد وتتكون من سائر فئات المجتمع

ويتعين العالم الفكري للجماعة بشروط الحياة العامة للمجتمع لذا نجد الوعي الاجتماعي تعبيره فيها ويبدو هذا في كل جماعة من خـلال محصلة الشروط النوعية المميزة التي تعيش فيظلها فيتلقى وعيها سمات نوعية خاصة تميزه عن الوعي الفردي والجماعي

ويتكون الوعي الفردي أساسا تحت تأثير الوعي الجماعي وهـذا يتحدد من خلال خصائص النشاط الحياتي للجماعة التي يجد أفرادهـــا أنفسهم في احتكاك مستمر مع بعضهـــم فتتشكل فيما بينهـم روابط بالغة التنوع تقوم على المشاعر فتعبر علاقاتهم ببعضهم وتقييمهم للحقائق والاحداث الاجتماعية عن نفسها بالضرورة في شكل شعوري ان الجماعة تدين أو تؤيد تسر أو تغضب ولهذا تشكل الامزجة والآراء المشتركـة العناصر الفكرية الرئيسية لوعيها وتنتقل الامزجة والآراء السائدة فـي الجماعة الى سائر فرادها بصور حتمية

وقد دلت دراسه الوعي الجمـــاعي بساليب البحث الاجتماعي النفسي ان فيه نظاما ثابتا وواضح التعيين مـن المطامح والقيم والمعايير والاحكام النمطية تعكس وجود الجماعة المعنية وينسحب عليه كـل ما يمس مصالحها ويرتبط بتحقيقها لوظائفها الاساسية (٥)

وتوجه العناصر المكونة للوعي الجماعي سلوك الفرد الذي يعلل تصرفاته بها ويرتبط دور هذه العناصر في حياة الانسان الفرد بما تمثله الجماعة نفسها . ففي الجماعة المتماسكة ذات الاهداف والمهمـات وآفـاق التطور

الموحده سكو ن عاده راي مشترك تتجسد فيه المطالب الاجتماعية الضرورية المطلوبة من سلوك الفرد فيرى في سلطة الرأي العام ما يسند اليه في أعماله ويغدو الرأي المشترك بالنسبة للفرد عاملا من عوامل حياته تحس بحاجة داخلية اليه ويسمح الرأي المشترك للفرد بوصفه تقييما العمل والسلوك بأن سعرف على نفسه فيعي خصاله ونواقصه ويؤكد ذاته كسخصية معروفة الابعاد

يختلف تصرف الافراد حيال رأي الجماعة ويملك الرأي الذي تتبناه الجماعة أكبر الاثر حين يراعي مصالحها المشتركة والمصالح السخصية لكل فرد فيها ويتجلى نفوذ رأي الجماعة على الفرد في انه يدفعه الى الاعتراف بأولوية وقانونية أحكام الجماعة ويوقظ لديه الشعور والرغبة بأن يكون عضوا جديرا بها

وىمثل رأي الجماعة صلة الوصل بين رأي المجتمع والشخصية الفردية ولا يبدو رأي الجماعة بالنسبة للفرد كرأي لهذه أو تلك من الجماعات بل كرأي اجتماعي والحال انه يكون اجتماعيا فعلا بقدر تتماثل مصالح الجماعة والمجتمع ان وحدة المصالح تؤدي الى أن يكون الرأي الاجتماعي من عملية التاثير المتبادل لآراء الجماعات. في حين يشكل محتوى الرأي الاجتماعي قوامها

يحدث تحت نفوذ الموافقة و الادانة التي يتضمنها الرأي الاجتماعي تشكل وتغير التوجه أو التصرف الحياتي للفرد وهو ما يصفه علماء النفس عادة بالاستعداد لتلقي ظواهر ووقائع العالم بطريقة معينة

ويعبر نفوذ الراي الاجتماعي على موقف الفرد عن نفسه بواسطة الاهداف والمثل الاجتماعية التي تتجلى فيه وبروابطه المباشرة بهذا ذاك من الاشخاص الذين يتورطون في صراع مع مصالح الجماعة والمجتمع احمالا ان المرء الذي يخرق المعايير الاجتماعية التي يسندها الرأي الاجتماعي يدان من الجماعة والمجتمع وتحدث الادانة الاجتماعية تغيرا لا شك فيه لموقف الفرد

وتدل الدراسات النفسية ـ الاجتماعية انه لا يحدث في كل حالات الادانة العامة لسلوك انسان ما من قبل الرأي الاجتماعي تحول سريع في وعيه وفي بعض الحالات تحدث الادانة غضبا لا يتحول الى شعور بالخجل ولا يؤدي في نفس الوقت الى الندم ومع ذلك فان استهجان

الراي الاجتماعي لمن نخرق المعايير الاخلاقية يؤدي في معظم الحالات الى اخضاعه لمتطلبات الجماعة وهذا قد نكون في البدء ظاهريا فحسب ولكنه يبقى خطوة على طريق التصحيح ان القول بالمطالب الجماعة التي تتحقق فقط تحت رقابة الرأي العام يؤدي الى تجميع التجارب الاخلاقية التي تقود عاجلا أو آجلا الى وعي داخلي لدى الفرد لمطالب الجماعة

ويدل تحليل نفوذ الرأي الجماعي على وعي الفرد ان الشخص المفرد يرى العالم في العادة بصورة الجماعة ويقيم الوقائع والاحداث من منظوراتها سواء كان يعي ذلك أم لا يعيه وتترك طبيعة ومستوى الوعي الجماعي آثارا عميقة في الوعي الفردي

وتعتبر عملية تغلغل محتوى الوعي الاجتماعي في الوعي الفردي عملية موجهة عن وعي من جهة (ما دامت تحدث من خلال التربية والتعليم والنشاط الايديولوجي وعفوية من جهة أخرى ومن وجود مختلفة يعتبر نفوذ الوسط المحيط بالانسان غير قابل للرقابة ولكن البيئة الاجتماعية والوسط وظروف الحياة تصنع الانسان كما يصنعها الانسان

يتحقق تكوّن وتطور الوعي الجماعي على أساس ترسيخ الروابط داخل الجماعة وبقدر ما تكون الروابط غنية ومتنوعة بقدر ما تتكون الوعي الفردي بسرعة أكبر ويكون بدوره أكثر غنى وتنوعا في الجماعة يكمن اذن منبع غنى الشخصية الانسانية وفيه أيضا توجد من جهة أخرى أسباب قصور الوعي الفردي الذي ينشأ عن تخف الروابط التي تشد الجماعة الى بعضها

يتملك البشر محتوى الوعي الاجتماعي بطرق مختلفة وبين الوعي الاجتماعي والفردي يمكن أن تنشأ تناقضات تتخذ أشكالا ومظاهر جد متنوعة بقدر ما هي متنوعة الاسباب التي تنجمها لذا يجب على المرء لدى تربية الانسان الجديد ايضاح الاشكال التي تعبر بها هذه التناقضات بين أنواع الوعي المعطاة عن نفسها بيد أن الامر الرئيسي هو كشف أسباب التناقضات القائمة من أجل التغلب عليها

مراجع الفصل السادس

ـ شيرشونوف المرجع السابق

٢ ـ سيبانيان المرجع السابق

٣ ـ شورافلوف المرجع السابق

٤ ـ قضايا تطور الوعي الاشتراكي ص ٩ وما يليها

٥ ـ أولمانسكي علم الاجتماع في الاتحاد السوفياتي الجزء ٩ ، موسكو ١٩٦٥ ، ص ٥١١

فهرست

صفحة

الفصل الاول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

★ طبعت على مطابع المستقبل

بيروت ـ لبنان تلفون : ٨٣٢٦٤٨

الثمن ٢٠ ل.ل. اوما يعادلها